بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تـثوير
قضـايا أسلوب «القَصر»
من كتاب دلائــل الإعجاز
للإمام عبدِ القاهرِ الجرجاني
(ت: ٤٧١هـ)

بقلم

مَحمُـود توفيق مُحمد سعـد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

اللهم صَل وسَلم وبارك علَى سيدنا محمدّ وعلى آلِهِ وأصحابِه وأزواجه وذريته وأمته صَلاةً تليقُ بجلالكِ وجمالِك وكمالك وبِمقامه عندك في كل لمحة ونفس عدَد أسْمائك الْحسْنى وصِفاتِك الْعليا.

هذه وريقاتٌ تحمل شيئًا من مدارسةِ فصلٍ من كتابِ «دلائل الإعجاز» تدريبًا لطلابِ العلم على قراءة المصادر البلاغية :«فصل القصر».

وهذه الوُريقاتُ لا تُغني عن أن تَكونَ مُخادنةٌ بيْن الطّالبِ وكتابِ «دلائل الإعجاز» ([1])

وحرًى بك - طالبَ علمٍ - ألّا تقرأَ هذه الوريقاتِ قبل أن تكونَ لك جلساتٌ وجلساتٌ مع كتابِ "دلائل الإعجاز " في هذين الفصْلَيْن تحاورُه وتُقيّد ما أمكنك أن تستنبطه بنفسك لنفسِك منه ، ثُمَّ تقرأ هذه الوريقات وتُقارن ما سجلته من قراءتك واستنباطاتك بما في هذه الوريقات ، إذا ما أردتَ لنفسك أن تكونَ يومًا ما من أهل العلم الّذين يُؤخذ عنهم العلم أمّا إن عمدتَ إلى قراءة هذه الوريقات أوَّلًا، فأكاد أقطعُ أنّك لن تكون حرًا إذا ما أردتَ بعدُ أن تقرأ أنت بنفسك لنفسك

وحريّ بك بل واجبٌ عنك - لا يسقط بتة – ألا تجعل ما في هذه الأوراق مصدرًا ولا مرجعا .

---

[1]) ليس حسنًا أن تقرأ مسألةً في كتاب «دلائل الإعجاز» من قبل أن تحيط علمًا وفقهًا وفهمًا في كتاب « الإيضاح» ثم كتاب «المطول » وأن تقرأها في قصيدةٍ جاهليةٍ أو سورة من سور القرآن، فقراءة المسألة بلاغية من سفر بلاغيّ في واقعها في البيان العالي البديعِ المدهش،ثُم البيان العليّ المعجز هو السبيل القويم إلى حسن فقه ما في «دلائل الإعجاز»

ومن ولج قاموس «دلائل الإعجاز» من قبل أن يسبح في رافد "الإيضاح" و" المطول" فإنه قد عرض نفسَه لما لا يُحمـد . فافهــم

اجعلها صورة من صور القراءة تبصرها بفؤادك الرشيد النصيح ، ثُم تنقل عنها .إنك إن لم فعلت واتخذتها مصدرا أو مرجعًا غبنت نفسك بل أنت المغتالها.

عليك أن تقرأها مرة واحدة قراءة واعيةً ناقدة تستخلص مثالبها وما تظن أنه قويمٌ ، ثم ألقها من وراء ظهرك ، لا تلتفت إليها.

ما كتبتها لتجعلها مصدرًا أو مرجعًا . كتبتها أعرض في ما صنَعه فؤادي ولساني، ليتبن مثلُك ما فيها من نقص واضطرابٍ وغفلة ووهن، فيقوّم ذلك ، وتتقي الوقوع في مثل ما وقعت فيه ، فمن أدوات الإصابة أن تدرس المحاولات الخاطئة أو النَّاقصة أوالعاجزة، للتقي التردّي في مثلها.

سيدنا حذيفة بن اليمان رَضِي اللهُ عَنه كان يسألُ الرسول صَلى الله عَليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم عن الشر مخافة الوقوع فيه، والناس يسألونه عن الخير ليصنعوه، ومن عمد إلى صناعة الخير وهو لا يعرف الشر، لا يكون في أمنةٍ من أن يتردى في الشر، وهو يحسب أنه خير .

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}[الكهف:١٠٣- ١٠٤]

{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُون}[فاطر:٨]

ولو أنَّي علمت ما في هذه الأوراق من ضلالة وخطإٍ لأصلحته ، وما عرضته، لذا عرضته عليك لتهديني إليه، فأصلحه، فالمؤمن مرآة أخيه.

أنت الآن – طالب دراساتٍ عليا - لست بحاجةٍ إلى من يحملك على كتفه، أو يقرأ لك ، ويلقنك . قد شببت عن الطَّوقِ ، فابدأ بنفسِك لنفسِك ، وقراءتك لما كتب الآخرون لا لتحمِل عنهم وتقلدهم، فتكون إمعةً ، كلّا أنت تقرأ ما كتب الآخرون بعد ما تقرأ أنت وتسجّل ما فهمتَ لتقارن به ما فهم الآخرون، لا لتستغني بقراءتهم عن قراءتك.

أترضى إذ تكون جائعًا أن يأكل غيرك لتشبع أنت ، لا فرق بين حـاجة جسدك لغذائه، وحاجة عقلك لغذائه، باشر الأمر بنفسِك.

ما يكونُ لي أن أعينك على أن تحرم نفسك من التّمتّع بنعمةِ التّفكير وصناعة غذاء عقلك بنفسِك ، ما يكونُ لي أن أفعل، وإلّا كنتُ – واللهُ الْمستعاذُ به من ذلك - قَد خُنتُ رسالتي التي تتمثَّل في صناعتك طالبَ علمٍ نبيلًا ؛ لتكونَ مشروع عالمٍ ربانيّ يُخرجَ نفسَه وقومه وأمّته والجماعة الإنسانية من الظلمات إلى النور.

أنا لا أكتبُ لطلابِ العلم ، ولا سيَّما طلاب الدراسات العليا ليحملوا عني ، وليستغنوا بما أكتب عن أن يفكروا ويعبروا بأنفسهم، وإنّما أكتب به ليقارنوا ما كتبوا بما كتبتُ ، وليبصروا فيم هم كانوا فيه الأعلى والأحكم ، وفي ما كنت أنا فيه الأدنى أو الأبعد عن الصواب ، وليتبصّروا أسباب العلو والدنوّ عندهم وعندي ، فمعرفة الأسباب سبيلٌ إلى النُّجْح في اتخاذ الدواء الصّحيح النّجيع .

ولا تحقرن نفسَك ، فما كان عطاءُ ربك محظورًا . فقد يَمُنّ الله - جَلَّ جَلالُهُ- عليك بفهم لم يمنّ به على أحد من أشياخك.

روى الشيخان البخاري ومسلم بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : **« يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ »** .([1])

أنعم الله - سُبْحانَهُ وَتَعَالَى – عليك بعقلك وذوقك ، ويجبُ أن تشكر الله - جَلَّ جَلالُهُ - على هذه النّعمة ، وشكرها بحسن استثمارها فيما خلقت له ، فمن عطل عقله وذوقه، واعتمد على عقول الآخرين ، فقد كفر بنعمة الله تعالى ،والكفر بالنعمة قد يفضي إلى الكفر بالمنعم - جَلَّ جَلالُهُ - . فاحذر

والله - سُبْحانَهُ وَتَعَالَى – يُحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده .

---

[1]) هذا نداء من سيّدنا النبيّ الرؤوف الرحيم - عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام- للمسلمة والمسلم ألا يحقر ما يُهديه لأخيه وإن كان صغيرًا قليلًا ، فلعل أخاه لا يملك مثله بل هو بحاجة إلى هذا النزير الصغير. فأنت طالب علم إن كان ما عندك قليلًا من العلم فغيرك ليس عنده شيء من العلم، فتصدق عليه به حسبة لوجه الله تعالى

رَوى التّرمذي في كتاب «الأدب» من جامعه بسندِه عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رَضِي اللهُ عَنهم- قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم - « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ** ».

ومن أجلِّ نعم الله –تعالى- عليك إيمانُك به، وعقلك ، فَعليك أن تُرِيَ الله - جَلَّ جَلالُهُ - أثر هاتين النّعمتين: الإسلام والعقل عليك .

والله - سُبْحانَهُ وَتَعَالَى – يقُول لرسوله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم في رأس المعنى في سورة «الضّحى » ﴿ **وَأَمّا بِنِعْمَةِ ربّك فَحَدِّثْ**﴾

والتّحديثُ بالنّعمة أن تُرَى آثارُها عليك ، فينطقُ لسان حالك أنّك مسلمٌ عَقُولٌ فَهُوم، فالزمْ

على طالب الدّراسات العليا أن يسبر غوره في قراءة التّراث ، لِيعلمَ مقدار ما هو مقتدرٌ على أن يغوص وأن يسبح، فإذا ما قرأ بعد ذلك ما أنتجتْه قراءةُ غيره وقاس ما أنتج بما أنتجه غيره، وأبصر ما اتفقا فيه وما اختلفا ، وأيهما كان أعلى ، وأبصر أسباب علّوه هُو ، أوْ عُلو غيره ، وقوّم مِن منهاج قراءته ما أعوج تحقق له أن يكونَ ذا قدمٍ في الوفاء باسْتحقاقاتِ القراءة «الاحترافية ».

بـإدمان هذه القراءة يمكنك أن تكون يومًا مشروعًا لعالمٍ ربّانيّ يُؤخذ عنه في تخصّصه. فتكون يومًا من ورثة سيدنا رسُول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم .

إذا ما كان الله تعالى لم يمنّ على كثيرٍ منّا أن يكون من آل البيت الشريف نسبًا، فإن الله تعالى قد فتح أمـامك الطّريق لتكون من ورثة صَاحب البيتِ : ورثة سيّدنا رسولِ الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم إذا ما جاهدت لتكون من العلماء الربانيين، فحيّهلْ.

واعلمنّ علمَ يقينٍ أنّ كلّ علمٍ له منهاجُ قراءة ، وله أدواتُ قراءة ، فمن يقرأ " النّحو" بما يقرأُ به "البلاغة" فلن يتيسّر له أن يكونَ عالمًا، بل لا يتيَسَّرُ له أن يكون نافعًا.

«عِلمُ البلاغةِ العربي» ([1]) ليس علمًا صرفًا كأبيه : علم "النحو" عند المتأخرين ، هو علمٌ ممزوجٌ بذوق نفسيّ وروحِـيّ ،من أنَّ عُظم عنايته بما وراءَ أصل المعنى ، صُورةً ودلالَةً ومدلولًا واقتضاءً وأثرًا ؛ لذا كان علمًا يحتاجُ طالبُه إلى ثلاثٍ :

أ) إلى ذكاءٍ عقليٍ ممزوجٍ بحكمةٍ يسبرُ به غورَ القضَايا والمسائل الدّقيقة واللطيفة في هذا العلمِ .

ب) وإلى تدبّر فؤاديّ محيط متغوّر يحصلُ به ما هو مكنوز من لطيفِ المعاني في هذه القضايا والمسائلِ .

ت) وإلى تذوّق روحي شفيف لطيف يرتقِي به في مدارج القربِ الأقدس من الله - سُبْحانَهُ وَتَعَالَى - فبهذا التّذوّق الرُّوحي يُمكنه أن يَستطعم المعاني الإحسانية في بيان الوحي قُرآنًا وسُنةً ، وهذا الاستطعام هو المقصدُ الأسنى من مدارسة «علم البلاغة العربي» فمن لم يك ذلك هو غاية الغايات من هذه المدارسة فقد ضَلّ السبيل.

«علم البلاغة العربي» ليستْ وظيفه الرئيسة، ومنتهى سَعيه الجهيد الرشيد هي تذوق الكلمة الإنسان البديعة المدهشة شعرًا ونثرًا أدبيًا ، كلّا . ذلك مرحلة إلى غاية عظمي هي المقصد الأعظــم.

---

[1]) أحرصُ على أن أسميه « عِلم البلاغة العربيّ » واصفًا " العلم"بأنه عربي إيماء إلى أن علم بلاغة لسان القرآن لن يكون إلا عربيًا ،ولن يكون في سداه ولحمته خيط أعجمي، نحن نقرأ ما أنتجَ العقل البلاغي من قولٍ في بلاغة اللسان الأعجمي لا لنحمل ثمار ما فعلوا. كلّا، بل لنقف على منهاجهم في تعاملهم مع لسانهم، أما الثمار فليستْ هي الثمار ، فاحذر أن تحمل عن أعجمي ثمار عقله في العلوم الإنسانية الاجتماعية، وفي صدرها علوم اللسان ،والثـقافة . فلكل قومٍ لسانهم وثُقافتهم.

أما العلوم التجريبية العملية كمثل علم الطب والهندسة، والرياضياتِ والفلك والكيماء ونحو ذلك فالأمر شركة بين الناس لا دخل للعقيدة والشريعة والأخلاق فيها. فيحمل بعض الناس بعضهم عن بعض فيها دون ضررٍ ، فافهــم.

وظيفته الرئيسة أن ينقلَ مَن له قدمُ صدقٍ في تدبره بيان الوحي المعجز قرآنا وسنةً من منزلة المراقبة الفؤادية في جميع أمرِه «فإنّه يراك» إلى منزلة المشاهدةِ الفؤادية « كأنّك تراه » ثم ينقلك من منزلة المحب لله تعالى إلى مقام أن تكون أنت محبوبه - جَلَّ جَلالُهُ- وفرقٌ جدُّ شسيع بين منزلةِ المحبِ لربَه -سُبْحانَهُ وَتَعَالَى – ومقام مَنْ يكونُ محبوبَ ربّه - عَزّ وعَلاً - ولن تكونَ محبوبًا إلا إذا استويتَ على عرشِ محبتك الله – تعالى- ظاهرًا وباطنًا. وتلك جنتك في مسيرك: في الدنيا. فإن دخلتها بنفسِك في دنياك أدخلك الله تعالى فردوسه الأعلى في أخراك.

« ...**مَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ** » . (البخاري: الرقاق)

وعلى قدر امتلاكِك هذه الثلاث يكونُ تميزك وتهيؤك لتكون يومًا عالمًا ربّانيًا.

ولذا أذهبُ إلى أن «علم البلاغة العربي» ضرورة لعلماء "أصولِ فقه الإحسان" الذي يتصاعدون بأنفسهم والناس بلسان حالهم، ولسان مقالهم من مقام « المتقين » الذي جاء يبيان الوحي قُرآنا وسنةً بتبيين استحقاقات هذا المقام ،وبعطاءات القائمين بالوفاء بتلك الاستحقاقات إلى مقامٍ أسمَى: «مقامِ الإحسان» كما بين المبتدأ والمختتم حديث جبريل – عَلَيْهِ السّلام - : « **أنْ تَعبُدَ الله كَأنَك تراهُ ، فإن لمْ تكن تراهُ فإنه يَراك** » الجامع لمنزل: المراقبةِ الفؤاديةِ ، ومنزلِ المشاهدة الرّبانية لأسماء اللهِ الحُسنى.

علماء " أصول فقه الإحسان وأحكامه وآدابه " أحوجُ الناسِ إلى «علم البلاغة العربيّ» الجامع بيْن دقائقِ العلمِ الصحيحِ الصّريح والذوقِ الرُّحيّ اللطيفِ الطريف

وكتبه محمود تَوفيق مُحمّد سعد القاضي

معالمُ الطريق
إلـى القراءةِ الاحترافيّـة
لكتابِ "دلائل الإعجاز "

كتاب «دلائل الإعجاز» معقود لتبيين معالم الإعجاز البلاغي في البيان القرآني ،وملامحه، وليس معقودًا لبيان أدلة الإعجاز القرآن والبراهين على ذلك، فقد قامت بذلك «رِسَالة الشافيةَ» التي صنعت قبل كتاب «دَلائلِ الإعجاز» وبعد صناعةِ كتاب «أسرار البَلاغة» ، فقوله «دلائل» ليس جمعًا لكلمة «دليل أي برهان » بل هي جمع كلمة «دَلالة» فقارئ هذا الكتاب معنى باستبصار معالم الإعجاز البياني وملامحه الدقيقة واللطيفة التي لا تتناهى ، وهي دلالاتٌ قائمةٌ في صورة «المعنى القرآني» فالبلاغة القرآنية المعجزة المدهشة معدنها المعنى ،والصورة مجلاة هذا المعنى ومرآته .

وهذا المعنى القرآني متسمٌ بسمةٍ كليّة لا تفارقـه أبدَا سواء كان معنى مكنوزًا في جملة أو آية أو نجمٍ أو معقد أو سورة.

تلك السمة أنّ معنى عوده ثلاثة:

- الوحدانية
- وجلالُ الألوهيّة
- وجمال الربوبية

ومن تدبر جملة فما فوقها في القرآن لم تدرك بصيرته هذه الثّلاثة ولم يستطعمها فؤادُه الرّشيد فما هو بمدرك شيئًا مِن دلائل إعجاز القرآن.

*****

كتاب «دلائل الإعجاز» وما شاكله من أسفارِ أعيانِ أهل العلم في أي بابٍ من أبوب العلم، يجبُ أن يقرأ قراءة «احترافية».

والقراءة الاحترافية تكونُ على أربع قـراءات.

- **القِراءةُ الأولى**

لتحصيل العلم الدقيق المحيط بقضايا ومسائل هذا العلم ومذاهب الأعيان وآرائهم فيها . **وهذا أيسر الأربعة تحقيقًا.**

- **والقراءة الثانية:**

استبصار منهاج صانعِ السفر في التفكير في هذه القضَايا والمسائل، وموقفه من مذاهب سلفه وأقرانه وآرائهم في هذه القضَايا والمسائل وهذا هو الأجلّ الأحمد الأمجد

- **القرأءة الثالثـة:**

استبصار منهاج صَانعه في الإعراب عمّا أنتجه تفكيره السابق، وهل كان تعبيره مطابقًا مقتضى حال تفكيره وحال ما يفكر فيه ، والمقصد الذي صنع له ذلك السفر

ذلك أنّ كلام الأعيان من العلماء في أسفارهم كلامٌ بليغ ، كمثل بلاغة قصيدة من عيون الشعر العربي ، لا تقل البلاغة فيه عمّا في تلك القصائد، فبيان عبد القاهر في كتابيه " أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" نصٌ بليغ جديرٌ بأن يكون مناط مدارسة جادة ودقيقة ومحيطةٍ ومتغورة ، تستبصرُ مدَى تحقق جوهر "البلاغة فنا" في تعبيره .

وجوهر " البلاغة الفنية الإبداعية" التي يمارسُها الشعراء وكل بليغ إنما هو مطابقة الكلامِ الفصَيح لمقتضى الحال، بكلّ ما تتسع له كلمة "الحال" منها حال ما يتكلمُ فيه، وحال ما يتكلّم له، وحال من يكلم بِه ، ومن يتكلم والزّمان الذي يتكلم فيه ... وهكذا وهذا يتحقق في بيان العلماء في أسفارهم. ومن لم يكن مقتدرًا على أن يستبصر الخصائص التركيبيّة والدّلاليّة التي تُحَسّنُ المعاني في فؤاد المتلقي الرّشيد ، فتتمكن

فيه لا يكون البتة أهلًا للقراءة « الاحترافية » وهذا ما يعينك على أن تكون ممن يُحمل عنه العلم، فيحمل هومن خملهم فيضًا من الحسنات وهو في قبره إن هو أخلصَ القصد وأتقن الصنع.

- **القرآءة الرابعة** : قراءة السفر البلاغيّ في منتج الإبداعِ الأدبيِ لِلعصورِ الذهبية ، ولا سيما ما قبلَ المبْعثِ، والقرونُ الثلاثةُ الهجريّةُ الأُول. ثُمَّ قراءته في بيان الوحي قُرآنًا وسنَّةً.

هذه القراءةُ الرَّابعة هي فاتحةُ الطريقِ إلى تطوير العقلِ البلاغي العربيّ وتَجديده ، ذلك أن هذا العلم لنْ يتجدد بما يسترفد من خارج ما هو عربيّ قحّ . فالمذاهبُ اللغوية والأدبية والنقدية المستنبة في ثقافات أعجمية لا تتوافقُ مع العقلِ العربيّ القحّ . ([1])

*****

وطالب «علم البلاغة العربي» إذا لم يمكن ذا اقتدارٍ على الوفاء باستحقاقات هذه القراءة « الاحترافية » للبيان : بيان الوحي قُرآنا وسنة ، وبيان الإبداع البشري شعرًا ونثرًا أدبِيًّا وعلميًّا فحق عليه أن لا يُذلّ نفسه بتعريضها لما لا تطيق .

---

[1]) لو كنتُ لجعلت برنامج الدراسات العليا في السنتين التمهيديتين لتخصص البلاغة هو القراءة التحليلية التدبرية عقلًا وذوقًا لأبواب «علم البلاغة العربي » ممثلة في كتابي عبد القاهر ثم في" المطول" في ديوان الشعر العربي الجاهليّ ، بحيثُ يقرأ طلاب العلم مع شيخهم قضايا ومسائل هذا العلم ومذاهب العلماء فيها في قصيدة من القصائد الجاهلية،وناقش آراء العلماء في القضية أو المسألة البلاغية في القصيدة، ويكون معالجة هذه القضايا من واقع الإبداع الشعري، وليس شرح الشيخ ما قال عبد القاهر أو غيره بعيدًا عن الشعر.

ثم يكلف الطلاب بقراءة القضايا المقررة عليهم في قصيدة أو قصيدتين جاهليتين ، وحدهم ليكون ذلك هو مناط الاختبار التحريريّ والشفهيّ.

إن قراءة الشعر الجاهلي قواءة محيطة محكمة متغورة هو السبيل الأمجد الأحمد لتطويل العقلِ البلاغي العربي وتجديده. فهل يسعى القائمون على الأمر إلى مناقشوة هذا المقترح ووضع منهاج عملي محكم لتحقيق ذلك. اللهم قد بلغتُ اللهمّ فاشهد.

وآفةطلبِ العلم أن غير قليلٍ من طالبيه يُقدِمون من قبل أن يسبروا قدراتهم العقلية والنفسية والإيمانية على الاقتدار على الوفاء باستحقاقات العلم الذي يطلبون من أنّهم لا يعتنونبالعرفان باستحقاقات العلم الذي يطلبون ، فاستحقاقت طلب علم النحو غيرها استحقاقات علم البلاغة العربيّ وهكذا .

وحقٌ على أعيان كل علمٍ من الأعيان أن يُبيّنوا لطلابِ ما هم أعيان علمائه استحقاقات هذا العلم الكسبية ،والفطرية والوهبية.

رَوَى التِّرمذي وابن ماجه في كتاب" الفتن" من سُنَنِهِ ، وأحمدُ في مسندِه من حديثِ حُذَيْفَةَ بن اليَمــان رَضِي اللهُ عَنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « **لاَ يَنْبَغِى لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ** ».

قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ. قَالَ « يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاَءِ لِمَا لاَ يُطِيقُ ». (١)

وروى الرُّوَيَاني في مسنده من حديث أبي موسَى الأشعري رَضِي اللهُ عَنه قال.: قالَ رسولُ الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم : «**مَن تولّى عملًا، وهو يعلم أنه ليس له بأهل فليتبَوأْ مَقعَدهُ من النارِ** »(٢)

---

١) لا يراد من هذا البيان البوي الحكيم أنّ يخلد المسلم إلى الأرض ولا يتصدي للعصيات بدعوى أنه لا يطيق، بل هو دعوة إلى أن يُهيّئ نفسه للعصيات، فلا تأتي وتجده خوارًا يريد أن ينقض من قبل أن تحوم حوله. هو دعوة إلى اتخاذ العدة للقيا كل عصي متمرد من وقائع الحياة.

٢) في هذا الحديث حثٌ بالغ على أن يعمل المرء جاهدًا على أن يكون أهلًا لما يقوم به من عملٍ، فإن لم يحمل نفسه على ذلك ، فخير له أن يدعه لغيرِه ممن هو أهلٌ له كيما لا يقع في الأرض فساد مبير، ذلك أنه إذا أسند الأمر إلى غير أهله فسدت الحياة، وإذا ما فسدت فانتظر الساعة، وأنت ترى أن كل ما نحنُ فيه من فساد في كل مناحي الحياة هو أن الأمور أسندت إلى إهل الثقة ، وليس إلى أهل الكفاءة، فكم من ذي منصبٍ في الناس من هو أعظم منه نأهلًا لذلك المنصب. وقد توعد سيدنا رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم من لم ينصح لأمته إذا ما كان عليها واليا أيا كانت ولايته

رَوَى البخاري في كتاب «الأحكام » من صحيحه بسنده عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ عَادَ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ فِى مَرَضِهِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ إِنِّى مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه

ومما يُعِينك على إتقان ماأنت قائمٌ له أن تستحضر ثمرة ما ستبذله من عمرك وجُهدك في خدمة هذا العلم وإتقانه .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) (١)



وسلم - سَمِعْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً ، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ ، إِلاَّ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »

١) منْ إِ حسانك إلى نفسِك – طالبَ علمٍ نفيع - أن تتدبر حكمة جعل كلِّ رأس المعنى القرآني في سورتها.

والأية الأخيرة أوالآيات الأخيرة من السورة القرآنية هي رأس المعنى القرآني فيها، فالمعنى القرآني ينمو متصاعدًا من فاتحتها حتى يبغ الذروة في الآية الأخيرة أوالآيات الأخيرة منها .

لو أنَّك ألزمتَ نفسك وأنت تقرأ أن تجاهد لتعرف موقع الآية في السورة على مدرج المعنى المتصاعد لكنت ترقي في درجات التدبر القرآني الذي سيكون لك إن شاء الله تعالى ضريعه الحسي في الارتقاء في درجات الجنة يوم القيامة

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(التــحريـم: ٨)

توطئة
في أسلوب القصر

ينتمي أسلوبُ القصر عند البلاغيين إلى ما يُعرفُ عند الأصوليين بتخصيص «العام» والإمام الشافعي في كتابه «الرسالة» كان الحريص على أن يبيّن منهاج العربِ في الإبانة عن معانيهم فهمًا وأفهامًا بأن من سننهم البيانية،ومنهاجهم الإعرابي عن المعاني ، فقال رَضِي اللهُ عَنه :

«فإنّما خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها، على ما تعْرِف مِن معانيها.
وكان ممّا تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها، وأنّ فِطْرَتَه أنْ يخاطِبَ بالشيء منه عامًّا، ظاهِرًا، يُراد به العام، الظاهر، ويُستغنى بأوّل هذا منه عن آخِره.
وعاماً ظاهراً يراد به العام، ويَدْخُلُه الخاصُّ فيُستَدلُّ على هذا ببعْض ما خوطِبَ به فيه.
وعاماً ظاهراً يُراد به الخاصّ.
وظاهراً يُعْرَف في سِياقه أنّه يُراد به غيرُ ظاهره فكلُّ هذا موجود علْمُه في أول الكلام، أوْ وَسَطِه، أو آخِرَه.
وتبتَدِئ الشيْءَ من كلامها يُبَيِّنُ أوّلُ لفظها فيه عن آخره.
وتبتدئ الشيْء يبين آخرُ لفظِها منه عن أوّلِه.... »([1])

---

[1]) الرسالة. المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبي القرشي (ت: ٢٠٤هـ) المحقق: الشيخ أحمد محمد شاكر ، الناشر: مكتبه الحلبي، مصر- (ط:١) عام: ١٣٥٨هـ (ص/ ٥٢)

وهذا النص المنهجي للمؤسس الشافعي جديرٌ بأن يكون محل عناية البلاغيّ تفسيرًا وتأويلاً وتحليلاً.

ولعل البلاغي العربي في كتابِ "الرسالة" عملٌ خطيرٌ بصير، يفتقرُ إليه البلاغي فافتقاره إلى العقل البالغ في كتابي عبد القاهر.

*****

والإدراك الفطري لمدلولِ أسلوبِ القصر قديم قدم هذا اللسان ويكاد يكون ذلك فطرة في كلّ ذي لسان مبين.

كانتِ العربُ قد نزولِ القرآن على وعي بالغٍ بما يفيده هذا الأسلوب في بيانهم العالي، ويُحسنون استعماله في المقامات التي تقتضيه، وأسفار أهلِ العلمِ حاضرٌ فيها ما يبرهن على وعيهم بذلك ، وإن لم يكن هذا المصلح البلاغي" القصر" حاضرًا في بيانهم.

سيدُنا أميرُ المؤمنين عمربن الخطاب رَضِي اللهُ عَنه حينما شكى إليه رجل أن فلانا قال وهو يُخاطبه: «مامي بزانيةٍ» ففهم الرجل أنه يعرض بأمّه ، ينفي عن أمّه الزنا ليثبته لأم من يُخاطب، فشكاه إلى أمير المؤمنين، فقال الرجل نفيت الزّنا عن أمي، فقال له عمر رَضِي اللهُ عَنه بل عرضت بأمه،وأقام عليه حد القذف،فسيدنا عمر فهم من هذا التركيبِ: « مامّي بزانية » أنه جمع بين أمرين

الأول صرح بنفي الزما عن أمه.

والآخر أنه لوح بإثبات الزنا لأم المخاطب ، وهذا هو جوهر أسلون القصر الاصطلاحي عند البلاغيين.([1])

[1]) روى الدار قطني في سننه بسنده عَنْ أَبِي الرِّجَالِ ، عَنْ أُمِّهِ عَمْرَةَ قَالَتْ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَا أُمِّي بِزَانِيَةٍ وَلَا أَبِي بِزَانٍ ، فَشَاوَرَ عُمَرُ الْقَوْمَ ، فَقَالُوا: «مَدَحَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ» ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لَهُمَا مِنَ الْمَدْحِ غَيْرُ هَذَا» ، فَضَرَبَهُ (سنن الدار قطني . الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - (ط:١عام. ١٤٢٤ هـ الأثر (رقم:٣٤٧٩)(ج: ٤ص: ٢٩٠)

سيدنا عبد الله بن عباس رَضِي اللهُ عَنهما كان في أول أمره لا يقول بربا الفضل اعتمادًا على فهم ما سمعه من سيدنا أسامة بن زيد رَضِي اللهُ عَنهما من أن رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم قال:" **<u>إنّما الرّبا في النّسيئة</u>**" ففهم من هذا التركيب أنه لا ربا في الفضل قاصرًا الربا على ما كان نسيئةً. فكأنه فهم من قول سيدنا رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم «إنّما الرّبا غب النسيئة» على معنى ما الربا إلا في النسيئة، قاصرًا الربا على صفةٍ واحة قصر موصُوفٍ على صفةٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًا، فألبى ألأن يكون في الفضل ربا أي في بين اردب برٍّ بإردبٍ ونصفِ أردب.

وكأني بسيدنا عبد الله بن عباس لم ير الرباإلا في الديون أن تقترض مئة تدرهم فيشترط عليك أن تردها صَاحب الدين بغد شهر مئة وعشر دراهم فإن مر الشعر زادها عشرًا.وهو الذي عليه القروض في المصارف التجارية «البنوك»

وجمهور الصّحابة رَضِي اللهُ عَنهم على أن الربا في النسيئة، والفضل، وفهموا قولَ سيّدنا رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم «إنّما الرِّبا فِي النَّسيئةِ» على أنه من قبيلِ قصر الموصُوف على صِفةٍ قصرًا حقيقيًّا للمبالغة. على نحو قولنا إنما الشاعر امرؤ القيس ، فأنمت لا تفي الشاعرية عن غيره بل تبالع فتدعي أن كل الشعراء بجانبة ليسوا بشعراء لكما شاعريته .

وسيدنا ابن عباس رَضِي اللهُ عَنهما لم يدَّعِ أنّ قصر الربا على النسية وحدها قصرًا حقيقيًّا حقيقيًّا تحقيقيًّا شيْءٌ سمعه من رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ، إنّما هو شيءٌ فهمه من قوله «إنّما الرّبا في النّسيئة»

رَوى مُسْلمٌ في كتابِ «المساقاة» من صَحيحِهِ بسندِه عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِى عَطَاءُ بْنُ أَبِى رَبَاحٍ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ رَضِي اللهُ عَنه لَقِىَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنهما فَقَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ فِى الصَّرْفِ أَشَيْئًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَمْ شَيْئًا وَجَدْتَهُ فِى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنهما: كَلاَّ ، لاَ أَقُولُ ، أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ ، وَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ ، فَلاَ أَعْلَمُهُ ، وَلَكِنْ حَدَّثَنِى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « أَلاَ ، إِنَّمَا الرِّبَا فِى النَّسِيئَةِ ».

وابن عباسٍ رَضِي اللهُ عَنهما لما أخبره أبو سعيد الخدري أن سيدنا رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم قد نهى عن ربا الفضل رجع عما كان عليه فكان يقول بربا النسيئة ، وربا الفضل معًا.(1)

(1) روى الترمذي في كتاب«البيوع» من جامعه بسنده عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِى كَثِيرٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ انْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ إِلَى أَبِى سَعِيدٍ رَضِي اللهُ عنه فَحَدَّثَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ سَمِعَتْهُ أُذُنَاىَ هَاتَانِ يَقُولُ : « **لاَ تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ وَالْفِضَّةَ بِالْفِضَّةِ إِلاَّ مِثْلاً بِمِثْلٍ لاَ يُشَفُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهُ غَائِبًا بِنَاجِزٍ** ».

قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي وَفِى الْبَابِ عَنْ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَأَبِى هُرَيْرَةَ وَهِشَامِ بْنِ عَامِرٍ وَالْبَرَاءِ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وَفَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَأَبِى بَكْرَةَ وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِى الدَّرْدَاءِ وَبِلاَلٍ رَضِي اللهُ عَنهم .

قَالَ وَحَدِيثُ أَبِى سَعِيدٍ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- فِى الرِّبَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- وَغَيْرِهِمْ إِلاَّ مَا رُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ لاَ يَرَى بَأْسًا أَنْ يُبَاعَ الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ مُتَفَاضِلاً وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ مُتَفَاضِلاً إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ. وَقَالَ:" **إِنَّمَا الرِّبَا فِى النَّسِيئَةِ**" .

وَكَذَلِكَ رُوِىَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ شَىْءٌ مِنْ هَذَا وَقَدْ رُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ حِينَ حَدَّثَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِىُّ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم-

وَالْقَوْلُ الأَوَّلُ أَصَحُّ. وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِىِّ وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَالشَّافِعِىِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ. وَرُوِىَ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ لَيْسَ فِى الصَّرْفِ اخْتِلاَفٌ.

أرأيت إلى عظيم خلقِ سيدنا ابن عباسٍ رَضِي اللهُ عَنهما والتزامه بهدي رسول الله صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم، واحترامه لما أنباه به الصحابة، وفلم يتعصب لفهمه. كان وقّافًا عند بيان الوحي

وأسلوب «القصر» الاصطلاحي عند البلاغيين جزءٌ من بابين وسعين عند الأصوليين :

الأول باب « **تخصيص العامّ**» وهذا الباب منأوسع أبواب البيان،وأكثرها حضورا في الكلام العالي ، وحاجةُ البلاغيإليه عديل حاجةِ الأصولي والفقيه والمفسر ، ومخصصات العامعند الأصوليين والفقهاء والمفسرين أكثرمن مخصصات العام عند البلاغيين. وما لميعتد به البلاغيون منسبل تخصيص العالمعند الأصوليين نسميه في أسفار البلاغيين بالقصر غير الاصطلاحيّ . فعلى طالب علمالبلاغة العربي أن يكون على وعي بذلك كيما لا يخلط بين ماهوقصر اصطلاحي عند البلاغيين،وما هو قصر غير اصطلاحيّ عندهم.ولا سيّماوهو يقرأفي أسفار المفسرين.

والآخــر: باب «**مفهوم المخالفة** » عند من يقُول بِه من الأصوليين ، وهم مدرسة المتكلمين من الأصوليين ، أمَّا مدرسة الفقهاء من الأصوليين «الحنفية» فلا يقُولون بمفهوم المخالفة. والقول بمفهوم المخالفة له ضوابط محكمة مبينة في أسفار الأصوليين. وحقٌ عليك بلاغيًّا أن تكون على وعي حكيم بها،وقد فصلت – بِحمدِ الله تعالى وعونِه - القول في هذا في كتابي" سُبل اسْتنباط المعاني من الكتاب والسنة" فحاوره إن أحببت.

✿✿✿✿✿

إذا ما كان الإدراك الفطري لمدلول أسلوب «القصر» أمرًا حاضرًا في ما قبلَ البعثة، وفي أثنائها، فإنّ القول العلمي المنظّم لا أعلم أحدًا من قبلِ عبد القاهر اختص القول بالقصر وأساليبه ، ومقاماتها ومزاياها بفصل

وأنظر أدب سيدنا أبي سعيد الخدري مع سيدنا ابن عباس رَضِي اللهُ عَنهم. علينا أن نتعلم من هذا الأدب العليّ.

والذين من قبله انتثرت مقالاتهم في أسفارهم، ويُمكنك أن تستقرئ مقالة أهل العلم في هذا الأسلوب وأن تنسقها ، وتتبين أثر كلّ فيه بما أضافه إلى سابقه. وهذا مهمٌ جدًا ؛ فتأريخ تطور القول في أسلوبٌ من الأساليب معينٌ على تحقيق العرفان بمنهاج خدمة العلم، وخدمة نتاج الأجداد ، قبل التهافت إلى استلاب مقالات غير أجدادنا، فإن من مدَّ يده لا يمدُّ رجله .

عبد القاهر استجمع أهم ما قيل من سلفهِ وبنى عليه ، وأقامه بابًا في الأسفار البلاغية، وهو يكاد يكون قد استوفى القول فيه، وما جاء به الذين من بعده إنّما هو أمور جزئية ، ومراجعات لا تضرِبُ في الكيات والأصول، ولذا كاد يكونُ هذا الأسلوب قد ولد على يدي عبد القاهر كاملا أو كالكامل.

*****

والسبيل إلى تطوير وتجديد هذا الأسلوب أن يُقرأ في نتاج الإبداعِ الأدبيّ شعرًا ونثرًا في العصور الذهبية الأولى للكلمة الإبداعية: الكلمةِ الإنسان. ثم القراءة الاحترافية لهذا الأسلوب في بيان الوحي قرآنا وسنة، والعناية بخصوصيات استعمال هذا الأسلوب في القرآن والسنةِ.

والاكتفاء بتكرار القول النظري المبثوث في أسفار البلاغية إنما هو عقيمٌ ، ولو كنتُ لجعلت مدارسة هذا الأسلوب وسائر الأساليبِ البلاغية في دواوين الشعراء ونصوصِ الأدباءِ أوّلًا ثًم في البيانِ النبوي ، ثُم البيان القرآني، ورصد ما كان متداولًا منه في الشعر ، وما كان نادرًا بحسبِ التّسلسل الزّمنى وبيان مقتضِيات هذا التّداول أو التّواري ، وهكذا في النّثر ثم ما كان أكثر تداولًا في السّنة ، وما ندر استعمالُه ، وما لم يأتِ والمساقات المعرفية والتَّثقيفية التّأديبية التّي وردت فيها هذه الأساليب ، وما بيْنها من تشابه نظميّ، وكذلك نفعل مع كلّ أسلوبٍ في مدارسة البيان القرآنيّ .

أذهبُ إلى أن هذا أنفع وأمتع

جعل لهذا الأسلوب نظائر اصطلاحيّة ، يُسمّى "القصر"، و"الحصر"، و"الاختصاص الثّبوتيّ" أو "التّخصيص الثّبوتيّ" و"تخصيص العامّ" ، و"مفهوم المخالفة ".

يمثل مفهوم المخالفة الوجه المقابل لدلالة الفحوى : يقوم على دلالة النظم على إثبات نقيض معناه للمسكوت عنه ؛ لخلو ذلك المسكوت عنه من الوصف المعتبر في إثبات المعنى للمذكور .

وقد جاءت تعريفات المحققين مفهوم المخالفة مرتكزة على أمرين :

= بيان أنَّ علاقة الحكم للمذكور بالحكم للمسكوت عنه هي علاقة المخالفة

= بيان المفارقة بينهما ، وهو خلوُّ المسكوت عنه من القيد المعتبر .

وقد يكتفى بذكر الأمر الأول وحده في التعريف ، وإن نصَّ على الأمر الثاني في غير التعريف .

ومجمل التعريفات يمكن إدراجها تحت قولنا : مفهوم المخالفة هو دلالة النظم على ثبوت نقيض معناه لمقابله المسكوت عنه لخلوه من الوصف المعلق به معنى المنظوم. ([1])

فالعلاقة بين معنى المنطوق ومعنى المسكوت عنه علاقة تناقض لا علاقة تخالف وتضاد ، سواء كان هذا التناقض في صورة إثبات أو نفي ، فإن كان معنى المنظوم إثباتا كان معنى المسكوت عنه نفيا وإن كان الأول نفيا كان الثاني إثباتا .

وغيرخفيٍّ أن دلالة مفهوم المخالفة دلالة بالالتزام الظنّيِّ لا القطعيّ وهذا اللزوم غير محصور في قسيم المطابقية والتضمنية المعتبر عند المناطقة وعلماء الكلام ، بل هو أفسح مجالا ، فيندرج فيه ما يعرف بمستتبعات التراكيب إذا ما شئنا أن نستبقى ثلاثية التقسيم .

---

[1]) ينظر: المستصفى:١٩١/٢، وشرح اللمع:٤٢٨/١، والإحكام للآمدي:٩٩/٣، وأصول الأصول:٣٣٥/١ ،ومفتاح الوصول: ٩١

*****

البلاغيون يستعملون مصطلح«القصروالحصر»و«الاختصاص» أو «تخصيص الثّبوت»

ومصطلح «القصرأوالحصر» أخصّ من سائرالمصطلحاتِ الأخر .

القصر عند البلاغيين خصّ بما دلّت عليه طرائق مخصُوصة عندهم ، فليس كلّ ما دلّ على اختصاص شيْءٍ بشيْء دون غيره هو من قبيل "القصر" الاصطلاحي" فإذا قلت:" الكتابُ لمحمدٍ وحدّه" أو "الكتابُ لمُحمّدٍ خاصة ، أو "فقط" أو "محمّدٌ مخصوصٌ بالكتابِ" ، أو"الكتابُ ملكٌ لمحمدٍ "، أو"الكتاب لمحمّد من دون خالد"أو "يتفرد محمدُ بملكية الكتابِ" أو "لا يشارك محمدًا أحدٌ في ملكية الكتاب ".... ونحو ذلك ممَّا كانت دلالته على "الحصر" و"التّخصيصِ" و"القصر" دلالة مباشرة ظاهرة ، وكان "الحصر" هو منطوق العبارة ، فتساوى الناس في إدراكه، وفي مستوى إدراكه ، ومثل هذا لا فضيلة بلاغية فيه ، وفي إدراكِه.

وأسلوبُ القصرالاصطلاحي (البلاغيّ) هو اختصاص شيْءٍ بشيْءٍ ، بطريقٍ مَخصوصٍ وذلك إذا تحقَّق فيه شرطان :

الشّرط الأوّل : أن يكون ذلك في جملةٍ واحدةٍ ، وليس فِي جملتين ،كما في قول الله تعالى:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة: من الآية: ١٨٥) ،﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(النّحل:٧٤)

فأسلوبُ القصر من صُور أسلوب إيجاز القصر وإيجازُ القصر أعم من أسلوب القصر. كلُّ قصر إيجازُ قِصَرِ، وليْسَ كلُّ إيجازِ قصَرٍ قَصْرٌ .

وهو في الوقت نفسه ممّا يؤكد مفهوم العبارة منطوقَها ، فهو ضربٌ من التوكيد، بل إن من أهل العلم من زعم أنّ القصرَ توكيد على توكيد.

قد يقال: ما بال قولِنا: " إنَّ محمدًا لَكريمٌ" لا يفيد القصر، وهو مشتمل ٌ على أكثر َمن مؤكدٍ . ولو قيل: " القَصرُ تأكيدٌ على سبيل المبالغة " لكان أقرب .

والشّرطُ الآخر: أن يكون مدلولاً عليه بطريقٍ مخصوص. وهذه الطرق ستةٌ

(أ) الاستثناء المفرّغ (النّفي بأداة ، والاستثناء بأداة مع حذف المستثنى منه)

قال الله تعالى : (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾(المائدة :٩٩)

وجمهور أهل العلم بالبلاغةِ على أنّ غير المفرغ لا يفيد القصر الاصطلاحي. من نحو : ما قام القَوم إلا محمَّدًا.

(ب) " إنّما" ويشترط أن تكون"ما" كافة ، وليست موصُولة أو "نكرة" بمعنى "شيْءٍ" ومثل إنّما (بكسر الهمزة) "أنما" (بفتح الهمزةِ) فهما سواء.

قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ).(فصلت:٦)

وهذا يوجب أن يتوثقَ المتلقّي من أنّ « مـا» التي في «إنما» زائدة ،وليستْ موصولة أو نكرة ، فإن كان موصولة بمعنى الذي ، فالقصر لا يكون بـ «إنما» بل بطرق تعريفِ الطرفين ، كما في قوله تعالى ﴿إنّما حَرّم عليكم الميتة﴾ ببناءِ الفعل للفاعل ،ورفع «الميتة» على أن «ما» اسم موصول، اسم إنَّ ،وخبرها " "الميتة" والمعنى إن الذي حرّمه الله عليكمُ الميْتة .

وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾لقمان:72(.

« ما» في «أنّما» موصولة بمعنى «الذي» وحقها أن تكون مفصولة عن « أن » والمعنى ولو أن الذي في الأرض من شجرة أقلامٌ ....فليس في هذه الجملة قصرٌ.

(ت) " التقديم" في بعضِ صُوره وبعضِ سياقته : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة :٥) وقد نازع في عدة مفيداللقصر بضع من أهل العلم.

(ث) "العطف "بـ"لا" أو "بل" أو "لكن" وهذا في عده طريقًا اصطلاحيا منازعة قوية .

(ج) تعريف طرفي الجملة: "المسندُ إلَيْهِ" و"الْمسند" في بعضِ السياقات

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف :٩)

ومن هذا قول قول عمرو بن كلثــوم:

وقد علم القبائل من معد * إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا العصامون إذا أطعنا * وأنا الغارمون إذا عصينا

وأنا المنعمون إذا قدرنا * وأنا المهلكون إذا أتينا

وأنَّا الشاربونَ الماءَ صفواً * ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا

وأنَّا المانعونَ لِما يلينا * إذا ما البيضُ قابلتِ الجفونا

فالسياقُ هنا يأنس بمعنى اختصاص المسند إليه بالمسند، فهو من قصر الصفة على الموصوف ، لأنّ هذا هو الأليق بالفخر.

(أ) "ضمير الفصل " في بعضِ السياقات .

وسُمّي ضَمير فصلٍ باعتبار وظيفته، فهو للفصل بين الخبر والتابع وهذه وظيفة نحوية لا بيانية ، فإذا حلّ في الجملة وجب أن يكون ما بعده خبرًا لا تابعا ،

كما في "محمد العالم القائم كلمة الحق " يحتمل أنت يكون العالم خبرًا، والقائم ... نعت الخبر، ويحتمل أن يكون (العالم) نعتًا للمبتدأ ، والخبر هو (القائم...) فإذا قلت : محمد هو العالم القائم بكلمة الحق، فالعالم خبرٌ قولاً واحدًا.

وهنالك وظيفة بيانية – وهي الأهم عندنا - تتمثل في أمرين :

= " التوكيد" وهو توكيد الإسناد في الجملة، وليس توكيد المسند إليه ،وهذه الوظيفة حاضرة لازمة.

= "الحصر " وهو حصر المسند في المسند إليه أي قصر الصفة على الموصوف ، وهذه بحسب السياق، وليست بلازمة في كل موضع . وإذا كان ضمير القصر للحصر، فهو أيضًا للتوكيد، لأنّ في كلّ حصر توكيدًا.

من ذلك قول اله تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (الأنعام:١١٧)

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (الزخرف:٦٤)

ولضمير الفصل شروط أهمها : أن يقع بين مبتدإ وخبر، وأن يكون ما بعده معرفة أو ما هو في حكمها كـ"افعل التفضيل" .

ومن أهل العلم من لا يشترط أن يكون الخبر معرفة أو ما في حكم المعرفة، فيجعل من هذا : محمدٌ هو يعلم الخبر . ولذا عدوا قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة:١٠٤)

وقوله: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ) (فاطر:١٠)

وعلى ذلك عبد القاهر في المقتصد ، والزمخشري في الكشاف ، والسعد في المطول . والجمهور على غير ذلك.

***

والبلاغيون المتأخرون لم يذكروا من هذه الطرق في باب القصر إلا الأربعة الأولى ، ذكروا تعريف الطرفين ، وضمير الفصلِ في أحوال المسند إليه

ووجه ذلك أن الخامس والسادس لا يقعان إلا بين مسند إليه ومسند ، وقد استوفي القول فيهما في محله من كتبهم ، وكذلك ليس كل تعريف للطرفين مفيدًا للقصر ، وليس ضمير الفصل مخصُوصًا بالقصر ،فقد يكون للتوكيد وحده دون قصر.،ويكون القصر من غيره .

أما الاستثناء المفرغ(مـا)و(إلاَّ) فهو موضوع للقصر ،أما الاستثناء التام المنفي فجمهرة البلاغيين لا يقولون بإفادته القصر الاصطلاحي، ومن منهم من قال به، والأصوليون يقول به .

و(إنّما، وأنّما) موضوعة أيضًا للقصر،عند أكثر أهل العلم بالبيان من المتأخرين و"التقديم" يقع بين جلّ عناصر الجملة ، وهو يفيد القصر في مقامات عدّة ، وإن كان ليس في كلّ مقام ،وبعضُ أهلِ العلم نازع في إفادته القصر .

والعطف بـ(لا) و(بل) و(لكن) موضوع للقصر عند من قال بِه طريقًا اصطلاحيا للقصر. وهو عندي أبعد الطرق عن القصر الاصطلاحي، وتركه بلاغيًا هو الأعلى .

فهنالك قصر اصطلاحي عند البلاغيين، وهو ما كان بطرق مخصوصة عندهم أشرتُ إليْها.

وقصر معنوي ، وهو يأتي بطرق عديدة ويُعنى به المفسرون، وشراح الحديث ونقد الشعر والأصوليون والفقهاء

ويحسن بطالبِ "علم البلاغة العربي" إذا استشعر من تركيبٍ أن فيه تخصيصا خصريًا من غير الطرقِ التي نصّ عليْها البلاغيون أن ينصّ على أنه "قصر معنوي" غير اصطلاحي

والقصر الإصلاحي عند البلاغيين يُسمى أيضا في بعضِ أسفارهم «تخصيص الثبوت » أو التخصيص الحصري ويقابله «تخصيص الإثبات» أو التخصيص الذكري ([1])

الفرق بينهما أن «تخصيص الثبوت » يفيد إثبات شيْءٍ لشيْءٍ ونفيه عما عداه.

و«تخصيص الإثبات» **أو التخصيص بالذكر يفيد تخصيص شيْءٍ بالحكم دون التعرض لما عداه**

★★★★★

ومِمَّا يحسُن الالتفاتُ إليْه انّه إذا ما كانت البلاغةُ "الإيجازُ" كما جرت به الألسنة ، وكان أسلوبُ القصر صُورةً منْ صُور "إيجاز القصرِ" ، فإن المقام يقتضي حينًا العدول عنْ الإيجاز بأسلوب القصر إلى التصريح بالجملتين معًا المثبتة والمنفية ، ترى هذا في قول الله تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساءُ:٧٦)

كان يُمكنُ في غير القرآن أن يُقال : وما يُقاتلُ فِي سببلِ اللهِ إلا الذين آمنوا " فيفهم من هذا أن الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغُوتِ ، بيْد أنّه عدلَ عن هذا الوجه من البيان إلى أسلوب التصريح بالحالين ، لأنّ المقام يليقُ به مزيد التصريح ، فتجعل

---

[1]) التخصيص الذكري تعرض له البلاغيون في مبحث مقتضيات تقديم المسند إليه على المسند، فجعلوا من ذلك " إفادة زيادة التخصيص" وجعلوا من ذلك قول الشاعر:

متى تهزز "بني قطن" تجدهم* سيوفًا في عواتقهم سيوف

جلوس في مجالسهم رزان * وإن ضيف ألم فهم خفوف

راجع المطول لسعد الدين التفتازاني. تحقيق الدكتور ضِياء الدين القالش .نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر – عام ١٤٤٢هـ ص:٢٠٦

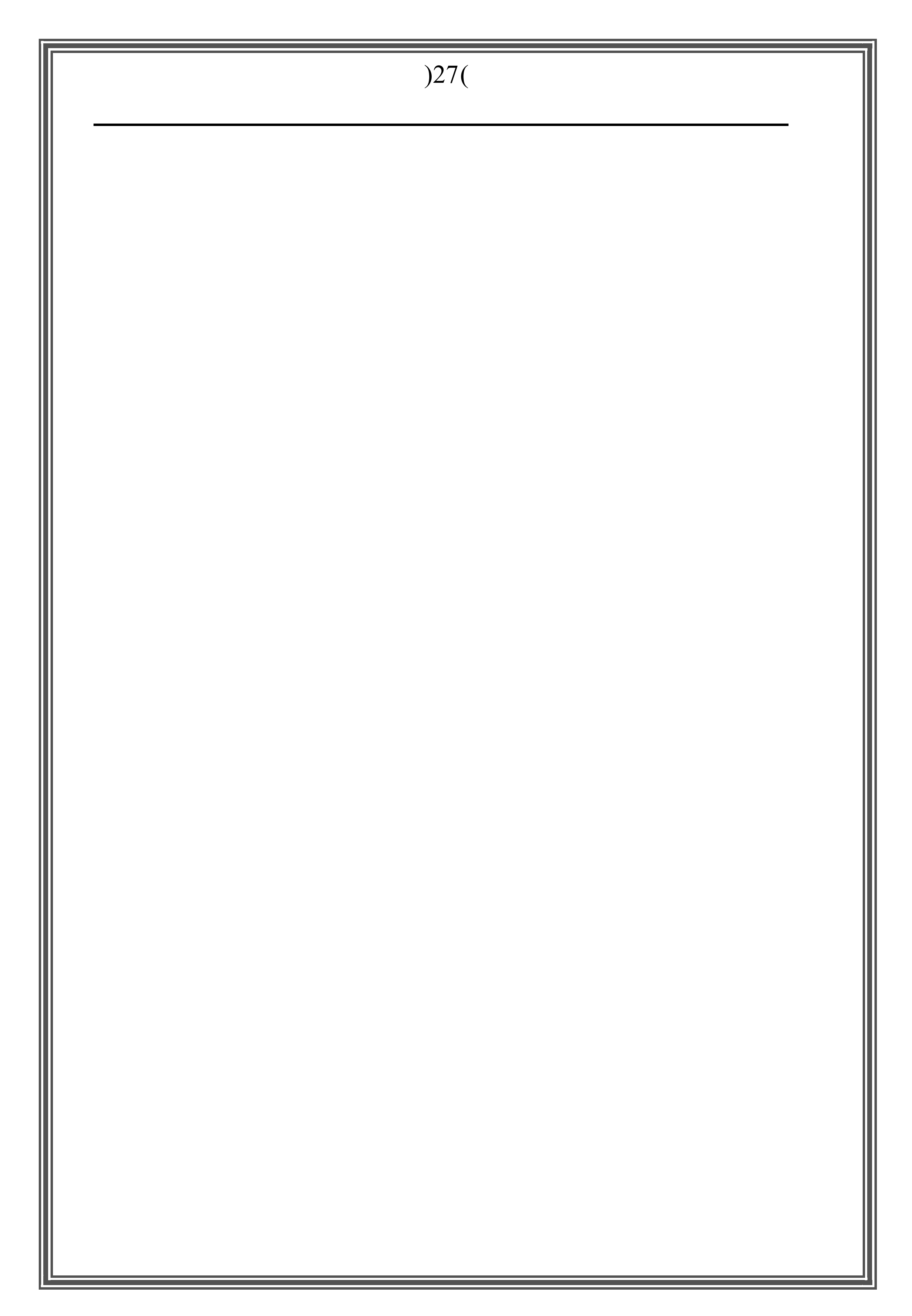
الدَّلالة على معنى كلّ جملة دلالةً صريحة هي دلالة المنطوق (دلالة العبارة) التي هي أقوى وأصرح وأحكم مستوياتِ الدّلالة ، وليجعل الحالين (الفعلين) من كلّ فريقٍ بين ناظريك، فترى فرقَ ما بينهما ، وتعلم من خلال ذلك عظيم شرف الّذين آمنوا، وأنّهم دائمًا على هدًى ، وأنّ الذين كفروا لن تكون عاقبةُ أمرهم إلى خيرٍ أبدًا، وحينئذٍ لا يجدُ المرءُ نفسَه إلى في الذين آمنوا قائما يقاتل في سبيلِ اللهِ . وهذا معنى نفسيّ جد جليلٍ .

وانظر كيف أنّه قال: ﴿ يُقاتلون فِي سبيلِ الله﴾ ولم يقل يقتلون في سبيل ولم يقل يقاتلونَ بماذا ،أو يقاتلون من.

لم يقل (يقتلون) لأنّ الجهاد في سبيلِ الله ليست غايته قتلُ المخالفِ ، وإنما غايته منع المخالفِ من أن يصد الإسلام عن أن يبلغ الناسَ جميعًا، وأن يبصروا الحق ، ويتخذوا إليْه سبيلا. فمن ترك الاسلام يستمعُ إليه ، ولم يتصدّ له ، فذلك لا يُقتل، ولا يقاتل ، أمّا من تصدّى ، فإنه يقاتل ، فإمّا يكفُّ عن تصديه ، فيُكفُّ عن قتله، وإما يقاتل حتى يندحر أو ينتحر .

وأطلق أدوات القتال وطرائقه ، وأطلق من يكون قتالهم له ، ليشملَ كلّ من كان عقبة في سيادة الحق والخير في الحياة ، فكلّ من أصرّ على أن يعيق الحق والخير عن أن يحيط بحركةِ الحياةِ هو أهلٌ لأن يُقاتَلَ فِي سبيلِ اللهِ ، وأطلق الأدوات والطرائق ، فمنّا من يقاتل بلسان حاله ومقاله ، ومنّا من يقاتل بماله ، وجاهه ، ومنا من يقاتل بسيفه ...إلخ المهمّ أن يكون القتال في سبيل الله تعالى

[يتبع إن شاء الله تعالى قول في القصر بإنما في دلائل الإعجــاز]



تَثْــوير
مقــالة عبد القاهر في أسلوب القصــر

توطِئةٌ
في مسلكِ عبد القاهر إلى القول في «القصر»

مِن البيّن أنّ المقصد الأسنى لطالبِ العلم القائمِ للقراءةِ في كتابِ «دلائل الإعجاز» تحصيلُ التعريفات والأقاسيم والشواهد والأمثلة والنكات البلاغية، فذلك يُمكنه تحصيله من كتاب «الإيضاح» للخطيبِ القزوينيّ(ت:٧٩٣هـ) بل من كتاب «علوم البلاغة» للشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)

المأمُ الأنفسُ والمحجُّ الأقدسُ لمن فاء إلى كتابِ: «دلائل الاعجاز» هو العرفان بمنهج الشيخ عبدالقاهر في معالجة القضايا والمسائل، ورؤيته العلمية والذَّوقية لمذاهبِ سلفه وأرائهم، واستنباطه من تراثهم ما يجعله أحقّ بأن ينسبَ إليه. فهو ذو اقتدار على أن يستلّ من الموجود ما ليس بموجد ، وجوهر الإبداع يتمثل في إعادة علاقات الموجودات ببعضها على نحو لم يك من قبل.

الإبداعُ البشريّ في «**العلم**» في كلّ مجالاته وفي «**الفنّ**» بكلّ أنواعه ليس إيجادٌ من عدم، كلّا . إنّما هو إيجادُ ما ليس بموجود ممَّا هو موجود . رأس الأمر في هذا خلقُ علاقاتٍ جديدةٍ بين الأشياء.

وَلهذا كان مِن سُبُل تطويرِ وتجديدِ العقلِ البلاغيّ العربيّ أن يَستولِد رؤيته مِن روافد علميّة متجانسة مترادفة ، وكلّ علوم الإسلام واللسان العربيّ مستمدة من أصلٍ عماده بيان والوحي ومعهود العربِ في التَّفكير والتّعبير فهمًا وإفهامًا .

إذا ما ولج طالب العلم كتاب «دلائل الإعجاز» ليحصل قاعدة بلاغية أو رأيّ لعالم في قاعدة بلاغية، فإن ذلك سيشغله عن دُرِّ هذا القاموسِ المحيطالتي قلّ أن تجدها في غيرِه ممن سبقه من أهل العلم على النحوِ الذي أنت واجدها في هذا القاموس المحيط. والذي يعصمك عن أن تشغل عن التقاطِ هذا "الدرّ" المكتنز في أعماقه أن تكونَ متضلعًا باسْتحضَار قواعد علم البلاغةِ العربي ، وتعاريف أساليبه ، ومدلولات مصطلحاته وأقاسيمه وشواهده وأمثلته. فمن تضلع بشيْءٍ لا يُشغلُ بالبحث عنه ، فاسبر غورك أهو عقلك العلمي أهو مُترعٌ بتلك القواعد والأساليب والشواهد والأمثلة، والتَّعريفات والاعتراضَات.

❁❁❁❁❁

لوإذ ما نظرنا في مسلكه للقول في أسلوب القَصر ، فمن البينِ أنّه لَمْ يَكُن كلامه في "أسلوب القصر" على سنن كلامه في باب" التّقديم والتّأخير"وباب "الحذف" بينها هو في باب «الفَصل والوصل » يسنلّ إليه من القول في الجملة الحالية /زكذلك انسل إلى القول في «إنّما»وإفادتها "القصر" من قوله في «إنّ» ومواقعها وما لها من خواص تركيبيّة ومزايا دَلالِيّة.

وأنت تلحظ أنّه قد جعلَ بين يدي القول في الأبواب "الثلاثة" : «التقديم والتّأخير» «الحذف» «الفصل والوصل» تقديمًا لكل بابٍ بعباراتٍ بالغة الدقة كاشفة عن قيمة هذه الأساليب الثلاثة،وواستحقاقاتها ،اثرها في صناعة صورة المعنى المنظور على عين المُبين بها ، مما يجعل هذه الأسطلا التي قدّم بها الأبوابِ الثلاثة.

ووجه اصطفاء هذه الأبواب الثلاثةِ ليكتبَ لها مقدمات – فيما أفْهم – أنّ هذِه الأساليبَ الثَّلاثةَ تكون حاضرة في بناءِ الجملة ، وما فوقها، فأسلوب"التّقديم" حاضرٌ بين مكونات "الجملة" وما فوقها إلى بنية "النّصّ" الكليّة، وكذلك أسلوب"الحذف" حاضرٌ في بناء الجملة وما فوقها إلى بنية "النّصّ" الكليّة وأسلوب«الفصل والوصل»

ألأصل أن يكون قائمًا بين المفردات في بنية الجملة ،وإن كان البلاغيون قد عنوا بما كان بيْن الجمل لا ما بين بنيةِ الجملة.

أمَّا أسلوب «القَصْر» فإنته قد دخلَه مِن حديثه في «إنّ» ولذا كان مفتتحه القول في «إنّما» التي لم يتفق العلماءُ في زمانه علىإفادته القصر ،ليس بـ«النّفي والاستثناءالمفرّع »المجمع على إفادته «القصر»

وهوفي مستهل حديثه على«إنّما»حرصَ على توثيق إفادتها "القصر"والاستدلال على ذلك منرؤية أعيان علماء نحو العربية.

ولما كان أبو عليّ الفارسيّ (٢٨٨-٣٧٧هـ) خال أستاذه أبي الحسين :محمّد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث النحوي الفارسي أقربَ أعيان علماء النحو زمانًا إليه ،وهو المقدم في بابي العلم والنظر والقياس عمد إلى تأصيل القول بأن «إنما» تفيد الحصر. يعرضُ استناد أبي علي إلى مقال أناس من النحاة في تبيين معنى «إنما » على الحصر في آية ثم يعثر على صحة مذهبهم من الشعر . ثم يبين عبد القاهر وجه الاستدلال ببيت الشعر علىأفادة «إنما» الحصر،وهو يسلك سبيلَ الحجاج

وعبد القاهر كأني به يومئ إلى أثر علاقة أجتماع أداتين، وما يدث من هذا من تأثيرٍ فني . كأنّه أرادَ أن يُبيّن لنا أثر «مـا» حين إضيف إلى «إنّ» فأحدثت في مدلولها تغييرًا، وكأنَّه يشيرُ إلى أنَّه إذا ما أضيف حرفٌ إلى حرف معنى فيحدثُ تغيرًا في عمله الإعرابيّ،ومدلوله ، فكيف إذا ما ضمت كلمةٌ إلى كلمة، وكيف إذا ما ضمت جملة إلى جملة، وفقرة إلى فقرة...

كأنّي بِه يقول لك إن اجتماع أدنى مكون صوتي إلى كلمةٍ يحدثُ فيها تأثيرًا فكيف بما فوق، فهو يهدينا إلى أنك إذا ما اجتمعت إلى غيرك، فليكن لك فيه تغيير في ما كان عليه إلى الأحسن والأمجد والأحمد ، وإلا كان إجتماعك إليه عقيمًا فالجوار بيْن الكلم في لسان العربيّ قائم على إنتاج الحسنى. ﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** ﴾**[النساء: ٣٦]** فليكن لسانُ حالك ضريع لسان مقالك.

الكلم في لسان مقالك قائمة بحسن الجوار، فليكن لك منها أسوة ، فيكونُ منك حسن جوارك لأخيك في الآدمية.

فقه علاقات الكلم ببعضها في صناعة " النص" في عالم البيان له أثر فَتيّ في فقه علاقة البشر بعضهم ببعضِ في عالم الإنسان .

إنما أنت كلمة.وأسرتك جملة،وعائلتك فقرة، ومحلتك قصيدة ، ووطنك ديوانا .

وعبد القاهر لم يعرضِ لجميع القضايا والمسائل التي عرض لها المتأخرون في باب "الفصل في أسْفارهم،وهو تكلمعلى القصر بالتقديم في باب " التقديم" وتكلم على القصر في مباحث " تعريف المسند إليْه " و" تعريف المسند"

وبيانه في كتاب «دَلائلِ الإعجـاز» جديرٌ بأنّ يدرسَ فيه منهاجه بليغًا في الإحاطةبأساليب تخصيص العام عند البلاغيين وعند الأصوليين ، ليكون استكمال لرؤيته في "تخصيص العام" فنحن لا نستمد رؤيته العلمية من مدارسته العلميةالصرية للأسلوب، بل نضيفُ إلى هذا استعماله هو الأساليب في بيانه. فما لم يتعرض له بلاغيًا تعرض له بليغًا، والاكتفاء برؤيته بلاغيا دون الوعي برؤيته بليغًا نقصير في المدارسة العلمية. فأعيان علماء البلاغة تستنسبط مذاهبهم في الأساليب من رافين : من رؤيتهم العلمية ،ومن ممارستهم البيانية التي يعبرون بها عن أفكارهم في أسْفارهم ،وهذا باب جديرٌ بأن يكون محلّ عناية من أهلِ العلمِ وطلبتهِ.

[فصل: في مسائل "إنمَّا"]

٣٨٨-قال الشيخُ أبو علي في "الشيرازيَّات" :(١)

١) أبو عليّ الفارسي هو: الْحَسَن بن أَحْمَدَ بْنِ عبد الغفار بن سُلَيْمَان أَبُو عَلِيّ الفارسي النحوي المعتزليّ (ت:٣٧٧هـ)

تتلمذ على أعيان عصره منهم أبو إسحاق الزجاج وأبو بكر ابن السراج وأبو بكر مبرمان وأبو بكر الخياط وهو شيخ ابي الفتح عُثْمَان بن جني، وعلي بن عيسى الربعيّ ومن أسفاره الإيضاح فِي النحو، وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحين الأول مبسوط جدًا سماه «المغني» وهو مفقود، ثم اختصره في كتاب سماه «الْمقتَصَد» في مجلدين" وهو محقق منشور وكتاب الحجة فِي القراءات. وكتاب المقصور والممدود، له كتاب الشيرازيات، والحلبيات ،والبغداديات و كتاب الأغفال ، فيما أغفله الزجّاجىّ فى المعانى.

وقد ذهب أخي أد حسن إسماعيل عبد الرازق الجناجي رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه - الأستاذ في كلية اللغة العربية بالمنصورة إلى أن عبد القاهر استمد نظرية النظم من كلام أبي علي الفارسي، وقد نقده الصديق العلامة أد على عيسى – أعزه الله تعالى بمحبته- الأستاذ في كلية اللغة العربية بأسيوط في بحث له، وحرًى بك أن تقرأ البحثين قراءة متغورة محيطة.

•••••

وَكتاب الشيرازيات شرح لمسائل عرضت عليه في مقامه بـ"شيراز" فأجاب عنها ، بهذا الكتابِ ، وقد نشر الكتابُ محقّقًا الدكتور حسن محمود هنداوي – مكتبة كنوز اشبيليا بالرياض-١٤٢٤هـ وهي ثلاثٌ وأربعون مسألة .ومن المسائل التي عني بها مسألة "الحمل على المعنى" وهذا من شجاعة العربية، كما نصّ عليه تلميذه ابن جنّي في "الخصائص" وهذه المسألة وثيقة الصلة بالعقل البلاغي ، وبقضية خروج الكلامِ علَى خلافِ مقتضَى الظاهر ،وهذا ما يشتغلُ به العقلُ البلاغيّ . ولعلي أفرغ لهذه المسألة فأنظر فيها نظرًا يكشف بعضَ ما فيها من معاني الهدي . أو أعين طالب علم يقوم لذلك منقبًا عنه في الشّعر الجاهليّ أولًا ، وآخر ينقبُ عنه في بيان النبوة، وثالث ينقبُ عنه في الذكر الحكيم. والله تعالى هو المستعان على ما يرضيه، فيرضى به عنا.

"يقولُ ناسٌ من النَّحْويين (1) في نحْو قولهِ تعالى:
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[الأعراف: ٣٣](2)

وما نقله عبد القاهر عن الشيرازيات فيه تصرفٌ ، وقد تحدث أبو علِيّ في شانِ بيت الفرزدق في ثلاثةِ مواضع : في المسألة الثالثة ،وهو بصدد القول في الحمل على المعنى في قولهم :"نشدتك الله إلا فعلت "(ص ٤٨) فقال، ومثل ذلك في الحمل على معنى النفي قوله:

..... وإنما ⁂ يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ففصل الضمير حيثُ كان الْمعنى :ما يدافعُ إلاّ أنا .ولولا هذا المعْنَى لَمْ يَسْتقِمْ ؛لأنّك لا تقولُ: يقُومُ أنا."
وفي المسألة التاسعة عشرة : مسألةٌ في الحملِ على معنى النّفي دون لفظِهِ . (ص: ٢٥٣)
ولكن عبد القاهر لم ينقل ما نقله الفارسي عن سيبويه في مسألة الحمل على معنى النفي (ص٢٥٣) وانتقل إلى النّقل عن موضع آخر والمسـألة السابعة والعشرين (ص :٣٩٨) في سياق القول في الّذي يكون الّلفظ فيه على الصّورة والمعنى علَى غير ما يُوجبه اللفظ ، وهو بابٌ غير ضيّقٍ كما يقُولُ الفارِسِيُّ وهو هنا ينقلُ عن بعضِ النحاة دون تعيين أنّ ﴿إنما حرّم ... ﴾ المعنى ما حرم عليْكم إلاَّ الْميتةَ.."(ص ٣٩٧)
ثُم يقولُ : "وأصبتُ ممَّا يدلُّ علَى صِحّةِ قولهمْ قولَ الفرزدق..." (٣٩٨)

١)   قوله : "يقولُ ناسٌ من النَّحْويين" فيه إشارة إلى أنهم ثلة من النحاة، وليس النحاة جميعًا بل أن جمعهم جمع مذكر سالم فيه إيماء إلى قلتهم، فلم يقل: بقول ناسٌ من النحاة. : جمع تكسير الدال على الكثرة .

٢) قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف :٣٣)
هذه الآية اشتملت على خمسة محرمات هي على الترتيب:

- الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
- وَالإِثْمَ
- والْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
- وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً
- وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

إنَّ المعنى: ما حَرَّمَ ربِّي إلاَّ الفواحشَ. (1)

وهذه الخمس هي المقصور عليه ، كأنه قيل ما حرم ربيّ إلا الفواحش...إلخ.
وهذا قصر إضافِيّ نظرًا للآية التي قبلها : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والمعنى هذا ما حرمه الله وليس الذي حرمتموه أنتم . فكانه قيل إنما حرم الله هذا ،لا ما حرمتموه .
وإن تأملت ألفيت أنَّ هذه الخمسة اشتملت على سبيل الإجمال كلَّ ما هو محرم في الكتاب والسنة ، فقوله :" الفواحش" و "الإثم" و"البغي" يدخل فيها كل محرم، فما من محرم إلا وهو من الفواحش، وما محرم إلا وهو إثم، وما من محرم إلا وهو بغي بغير حقّ .
وهذه المحرمات الكلية الخمس هي محرمة في شرعة كل رسول ، ولم يكن شيءٌ منها البتة مباحا فنسخت إباحته في شريعة رسُول آخر. ومن ثم فهي أصول المحرمات كلّها. وهي تشمل كل أحوال وعلاقات الإنسان مع ربه سبحانه وتعالى ومع نفسِه، ومع غيره من الإنسان وغيره
جاءت هذه الآية عقب قصّ قصة آدم عليه السلام من خلقه إلى إخراجه وما كان من إبليس معه ، وإهباطه من الجنة ، وتذكير الله تعالى لبني آدم ألا يفتنهم الشيطان ، كما فتن أبويهما آدم وحواء ،وذم الكافرين في تحريم ما لم يحرم ، آمرًا نبيه بذلك التسفيه والإنكار عليهم : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾فأتبع ذلك ببيان أصول ما حرم الله ، آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لأمته أمورًا يبلغهم بها عن الله تعالى:
الأول إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
والثاني أنه ﷻ أَمَرَ بِالْقِسْطِ وَإقامة الوجه عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ودعوة الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .
وممَّا أمره بقوله تبيان ما حرمه الله تعالى ،وهي الخمسة التي ذكرتها قبل.
١) ففي هذا دلالة على تضمن(إنما) معنى(ما) و(إلا) (الاستثناء المفرغ) المفيد عند أهل العلم الحصر ، فكان في هذا ما يدل على أنّ(إنما) في هذا الموضع مفيدة للحصر،

قال: "وأصبتُ ما يدل على صحته قولهم في هذا، وهو قول الفرزدق: ([1])

أَنَا الذائدُ الحامي الذِّمارَ، وإنَّما
يُدافِعُ عَنْ أحسابِهِم أَنا أَوْ مِثْلِي ([2])

فليس يَخْلو هذا الكلامُ مِنْ أن يكونَ موجِباً أو مَنْفيّاً. فلو كان المراد به الإيجاب لم

١) في هذا استدلال بالشّعر على صحَّة تفسير أهل العلم كتاب الله ﷻ ، وهي سنة عن عمر بن الخطاب . كان إذا سأل عن معنى كلمة، وفسرها له من يعرفُ قال أو تعرف العرب ذلك ، فيقال له فقال شاعرنا كذا ، فيقول عليكم الشعر فإنهم ديوان العرب.

من هذا ما كان في سؤاله عن معنى(تخوف) من قول الله تعالى: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (النحل:٤٧) (ينظر جامع البيان للطبري ،ونظم الدرر للبقاعي ،و فتح القدير للشوكاني ،وغيرهم في تفسير هذه الآية) فالشعر يستدلُّ بِه على صحة تفسير أهل العلم كتاب الله تعالى، ولا يستدلُّ بِه البتة على صحة القرآن ، فالقرآن يستدل به ولا يستدل عليه بغيره، ولهذا قال عبد القاهر في بيان حاجة البلاغي للشعر: **" أردتُه لأعرفَ بهِ مكانَ بلاغةٍ ، وأجعلَهُ مثالاً في بَراعةٍ ، أو أَحتجَّ في تفسير كتابٍ وسنّة ، وأنظرَ إلى نظمِه ونظمِ القُرآن ؛ فأرى موضعَ الإعجازِ ، وأقفَ على الجهة الّتي منها كان ، وأتبيَّنَ الفصلَ والفُرقان** "(الدلائل – ط:شاكر: ٢٦)

تأمّل قوله:" أَحتجَّ في تفسير كتابٍ وسنّة" فأنّه القولُ الحكيمُ.

٢) كان الفرزدق قد ربط نفسه إلى أن يحفظ كتاب الله تعالى، فعدا جريرٌ بشعره على نساء قوم الفرزدق ، فلما استجدت بالفرزدق وهو على تلك الحال نسوة قومه دمغًا لعادية جرير، فأحفظنه ، فنقض القيد و قال هذه القصيدة ،وفاتحتها:

ألا استَهزأتْ مِنّي هُنيْدةُ أنْ رأتْ ★ أسيرًا يُدانِي خَطوهُ حلقُ الْحجلِ

وهي في ست وعشرين بيتا، ومن قبل البيت الشاهد قوله:

فإنْ يكُ قيدي كانَ نذرًا نذرتُهُ ★ فَما بِي عنْ أحساب قومي منْ شغلِ

الذِّمارُ: ما تجب حمايته، كالأهل والعِرْض.

والأحْسَاب: مَا يَعُدُّهُ المرءُ من مَناقبِ وشَرَفِ الآباء.

ونظم الفرزدق من باب النظم في قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

يستقيم، ألاَ ترى أنَّك لا تقولُ: "يُدافعُ أنا" و "لا يقاتل أنا"، وإنما تقول: "أدافع" و "أقاتل" إلاَّ أنَّ المعنى لمَّا كانَ: "ما يُدافِعُ إلا أنا"، فصَلْتَ الضميرَ كما تفصِلهُ مَع النَّفي إذا ألحقتَ معه "إلاَّ"، حَمْلاً على المعنى. (١)

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا

فصل عمرو الضمير(أنا) عن الفعل(قطر) لأنهّ المقام مقام حصرٍ قولاً واحدًا لمكان(ما)و(إلا) وكذلك فعل الفرزدق فصل الضمير(أنا) عن الفعل(يدافع) لمكان الحصر ، إلا ان اداة الحصر هنا (إنما) فلمَّا تشابه الأمران في فصل الضمير دلَّ علَى أنَّ العلة واحدةٌ ، وهي مكان الحصر، فكان في هذا برهانٌ على أن (إنّما) و(م ،و إلاّ) في الدّلالة على الحصر سواء

١) الشيرازيات (ص ٢٥٣) وهنا يتوقف عبد القاهر عن نقل ما نقله الفارسي عن سيبويه في مسألة الحمل على معنى النفي فقد قال الفارسيّ من بعد ذلك :"وقد قال سيبويه ما يقارب هذا الذي ذهبُوا إليه . " ثم يعرض ما ذهب إليه سيبويهِ.

المهمُّ أنّ هذا من الفارسيّ قولٌ محكم ، فقد أبان أنَّ هذا الأسلوب لا يخلو من واحد من اثنين لا ثالث لهما ، إمَّا أن يكون إيجابا ،أو سلبًا. إنْ كان إيجابًا لوجب أن يقُول : أدافعُ ، أو يدافع، ولا يقُول أدافعُ أنا ، فأصول البيان بالعربية لا تأذن بذلك ، فدلَّ الفصل على أنّه لا يريد إلا الوجه الأخر "النفي" فكان عليه أن يقول : ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا ، فهو على نفضِ النفي الأول بـ"إلا "

وهو عدل عن (ما، وإلا) إلى ما يقوم مقامتا : (إنما) ، فقال (إنما يدافع....) ، وصنع معها ما كان هو صانع مع (ما،وإلا) فكان في هذا دلالة حصينة على أن (إنما) في قوة (ما ، وإلاّ) في إفادة الحصر.

ومنهج الفارسيّ في عرضِه المسألة قائم على المحاجّة ، وهو نهج يُتخذ لتقرير الأمر المتنازع فيه على نحو يحمل الآخر على التسليم بما يعرضُ عليْه . وقد كان النّهج الحجاجي في غير السياقِ العربيّ أمرًا رئيسًا في الفعل البلاغيّ مقدمًا على النهج الآخر ، أمّا الفعل البلاغي في السياق العربيّ فقد كانت عنايته بهذا النّهج الحجاجيّ أقل من عنايَته بالنهج التخييلي، ولكنّه لم يتخلّ الفعل البلاغيّ العربيّ عن النهجين أبدًا. ومن يسعى إلى أن يقصر الفعل البلاغيّ العربي ونظر العقل البلاغيّ في هذا الفعل في واحدٍ من النهجين فَإِنَّهُ لَغير مصيبٍ.

ويبقى أمرٌ يتعلقُ ببيت الفرزدق :

وقال أبو إسحاقَ الزجَّاجُ([1]) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾[البقرة: ١٧٣، سورة النحل: ١١٥]([2])

البيت في سياق الفخر ، وقوله (أنا أو مثلي) فيه مثلبة أو معابةٌ ، و ما كان للفرزدق أن يقيمها فيه : الفخر لايأنس به أن يقول (أو مثلي) لأنّه بذلك يثبت لنفسه مثلاً في هذا ، وهذا لا يليق ، ألا ترى أنَّه لو كان له مثلٌ في قومه في مثل هذا المقام لما عمدت النسوةُ إليه ، وقد نزرَ أن يحفظ كتاب الله تعالى. ؟

قد يقال إنّه أراد أن يشير إلى أن في قومه من يمكنه أن يدافع عن أحساب قومه ، وأنَّهم جميعًا سواء في هذا. قد يقال ، ولكنه ما يزال نافرًا من سياق الفخر. ونافرًا من واقع الحال. على النحو الذي أبنت عنه. وإن تكن (أو مثلي) لتمام القافية فلذلك لا يسترضي من مثله ، فإنه الشاعر، وكان بملكه أن يقيم للقافية حقَّها من غير أن يقصّر في ما يقتضيه مقام الفخر.

[1]) أبوأسحاق **إبراهيم بن السري بن سهل،(٢٤١- ٣١١هـ)** وهو تلميذ المبرد، شيخ أبي علي الفارسي، وأبي جعفرالنحاس، وأبي القاسم الزجاجي .

له تصانيف منها كتاب معاني القرآن في التفسير، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف وكتاب تفسير أسماء الله الحسنى. .

٢) جاءت هذه الآية في سورة "البقرة" :﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(ي : ١٧٣)

وفي سورة"النحل" : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل:١١٥)

جاءت هذه الآية في سورة البقرة مسبوقة بقول الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢)

والقراءة بنصب "الميتة" تؤذن بأن الفعل(حرم) مبني للفاعل ،وهو ضمير يعود على اسم الجلالة في الآية السابقة عليها. أي ما حرم الله عليكم إلا الميتةَ ...

وقول أبي إسحاق الزجاج ، في قراءة نصب "الميتة" هو القراءة" لا يعني أنه يدفع غيرها، وأن غيرها مما ثبت لا تصح القراءة به، بل المعنى هو القراءة الأظهر والأقرب للسياق .

والقراءة برفع "الميتة " تؤذن بأن الفعل(حرم) مبني لما لم يسم فاعله، لتعين الفاعل ، فهذا الفعل لا يكون إلا من الله تعالى.

النصْبُ في "الميتة" هو القراءةُ، ويجوزُ: "إنما حُرِّمَ عليكم". قال أبو إسحاقَ: والذي اختارُه أن تكونَ "ما" هي التي تمنعُ "إنَّ" مِنَ العمل، ويكونُ المعنى: "ما حُرِّمَ عليكُم إلاَّ الميتةُ"، لأنَّ "إنما" تأتي إثباتاً لما يُذْكَرُ بعدَها، ونَفْياً لِمَا سواهُ ([1])

وقولِ/ الشاعر:...... وإنَّما يُدافِعُ عَنْ أحسابِهِم أَنا أَوْ مِثْلِي

المعنى: ما يُدافِع عن أحسابِهم إلا أنا او مثلي"([2]).

---

[1]) قول الزجاج:" لأن إنما تأتي إثباتاً لما يُذْكَرُ بعدَها ونفياً لما سواهُ" دالٌ على أنّ(إنما) عنده مضمنة معنى النفي الإثبات اللذين هما ركن القصر في بنية الجملة الواحدة ،ومناط الإثبات في(إنما) هو المذكور بعدها، ومن ثم يكون النفي غير مصرحًا به بل هو مفعول ما الكلام . وعلى هذا لا تكون (ما) عنده نافية ، كما يذهبُ إليْه بعض أهل النظر . وفيه نظر بالغٌ .

[2]) ممَّا يجبُ أن نكون على ذُكرٍ منه أن (إنما) تأتي في البيان القرآني على هذه الصورة الكتابية التي توصل فيها(ما) بـ(إن) أو(أنّ) فتكونان كلمة واحدة ، وهما في غالب الأمر مفيدان للقصر، وحينئذٍ تكون (ما) كافة لـ (إنّ) أو (أنّ) عن العمل الإعرابي المعهود .

وفي مواضع تكون(ما) مصدرية أو موصولة بمعنى(الذي) ومن ثم تكون (ما) اسم (إنّ) أو (أن) وبذلك لا تكونُ الكلمة على هذه الصورة الكتابية مفيدة للقصر، فإن كان في الآية قصرٌ ، فليس طريقه (إنما) هذه ، بل له طريقٌ آخر.

من هذا قول الله تعالى : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) (الذريات:٥) وقوله سبحانه : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) (المرسلات:٧)

فـ(ما) في الآيتين إما مصدرية ، والمعنى أن وعدنا لكم أو وعيدنا لكم لواقع ، لصادقٌ ، أو موصولة، والمعنى إنّ الذي توعدون لصادق، لواقع، ولذا دخلت لام الابتداء على الخبر: (صادق – واقع) مما يؤكد أن(ما) هنا اسم إنّ ، وليست بكافة.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٩٥)أي إنَّ الذي عند الله هو خير لكم

وكذلك قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان:٢٧)

انتهى كلام أبي علي.([1])

[فَرقٌ بين ما يصلح في "إنما" وما يصلح فيه "ما"، و"إلا"]

المعنى: لو أنّ الذي في الأرض من شجرة أقلامٌ .... ، فـ(ما) أسم موصول هو اسم (إن) وخبرها(أقلام) .

وقد تأتي وهي محتملة أن تكون كافة أو موصولة أو مصدرية كما في قول الله تعالى : ((قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (طـه:٧٢) على معنى ما تقضي إلا في هذه الحياة الدنيا، أو إن الذي تقضي كائن في هذه الحياة الدنيا ، أو إنّ قضاؤك كائن في هذه الحياة الدنيا .

المهم أن نكون على بينة من الأمر، فنحقق النظر في(ما) أكافة قطعًا أم أنها لا تحتمل البتة أن تكون كافة ، أو تحتمل أن تكون كافة أو مصدرية، أو موصولة ، كلّ ذلك من حقّ البيان أن يوفى النظرُ فيه، وغير قليل من الناشئة في طلب العلم يغفلون عن ذلك، فيقع من التأويل ما يحمد .

١) حرصَ عبد القاهر على أن يؤصّل القول بدلالة(إنّما) على الحصر من مذاهب أهل العلم بالنحو، ولم يكن ذلك منه في دلالة النفي والاستثناء(الاستثناء المفرغ: ما وإلاّ) ذلك انّه لم تكن هنالك منازعة في دلالة "الاستثناءِ المُفرّغِ" على الحصرِ من النحاة، أمّا دلالة (إنّما) على الحصر ، فثَمّ منازعة من النحاة من قبلِ عبد القاهر ،ومن بعده ، فكانت أولى بالتأصيل من مذاهب أئمة النحو ، كالفارسيّ ومنْ فوقه.

وغير خفيّ عنك انّ كلام عبد القاهر في أسلوبِ القصر قد تولد من كلامه في(إنّ) ومواقعها ودلالاتها ، ثُم تطرقَ لدلالة(إنّ) إذا ما تركبت معها (ما) فصارت(إنما) هذا التركيب أحدث فِي(إنما) دلالة لم تكنْ لها وحدها من قبلُ ،ولم تكن لـ(ما) أيضًا ،وفي هذا دلالة على أن نظم أداة معنى مع أخرى ليشكلا أداة ثالثة ، يجعلُ لهذه الأداة الثالثة معنى ليس لأي من عنصريها قبل التركيب، فذغا ما كان هذا على مستوى حروف المعانِي ، فالأمر كمثله في الكلم قبل وبعد تركيبها لبناء جملة، والجمل من قبل ومن بعد لبناء صورة كلية أو فقرة ... وهكذا حتى يصل بك الأمر إلى بنية النصّ .لأن ما يمكن أن يكون قائمًا في الجزءِ ليس ثَمَّ ما يمنع أن يقوم في الكلّ، بل ربما وجب أن يكون في الكلّ المركب من تلك الأجزاء ،ومن ثم يمكن أن تتسنم نظرية النظم الجرجانية المدارج بدأً من الحلمة ممثلة في حروف المعاني المركبة ،وانتهاء ببنية النص الكبرى.

ـ

٣٨٩ ـ اعلمْ أنَّهم، وإنْ كانوا قَدْ قَالوا هذا الذي كتبته لك، فإنه لم يَعْنُوا بذلك أنَّ المعنى في هذا هُوَ المعنى في ذلكَ بعينِه، وأنَّ سبيلَهما سبيلُ اللفظَيْن يُوضَعان لمعنى واحدٍ. وفرقٌ بينَ أنْ يكونَ في الشيءِ معنَى الشيءِ، وبينَ أنْ يكونَ الشيءُ الشيْءَ عَلَى الإطلاق. (١)

يُبيِّنُ لكَ أنَّهما لا يكونان سواءً، أنه ليس كلُّ كلامٍ يصلُحُ فيه "ما" و "إلاَّ"، يصلحُ فيه "إنما". (٢)

ألاَ تَرى أنها لا تَصْلُح في مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّه﴾[آل عمران: ٦٢]، ولا نحوِ قولِنا: "ما أحدٌ إلاَّ وهُو يقولُ ذك"، إذْ لوْ قلتَ: "إنَّما مِنْ إلهٍ اللهُ" و "إنما أحَدُ وهو يقولُ ذاك"، قلتَ ما لا يكون له معنى. (٣)

١) هذا من عبد القاهر دالٌ علَى أن الكلمتين إذا وضعا لمعنى واحد ، فلا يعني هذا تطابقهما تطابقًا كاملاً بحيثُ تغنِي إحداهما إحداهما عن الأخرى، دونما فرق ، بل يعني أنَّ ما ينهما من المقاربة جدُّ كبيرٍ إلا أن ثَمَّ فرقًا قائمًا هو الذي أوجب أن يختلفا في اللفظ ، ففي المغايرة اللفظية آية على المفارقة في المعنى . وهذا من عبد القاهر متآخٍ تمامًا مع جوهر نظرية النظم ، وهي تعتمد على أن أدنى مفارقة في بنية الجملتين هو من مقتضيات مفارقة في المعنى لكل . ومن ثَمَّ لا يمكن أن يمتازَ كلامٌ ولو كان أدنى ممايزة في بنية كلمة عنها في كلام آخر إلاّ وكان منْ من وراء ذلك تمايزٌ في المعنى ، يجب التفتيشُ عنه ، والعضُّ عليه بالنواجز.

٢) يعتمدُ عبد القاهر هنا على مقامات الاستعمال ، وهذا ما لا يتجه إليه العقلُ اللغويُّ أو النحويُّ ، بلْ هو طَلِبةُ العقل البلاغيّ ، فإذا صلح أحدُهما في مقام لا يصلح فيه الأخر، فمردُّ ذلك أنَّ الذي صلح في هذا المقام منهما فيه مزية هي التي جعلته يأنس به المقام ، وبينا الآخرُ فاقدٌ لتلك المزيّة ، فحرم من أنسِ المقامِ به ، وهذا لا يجعلهما سواءً في كلِّ شيْءٍ .

وهذه إضافة جليلة من عبد القاهر ، لا تقبل المنازعة ، فكان حجة حصينة على أنهما وإن تقاربا، وكان في أحدهما معنى الآخر فليسا بسواءٍ تمامًا. وعبدُ القاهر أتَى قصدَه من الجهة التي هي أصح لتأديته : أتى إلى إثبات الفرق من جهة مقامات الاستعمال ، فأنجع .

٣) قوله تعالى: (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا اللَّهُ) جاء في موضعين من كتاب الله تعالى :

فإن قلت: إن ذلك أنَّ "أحداً" لا يقعُ إلاَّ في النفيِ وما يَجْري مَجْرى النفي من النَهْي والاستفهام، وأنَّ "مِنْ" المَزيدةَ في"ما مِنْ إلهٍ إلا اللهُ"، كذلكَ لا تكونُ إلاَّ في النفي.

قيل: ففي هذا كفايةٌ، فإنه اعترافٌ بأنْ ليسا سواءً، لأنهما لو كانا سواءً لكانَ ينبغي أن يكونَ في "إِنما" مِنَ النفي مثلُ ما يكونُ في "ما"و"إلاَّ" (١)

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦٢)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (صّ:٦٥)

قصرالألوهية الحقة على الله تعالى جاء بطريق النفي والاستثناء(الاستثناء المفرغ) وهو من قصر الصفة على الموصوف تحقيقًا .

وليس المعنى الذي هو قصر الألوهية الحقة على الله تعالى هو الذي يقتضي الاستثناء المفرغ، ويمنع (إنما) لأنّ (إنما) جاءت في المعنى نفسِه .يقُول تعالى :

((إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) (طـه:٩٨)

فقوله تعالى :((إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ)) معناه ما إلهم الحق إلا الله والذي منع (إنما) في آية سُورة" آل عمران " أو سورة"ص" أمرٌ في مكونات الجملة . وهذاما لفت إليه عبد القاهرمن بعد إذا قال: " ولا في نحوِ قولِنا : ما أحدٌ إلاَّ وهو يقولُ ذاك . إذ لو قلتَ : إنَّما مِنْ إلهٍ إلا اللهُ وإنَّما أَحَدٌ وهو يقولُ ذاك قلتَ ما لا يكونُ له معنًى " فالتنكير، وكذلك (من) لا تتناسب مع (إنما) فهما من خصائصِ النفي الصريح، وما في(إنما) من النفي ضمني .

١) هذا يدلّك على أنّ بعض الأساليب لا تصلح مع بعضٍ، وإن بعضها يستوجب صحبة أسلوبٍ متعيّن . فـ(مِنْ) الداخلة على نكرة لإفادة العموم تستوجب أن تكون في سياقِ نفيٍ صَريح ، مدلولٍ عليه بأداة نفيٍّ . و(إنما) لا يتحقَّق فيها ذلك النفي الصّريح . ولذلك كثر سبقها أو تعقيبها بما يدل على النفي .

يقول الشاعر:

ليس منْ مات فاستراح بميّتٍ ★ إنما الميت ميّتُ الأحياء

وقول الآخر:

وما الزّينُ فِي ثوبٍ تراهُ ،وإنما ★ يزينُ الفتَى مخبورُهُ حينَ يُخبَرُ

وكما وجدتَ "إنما" لا تصلحُ فيما ذكرْنا، كذلك تجد "ما" و "إلا" لا تصلُح في ضَرْبٍ من الكلام قد صلحتْ فيه "إنما"، وذلكَ في مثلِ قولكَ: "إنما هو دِرهمٌ لا دينارٌ"، لو قلتَ: "ما هو إلاَّ درهمٌ لا دينارٌ"، لم يكنْ شيئاً.

وإذْ قد بانَ بهذه الجملةِ أنَّهم حينَ جعلوا "إنما" في معنى "ما" و "إلا"، لم يَعْنوا أنَّ المعنى فيهما واحدٌ على الإطلاق، وأن يُسْقطوا الفرْقَ فإني أُبَيِّن لكَ أمرَهُما، وما هو أصْلٌ في كلِّ واحدٍ منهما، بعون الله وتوفيقه. (١)

★★★★★

وعبد القاهر يأخذ من كلام محادثِه ليستدل به على ما يذهبُ إليه، وذلك من أمكن أساليب المحاجة، فإنّه لا سبيل لمحادثك أن ينكر عليك ما أنت مستلُّه من كلامه ، فهو اعترافٌ ضمني مسبّق . وبلاغة المحاجة مجالٌ خصب ، ما أفقرنا إلى العنايةِ به !!!، ولاسيّما في زماننا هذا الذي تكاثرت فيه السّهام على الدّعوة الإسلامية ومصدريها الكتاب والسُّنة ، وكلّ يَدعِي وصلا بليلى ...

١) لم يكن قولهم: (ما هو إلا درهم لا دينار) غير مأتنوسٍ إلا من قبل (لا) فهي النَّافرة عن (ما ،وإلاّ) فكما نفرت (منْ) وتنكير (مدخولها) عن (إنما) نفرت (لا) عن (ما،وإلاّ) .

ووجه ذلك أنّ (لا) لا تكون إلا إذا كان ما قبلها مسلطًا عليه نفي صريح من غيرها ، فإن سُلط عليه نفيٌّ صريحٌ من غيرها لم تكن بالآنسة بهذا البناء. فإذا قلت : ماجاء محمد لا خالد ، قلت ما تقُول العرب. وفي(ما جاء إلا محمد لا خالد) فعلت الأمرَ نفسَه ، وهذا لا تقوله العربُ ، نزولاً على استحقاقات (لا) فهي موضُوعةٌ لأن تنفِيَ بِها مَا أَوجبتَهُ لِلمتبوعِ ، لا أن تفيدَ بِها النّفي في شيءٍ قد نفيته عنه صراحة .

ومن ثم تعرفُ الفرق بين النفي في(إنما) والنفي فِي(ما ،وإلاّ) وهو أحدُ ركني القصر. النفي في(ما،وإلاّ) نفي صريحٌ بأدة كموضوعة له، والنفي فِي(إنما) نفي ضمنيّ ـ فإذا ما اختلفا في أحد ركني الحصر، فهذا قاطِعٌ فِي أنّهما لن يكون سواءً بسواء.

[موضُوع "إنما"،ومقاماتها]

٣٩٠ - إِعْلم أنَّ موضوعَ "إنما" على أن تجيءَ لخَبرٍ لا يَجهلُهُ المخاطَبُ ولا يَدفعُ صِحَّتَه، أو لا يُنزَّلُ هذه المنزلةَ. (١)

---

١) هذا من عبدِ القاهر بيان للمقامات التي تردُ فيها "إنّما " دالةً على القصر الذي هو عند البلاغيين : " تخصيص أمرٍ بأمرٍ بطريق مخصوصٍ"

وهو قد أجمل مقاماتها في أمرين كليين:

الأول : أن يكون الخبرِ معلومًا للمخاطب ، ولا يدفَعُ صحَّتَه .ويمكنك أن تجمع إليه أن يكون الخبر من شانه ألا يُدفع .

والآخر أن ينزل الخبر منزلة ما لا يجهله المخاطب ، ولا يدفعه لأمر اقتضى هذا التنزيل .

((مراجعات تبيينة لهذين المقامين))

المقام الأوّل : حين يكون الخبر معلومًا للمخاطب ، وفي الوقتِ نفسِه لا يدفعُه لأنه يجمعُ الأمرين معًا : يعلمه ويسلّم بِه . وحيئئذٍ لا يكون الخبر للإعلام بأصل الخبر، فهو معلوم ، ولا لتقريره وتوكيده ، فهو غير مدفوع ، بل هو مسلّم به ، وإنّما القصدُ من الإخبار أمورٌ أخر يقتضيها السياق، فالقصد هنا إلى ما يقتضيه العلم والتسليم بذلك الخبر ، فيذكر به ، أو ينبه عليه ....

وهنا تتنوّع عطاءات (إنما) المستخرجة من دلالتها على القصر . فدلالتها على الحصر حينذاك دلالة وضعية متعيّنة ، وما يستتبع ذلك من المعاني الدّلالة عليْها سياقية ، فهو أقرب إلى باب الإفادة منه إلى باب الدّلالة ، ومن ثم تنتمي هذه المعاني المستنبطة من السياقِ الذي دلت فيه (إنما) على الحصر بين طرفيها إلى ما يُسمّى بمستتبعات التراكيب ، وهي معان لا توصف بالحقيقة ، ولا بالمجاز ، لأنَّها ليست من قبيل "الدَّلالة" التي هي مناط التَّقسيم إلى حقيقة ومجاز، بل تنتمي كما قلت قبلُ إلى باب الإفادة.و« الإفادةُ» لا توصفُ عند أهل العلم بحقيقة ولا مجاز ، لأنها لا تكون من اللفظ بل تكون عند سماعِ اللفظ .

والمقام الآخر : أن يكون الخبرُ ممّا يجهله المخاطبُ ، أو يعلمه ، ولكنَّه يدفعُ صحته إلا أنّ في السياقات التي يكون فيها الخبرُ ما يقتضِي عدم الاعتدادِ بجهله إمّا لأنّ الخبر ليس بأهل لأن يجهله أحد من الناسِ كمطلع الشمسِ من المشرق ...

تفسيرُ ذلك أَنكَ تقولُ للرجل: "إنما هو أخوك "و" إنما هُوَ صاحُبك القديمُ":لا تقولُه لِمَنْ يَجْهلُ ذلك ويدفَعُ صحَّتَه، ولكنْ لِمَن يَعْلَمُه ويُقِرُّ به، إلاَّ أنَّك تُريد أن تُنَبِّهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ الأخِ وحُرْمةِ الصاحبِ.(١)

أو يكون المخاطب عالمًا بالخبر إلا أنّه يتوقّف في التسليم به ، وفي السّياق ما يدفع أن يكون هذا الخبر أهلاً لأن ينكر لما عليه من الدلائل المبصرة ، والبراهين النيّرة ما لا يبقى معه عذرٌ لِذِي عَقلٍ . فينزل إنكارُ المخاطبِ وتوقفه منزلة العدم ، فيكون المقام للإتيان بـ"إنّما"

١) قولُ عبد القاهر : " إلاَّ أنَّك تريدُ أن تنبهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ الأخِ وحرمةِ الصاحِب " كاشفٌ عن مقتضِي الإبانة بالعبارة على هذا النحو . وحينئذ لا يكون منطوقُ العبارة هو المقصُود إليه ، بل ما يترتب عليه. وهذا في العربية مسلك مطرَّق ، ومهيعٌ ملحّبٌ ومن بابه قول الله سُبْحانه وتعالى ﴿: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا ﴾(البقرة: من الآية٢٧٥)

قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا ﴾ ليس القصد به إلى بيان حكم البيع وحكم الربا الذي هو منطوق العبارة . كلاَّ.

القصد إلى لازم ذلك ، وهو أنّ البيع ليس مثل الربا ، كما زعموا ، بل هنالك فرقٌ جوهري عظيم يتمثل في أن البيع أحله الله سُبحانه وتعالى ، والربا حرّمه الله سُبحانه وتعالى ، فكيف يكون "البيعُ" مثلُ "الرّبا"؟!! ذلك هو المساقُ له الكلام .

كذلك قولك : " إنّما هو أخوك " ليس قصدك الإخبار بمنطوق العبارة ، بل قصدك إلى ما يستتبع هذا التركيب ، وهو التنبيه إلى وجوب الوفاء بحق الأخوة التي هي بينكما ، والتي أنت عليمٌ بها ، ومسلمٌ ، بل ربما مستمسك ، معتزٌ بها. وكم من أخٍ هو عليم مستذكر هذه الأخوة مستمسك بها ، غير أنَّه لا يقُوم بحقّها . فيأتي قولك : « إنما هو أخوك » ليلفتَ الانتباهَ إلى ما غاب عن فعلك من استحقاقات هذه الأخوة وهذا ضربٌ من التعريضِ يتوغل في النفسِ ، و يتوطن سويداء القلب المعافى من داء الهوى والمعاندةِ ، فيكون أثره فيه جدّ عظيم . وقيمة البيان بمقدار توغله في النفس المستقبلة، وفاعليته فيها .

ومثله قوله : إنّما أنتَ والدٌ، والأبُ القا   طِعُ أحْنى مِنْ واصلِ الأولادِ (١)

١) بيت من قصيدة قالها المتنبي حين سعى غلمان لابن الإخشيد مولى كافور ، وربيبه للإفساد بينهما ، فطالب كافور ربيه وصنيعته ابن الإخشيد أن يسلم له الغلمان ، فامتنع ابن الإخشيد ثم استجاب ،وسلم الغلمان لكافور واصطلحا ، فقال المتنبي هذه القصيدة التي استهلها بقولِه بقولِه :

حَسَم الصُّلْحُ ما اشتهتْهُ الأعادي * وأذاعته ألسنُ الْحُسَّادِ

وهو استهلالٌ حاسمٌ ، ومبرزٌ أن الذي حسمه الصلح ليس من شأن كافور ،وربيبه ابن الإخشيد ، بل هو من شأن الأعادي. وفي هذا من الحثّ على ألا يكون مثل هذا من بعد ، وألا يكون لهذا أثر أيضًا فيما بينهما ، فليكن حسمٌ أيّ حسمٍ .

والمتنبي بقوله (إنما أنت والد) يشير إلى أن كافور هو الذي اتخذ ابن الأخشيد كالولد له لأنه هو الذي رباه ، فكان غلامه . فقوله : (إنما أنت والد) لا يريد به إعلام كافور بذلك ، فإنّه العليمُ بأنه الذي اتخذ ابن الأخشيد ، وان ابن الإخشيد ينزل منه منزلة الولد ، وإن جفاه أياما ، وكان منه ما كان . فالمتنبي يريد بقوله هذا أن يذكر كافور بما توجبه الأبوة من حقّ للابن الإخشيد على الرغم من عقوقه . ولذا أردف قوله هذا بعبارة كاشفة : " والأَبُ القاطِعُ أَحْنَى مِنْ واصِلِ الأوْلادِ " فمهما بلغ الأب في المغاضبة من ولده ، فإنه أحنى على ولده من ولده عليه ، وإن كان هذا الولد من أعظم الأبناء برًا بأبيه. فحنو الآباء طبع وفطرة ، وبر الأبناء تعلم واكتساب ، وتأدبٌ وسياسة وتربية. وما كان كذلك كان من دون ما هو طبعٌ وقريحة .

يقُول ابن جنّي: معناه أنك يا كافور أقرب إلى مولاك من ولده إليْه ، وأحنى عليه من ولده الواصل له : أي لو كان له ولد لكنت أحنى عليه من ولده.

المهمّ أنّه لا يصلح هنا أن نقول إنّ القصد الرئيس أن يقصر المتنبي كافورًا على الأبوة، وينتهي الأمر، فمثل هذا لا يقال له الشعر ، ما وراء ذلك ، وهوأن يقصره على أن يكون منه ما تقتضيه الأبوة للأبناء ، وإن كانت الأبوة مشوبة بمغاضبة.

وقد أوجز عبد القاهر القصد المساق له جملة القصر قائلا : " أ راد أن يذَكِّرَه بالأمِر المعلوم ، لينبنيَ عليه استدعاءُ ما يوجُبه كونُه بمنزلة الوالدِ "

ومن ثم لم يكن قوله (إنما أنت والد) هو محط القصد ومحجّه الأعظم ، بل ذلك مقدمة لأمرٍ ينبى عليها.

لم يُرد أن يُعْلِمَ كافوراً أنه والدٌ، ولا ذاكَ مما يحتاجُ كافورٌ فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أنْ يُذكِّرَهُ منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استداء ما يُوجِبهُ كونُهُ بمنزلةِ الوالدِ. ومثلُ ذلك قولُهم: " إنَّما يَعْجَلُ مَنْ يَخْشَى الفَوْتَ"، وذلكَ أنَّ مِن المعلومِ الثابتِ في النفوسِ أنَّ من لم يخشى الفوتَ لَمْ يَعْجَل. (١)

ومِثالُه مِنَ التنزيلِ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾[الأنعام: ٣٦]، (٢)

) غير خفيّ أن الباعث على العجلة هو خوف الفوت ، فإذا أيقن المرءُ أنه لن يفوته شيءٌ لمن يكن هنالك منه عجلة ، وفي هذا اعتذارٌ لمن لم يسارع إلى أمرٍ ، بأنه لا يخشى فوته ، فهو في قبضته ، وهو مسيطر عليه ، وفي إمرته ، وهذا يقال في سياق من يخبر عن وجه تريث من لا يعجل ، في أمر يظن أنه جديرٌ بأن يتعجل الناسُ إليه.

فمنطوق العبارة ليس هو مناط القصد ، بل ما يلزم ذلك ، وهو المعنى المنفي : لا يعجل من أيقن الإدراك . وفي هذا دلالة على أن العنصر المنفي قد يكون هو مناط القصد على الرغم من أنَّ النفي فيه سبيله التضمين ، وليس بالمدلول عليه صراحة. وهذا من قبيل تقرير أنّه من رسوخه ليس بحاجة إلى أن يكون الدَّال عليه صريحًا في الدلالة ، بل يكفي في ثبوته أن يكون مدلولاً عليه ضمنا، وهذا مسلك من مسالك توكيد المعنى ، وتوطينه . فتجدك أوكد ما تكون مؤكذا إذا لم تؤكد ، وأبين عن مرادك إذا لم تصرح بالإبانة ، إنها بلاغة الصمت .

١) يقُول الله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) الأنعام(36: منطوق صدر الاية أنَّ الاستجابة لا تكون إلا ممّن يسمع) السمع هنا مراد به ثمرته " : التعقل والتفكر " و كلَّ عاقلٍ يَعْلَمُ ذلك ، ولا ينكره ، فهذا دالٌ على أنّ منطوق الجملة غير مرادٍ الإخبار بِهِ لذاتِه ، بل لما هو مترتبٌ عليه ، وهو أنّ ألذين لم يستجبوا لدعوتك إنّما هم صمّ وموتى ، ومنْ ثم لم يستجيبوا ، فليس عدمُ استنجابهم لأمرٍ يرجع إلى كيفية دعوتك إياهم ، فتلوم نفسك ، ولا إلى أمر يرجع إلى ما تدعو إليه ، يصدّ عنه من تبصّره ، كـلاَّ .

الأمر مرجعه إليهم . إنّهم لصمٌّ بكمٌ عميٌ ، بل هم الموتى ، موتى القلوب، (لهم قلوبٌ لا يفقهون بها(والموتى يبعثهم الله . وفي هذا من الإقبال على النبي صَلّى الله عليه وسلّم، ورفع شأنه بستليته ، ومواساته، والشدّ من أزره ما فيه .

وقولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[يس: ١١] (١)

قول الله تعالى)إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)) يس(11:
مناط القصر هنا هو الفعل ومعموله(من اتبع الذكر) فالمعمول هنا هو المقصُور عليه ، أي مأ انت منذر إلا من تتبع الذكر .

ومنطوقها غيرُ مقصُودٍ لذاتِه ، فليس هو ما سيق له الكلام سوقًا أصليًا ، كما يقُول الأصوليون ، بل القصد الرئيس إلى ما يترتّبُ على هذا المنطوق ، وهو أنّ العمل الجيد الفاعل إنما يثمرفي الأرض الخصبة ، والقلوب السليمة ، أمّا أن تكون الأرض سبخة ، والقلوب عفنة ، فلن يجدي معها العمل ، فالإنذار مع أمثالهم لا يفيد ، ولذا قال من قبلها) :وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ))يّس(10:

وفي سورة البقرة) : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) البقرة(7 -6 :

وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم واسترحام له من أن يبخع نفسه على آثارهم) : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً)) الكهف(6:

)لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ()الشعراء(3:

الإنذار هنا يرادُ بِه حصول أثرة، وليس حقيقة معناه الذي هو التخويف من سوء الْعُقبى ، فذلك كائنٌ من النبيّ (، ففي هذا إرشاد له) وحثٌّ له ألاَّ يغتمَّ بما يكون من صد المشركين ،وإعراضهم

وهذا يدلّك على أنّ) إنما (تأتي ، ولا يكون القصد الرئيس من عبارتها ما يؤخذ من منطوقها، ولذا قالت العلماء إن) إنّما (يغلب أن يكون القصد الرئيس بها إلى ما هو مقتضَى منطوقها . وهذا له شبه من وجهٍ بالتشبيه التمثيليّ من جهة الدلالة على المقصود وكيفيتها ، وذلك لا يخفي عليك.

كما أنّه لا يخفى التعريضُ الذي يقُوم في دلالة) إنما (في مثل هذا السياقِ ، وهو تعريضٌ بالغ النجعة والأثر في القلوب التي تعقلُ وتفقه.

ومن بابِ آية سورة"يس "آيةٌ في سورة" فاطر ." يقول الله سُبْحانه وتعالى:

)وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ((فاطر: ١٨)

وقولُه تعالى : ﴿ إنَّما أنتَ مُنذِرُ مَنْ يخشاها ﴾.[النازعات:٤٥] (١)

قصر فاعلية إنذاره على من يخشى ربّه بالغيبِ ومن يُقيم الصلاة . وليس قصره صَلّى اللهُ عليْهِ وسلّم على الإنذار. السياقُ ليس لذلك. السياقُ لقصر فاعلية الإنذار، وليس قصر النبيّ صَلّى اللهُ عليه وسلّم. كذلك يتحرر لك المقصُور ،والمصُور عليْه .

والمعنى المقصُود لا ينفعُ إنذارك من ليس خاشيًا ربه بالغيب ، ومن ليس بالمقيم الصلاة ، فمثل هذا لا يملك نفسُا قابلةً لأنْ تتتأثَّرَ بما تجتهدُ فيه من الإنذار ، فغيثك المهطالُ الطَّهورُ لا تنفعل معه تلك الأرض السّبخةُ ، فالمعابة فيها لا في غيثك الطَّهور. ومن ثم جاء قوله تعالى :(وَمنْ تزكّى فإنّما يتزكّى لِنفسِه) أبان بهذا إلى أنَّه إذا ما كان من النبيّ صلى الله عليه وسلّم قيامٌ بواجب الإنذار ، فعلى الأمة أنْ تعملَ على تزكيةِ أنفسِها وتنفيها ليفعل فيها ذلك الإنذار ، والبيان بقوله(: تزكّى)فيه إشارةٌ إلى وجوبِ حفظ النفس مما يفسدها ، وما يبطل عملها : الانفعال بالغيث الطهور .وليس أخون وأحمقَ ممّن لايحمي نفسه ممَّا يُضيرها، فمن كان هذا شانه فهو أعظم خيانة ، وإهمالاً لغيره ، فلا يصلح لشيْءٍ البتة : لايصلح أن يكون في قومه في موضع القائد ، ولا يصلح أن يتخذ مستشارًا يسترشد به، ولايصلح أن يكون صاحبًا ، لأنّه في كل حال لن تجد منه إلا خيانة وإهمالاً .

من هنا تدرك تربية القرآنِ للأمة وتبيانه معيار اتخاذ الولاة ، والأصحاب والمستشارين .. ، وأنت إذا ما نظرت في حال الأمة – زماننا هذا – رأيتها أبعد ما تكون عن ذلك المعيار .تجدها اتخذت ولاتها ، ومستشاريها ممن لم يحرصُوا على تزكية أنفسهم وحفظها مما يُضيرها ، وذلك هو مناط الخلل في هذه الأمة.

(هذه الآية في سورة» النازعات «ليست من بابِ آية سورة » يس) : «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)كلاّ .

آية «النازعات» ذات مساقٍ آخر :(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا {42}فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا {43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا {44}إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا {45}كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) {46}

آيةُ النازعاتِ مناط القصر فيها هو الخبر أي قصر المسند إليه" أنت" على المسند)منذر من يخشاها)، فالمعنى الذي يقضِي بِه السياقُ" ما أنت إلا منذر من يخشها " وليس المعنى" ما أنت منذر إلا من يخشاها "فالسياق ينبو عنه ، السياق قائمٌ لأنْ يثبت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وظيفة الإنذار ينفي عنه العلم بموعد الساعة ، وذلك ما يدل عليه ما قبلها) : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ

كلُّ ذلكَ تذكيرٌ بأمرٍ ثابتٍ معلومٍ. وذلك أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلَم أنَّه لا تكونُ استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدْعى إليه ، وأنَّ مَنْ لم يَسْمعْ ولم يعقِلْ لم يَسْتجبْ.

وكذلك معلومٌ أنَّ الإنذارَ إنما يكونُ إنذاراً ويكونُ له تأثيرٌ، إذا كان معَ مَنْ يؤمِنُ بالله ويَخْشاهُ ، ويُصدِّقُ بالبعثِ والساعةِ، فأمَّا الكافرُ الجاهلُ ، فالإنذارُ وتَرْكُ الإنذار معه واحدٌ. فهذا مثالُ ما الخبرُ فيهِ خبرٌ بأمرٍ يعلمُه المخاطَبُ ، ولا يُنْكِرُه بحالٍ. (١)

****

مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) (النازعات(44- 42 :

وعلى هذا تكون)إنما (مفيدة تخصيصه صلى الله عليه وسلم بصفة الإنذار ، ونفت عنه صفة الإعلام بموعد الساعة . فالقصر قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيا

ومن ثم ترى فرقًا بين هذه الآية وآيـة سورةِ)يس (التي أوردها عبد القاهر قبلها) :إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)) (يس:١١) ولو أنّه أفردها، ولم يجعلها تالية آية سُورة) يس (لكان أفضل.

(هذا الضربُ كان القصدُ فيه إلى مقتضى منطوق العبارة ، وليس إلى منطوقِها ، وبذلك يكونُ المعنى المستولد من المنطوقِ بمعونة السياقِ هو القصدُ وليس الأصل الذي استولد منه ، فيحلُّ الوليدُ ، محلّ ما استولد منه .وهذا يبرز لك أثر السياق والمقام في استبصار متَّجه القصد ، وحركة المعنى المقصود بالإبانةِ ، ومصدره ، وكيفية الإبانة عنه ، وأثر ذلك في تقريره في النفسِ وتمكينه منها، فليس خفيًّا إنَّ جهة الدلالة على المراد ذات أثر بالغٍ في إيصال المعنى ، وتقريره وتفعيله ، وتلك مشغلة العقلِ البلاغيّ وطَلِبتُه .وقد هدى عبد القاهر في فاتحة » أسرار البلاغة « إلى ما هو مهمومٌ به في هذا الكتاب : " بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ، ومن أين تجمع وتفترق ...

٣٩١ - وأمَّا مثالُ ما يُنَزَّل هذه المنزلةَ، فكقولِه:
إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللّـــــهِ تجلَّتْ عن وجْهِهِ الظلْماءُ(١)
ادَّعى في كونِ الممدوحِ بهذه الصفةِ ، أنَّه أمرٌ ظاهرٌ معلومٌ للجميع ، على

(١)البيت لعبيد الله بن قيسِ الرقيات، شاعرسيدنا مصعب بن الزبيربن العوام رَضِي اللهُ عَنهم ،ومن بعد هذا البيت قولُهُ:

مَلْكُهُ مُلْكُ قُوّةٍ ،ليسَ فيهِ * جبروتٌ ،ولا بِه كبْرياءُ
يتّقي اللهَ فِي الأُمورِ ،وقد أفلح من كــــان همّه الاتقاءُ

قصر الشاعر مصعبًا على كونه شهابا من الله تجلت عن وجهه الظلماء ، قصر موصُوفٍ على صِفة.
وهذا المعنى قد يكون محل منازعة ، فلا يسلّم ، وكان ظاهرُ أمره ألا يكون القصر بـ)إنما (لكنّ الشعر ادّعى أنّ تلك الصفة لمَّا كانت لمصعب ، كان حقّها أن تكون مسلَّمة ، لا يتوقف فيها منصفٌ فضلا عن أن ينازع ، ورعايةً لحقِ الصّفة ، ومنْ تكون له كان حرًى أن يكون القصر بـ)إنما (ولو أنّه راعى حق الصفةِ من حيثُ هي ،لا من حيثُ هي صفة مِصعب، لقال : ما هو إلا شهابٌ . وحينئذٍ ينزلُ القول في مقام المدح منزلاً لا يليق بمصعب.
مصعبُ هو الذي جعل هذه الصفة ذات استحقاق أن تسلّم،ولا تنازع، وغيره ليس بملكه أن يفعل فيها ذلك الفعل .لو كان الممدوح غير مصعب ، لوجب أن يقول :ما فلان إلا شهابٌ ...
أرأيْت كيف مصعبٌ في الأشياء؟ أيّ رجلٍ هذا ؟ أفي زماننا مثله ؟ !!!
كمال الثناءِ أو إن شئت كمال الصدق في الوصفِ أوجب أن يكون القصر بـ)إنما (؛ لأنَّها هي التي تقرّر أن هذا المعنى على الرّغمِ منْ غرابتِه في نفسِه هو بالنّسبة لمصعبٍ ليس بمجهول أو متوقفٍ فيه.
وقد فقه عبد الملك بن مروان الأمر وكان نقّادة ، فتصدّى لابن قيسِ الرّقيات حين قال فيه

يأتلقُ التّاجُ فوقَ مفرقهِ * على جبينٍ كأنَّهُ الذَّهبُ

وقال له : قد قلت في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلَّتْ عن وجههِ الظّلماءُ

فأعطيته المدح بكشفِ الغمم ، وجلاء الظّلم، وأعطيتني من المدح مالاً فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذّهب في النضارة).ينظر الكامل في اللغة والأدب للمبرد ج2ص200تح :محمد أبو

عادةِ الشعراءِ إذا مَدَحوا أنْ يدَّعوا في الأوصاف التي يَذْكُرون بها الممدوحينَ أنها ثابتةٌ لهم، وأنَّهم قد شُهروا بها، وأنهم لم يَصِفوا إلاَّ بالمعلومِ الظاهرِ الذي لا يدفعُه أحد، كما قال:

وتعدلني أفناءُ سَعْدٍ عليهمُ ★ وَمَا قلْتُ إلاَّ بالذَّي عَلِمَتْ سَعْدُ(١)

الفضل إبراهيم -ط1417 (1)هـ - دار الفكر العربي – القاهرة ،والصناعتين للعسكري - تحقيق مفيد قميحة -دار الكتب العلمية بيروت1404هـ(ص114

وتنزيل الصفة المجهولة أو المتوقف فيها منزلة المعلومة المسلمة له مقتضيات منها هنا كمال الثناء ، ومنها أن الموصُوف بها مصعب . فكل ذلك أخرج الصفة من كونها محل احتمال لعلم العلم بها أو التوقف في التسليم بها إلى محل التسليم والاشتهار .

ولو أنّ الشاعر قال في مصعب : ما مصعبٌ إلا شهابٌ تجلّت عن وجهه الظلماء. لكان هذا أدخل في الذم،وكان ممن أتى المعنى من غير الجهة التي هي أصح لتأديبته.

وإتيان المعنى من الجهة التي هي اصح لتأديته هو الجانب الأوّل من جانبي سبيل بلاغة الخطاب وتحقيق حسنِ دلالته على معناه وتمامها وتبرجها فيتمكن المعنى في قلب السامع ،وهيمنُ عليه ويصرفهذا القلب كيفما شاء.

(جاء عبد القاهر بهذا البيت في هذا السياق استئناسًا ، وإبانة أن من سنن الشعراء في المدح أن يدعوا أنّ الذي يذكرونه للممدوح لايختلقونه أو يدعونه أو هو ممّا يفتّشُ عنه وينقّب ، وإنّما هو جهيرٌ شهيرٌ، وما الشعراء حين يذكرون إنّما يذكرون مشهورًا، وكأنّهم حين يذكرونه لا يذكرونه إعلاما بمجهول أو غائب أو غائم ، أو مستغرب ، بلْ يذكرونه تلذذًا بذكره) إنما لذة ذكرناها (وأنهم يُقرون مسامع الناس بذكر مناقبهم المشهورة .

كذلك يلج الشعراء إلى هذا المعنى .

وفي ذلك من الإبلاغ في تقرير المقاصدِ وتوطينها النفوس ما فيه .وهو مسلك من مسالك إكرام الشاعرِ معانيه ومقاصِده ؛ لأنّها ولائده ، لها عليه حقُّ الرّعاية إنماءً وحمايةً » . كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيّته «فالشاعرُ راعٍ معانيه ، ومسؤول عنها رعاية تربيةً وحمايةً من أن تفهم على غير الوجه الذي يريدُ أن تفهم عنه ،وهذا ما جعل عبد القاهر يعد رأس مقومات بلاغة الخطاب حسن الدّلالة وتمامها وتبرجها في صورة بهية معجبة ، فبهذا يتحقَّقُ للمعاني رعايتُها تربيةً وحِمايةً .

وكما قال البحتري :

لا أدَّعي لأبي العلاءِ فَضيلَةً ★ حتَّى يُسَلِّمَها إلَيْهِ عِدَاه(1)

وهذا البيت للحطيئة يمدح بني سعد من كِندة) . تنظر قصة القصيدة في الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد – تحقيقمحمد أبو الفضل إبراهيم – ط1417 (3)هـ ، دار الفكر العربي – القاهرة ج٢ص١٤٠ –

الشاعر هنا قال : وما قلت إلا ....، ولم يقل : إنّما قلت " ... لأنّ صدر البيت) وتعذلني (...فهذا يقتضي أن ينزع هذا العذل ، ويقتلعه ، فهو دالٌ على أنّ هنا منازعة ، وإن تكن غير مصيبة ، وكذلك سياق مقام الإبداع دالٌ على المنازعة ، فنظر الشّاعرُ إلى حال فعلِ أفناء سعد ، ولم ينظر إلى حال ما فعل . ولو أنّه نظر إلى فعله لقال : إنّما قلت.....

وكأنّه أراد أنْ يُبْرزَ لنا بطونَ سعدٍ في مقام الجحود . والمناكدة في ما لا يليق بالنّصَفة أن يكون .قبيلة سعد علمت بالذي قال الشاعر ، وعلمت صدقَه ورسوخَه في الحقِ ، ولكنَّها عذلت برغمٍ من ذلك ،وكأنّه يقيمُ مقابلة بين حال من يمدحه ، وحال عاذليه على مدحه لهم . وفي هذا من تضمين مدحة صاحبة مذمَّة أفناء سعد ، وكان أجدرَ بهم أن يكونوا كمثلهم ، ولذلك تجده في القصيدة يَقُولُ لهم:

قلوا عليهم لا أباً لأبيكمُ ** من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

(1)أورد عبد القاهر بيت البحتري لمثل ما أورد له البيت الذي قبله بيت الحطيئة : الشعراء يدعون أنَّ ما يمدحون به أمرٌ ظاهرٌ مشهور مسلمٌ قيامه في الممدوح ، لا يجهلُ فضلا عن أن ينكر ويجحد. الادعاء الذي ذكره البحتريّ يريد بِهِ الذكر، والانتساب ، فكأنَّه قال : لا أنسبُ لأبي العلاء فضيلة حتى يسلمها له عدوه ، لأنّها من قوة انتسابها إليه ، وعجز عدوّه عن أن يجد من تنسب إليه سواه ، لأنّه ليس غيره بأهلٍ لأنْ تقبلَ هذه الفضيلةُ أن تُنسبَ إليه ، فيدفع ذلك العدو إلى التسليم.

البحتريُّ هنا يؤكد أَنَّ كلّ ما ينْسبه لأبي العلاء : صاعد بن مخلّد من الفضائلِ هو ممَّا تلاقى عليه أصدقاؤه وأعداؤُه ، هو ممنْ جمع بين المتقابلين : أصدقاءَه وأعداءَه . اجتمعا على التسليم بانتساب تلك الفضائل لأبِي العلاء ، لا تنتسب إلى غيره البتة ، فهي ولائده) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ)

وبيت البحتري حين تسمعه قد يتوافد على قلبك بيتُ أستاذه أبي تمام قائلا :

إذا أنا لم يحمدك عني صاغرًا عدوك ، فاعلم أنّي غير حامد

فهل هما من مخرج واحد ؟ لِلنظرْ . ؟ ظاهرُ مسلك البحتريّ لأنه يحتمل أحد وجهين:
الأوّل أنّه لا ينسب لأبي العلاء فضيلة وإلا ووجد الأعداء أنفسهم مسلمين بها ، لأنّ البحتري قد سدّ أمامهم كلَّ مسلكٍ للتوقف فضلا عن المدافعة.

فكأنّه يقُول لا أنسبُ إليك فضِيلة إلا ويسلم بها الأعداء من قوة ما أسلكه في نسبيتها إليك.

أيْ أنَّه يسلك في نسبة الفضيلة له مسلكًا قويًا يستمدُّه من قوة انتساب الفضيلة له ، فالحقّ لايلدُ إلا حقًّا .فأبو العلاء هو الذي فتق القول في لسانه ، وهو الذي يسَّر للبحتريّ سبيل قوة انتساب الفضائل له شعرًا ، كما يسَّر هو للفضائل سبيل الانتساب إليه ، فكان لها أبًا ليس لها غيره أبًا.

والآخر : أنّه لا ينسب لأبي العلاء فضيلة يكونُ على انتسابها إليه خلافٌ بين أحدٍ من الناس إن صديقًا وإنْ عَدُوًا . فهو آخذٌ ما عليْهِ اتفق تارك ما فيه اختلف.وكل ما يذكر لأبي العلاء من جليل الفضائل وعظيمها هو ممَّا سلم به الناسُ كافة الصّديقُ والعدوّ .

وهذا الوجه ، وإن كان يصبُّ في حقيبة أبي العلاء ، فليس فيه ما يدفقُ في حقيبة فخر البحتري بإبداعه ؛ لأنّه لم يُضمن مدحه أبي العلاء افتخاره بِشاعريته.

والوجه الأوَّل هو الوجهُ الجامعُ بين المدح والفخر : مدحِ أبي الْعلاءِ ، وفخرِ البحتريّ بشاعريته . فأيُّ الوجهين أليق بسياق القول والقصد ؟

لو أنك استحضرت البيت الذي بعده:

مَا الْمرْءُ تُخبَرُ عنْ حقيقةِ سَرْوِهِ * كالْمرءِ تخْبَرُ سَرْوضه وتراه

لرأيت أن هذا البيت إلى أن فرقًا عظيما بين رجلين : الأول يخبرك مخبرٌ عن فضلِه ، والآخر أنت الذي تخبر سروه وتراه بعين رأسك وقلبك ، فأي الرجلين أمكن في الفضلِ عندك ؟

كأنه يقُول لك إن أبا العلاء هو الثّاني ، لا يجعلكم تعلم فضله من خبرٍ يأتيك ، بل هو الذي يجعل فضله هو المخبرُ عنه ، يجعلك تعلم من حالك معه أنه الفضلُ نفسه، فإذا رأيته رأيت الفضل.

ابو العلاء إذن لا يحتاج إلى غيره مخبرًا عن فضله ، هو الذي يجعل لسان حال فضله هو المخبر عنه. وكأنه يستحضر هنا طاعته لأمر الله سُبحانه وتعالى:(وأمَّا بنعمةِ ربّك فحدّث) (سورة والضحى)أي اجعل نعمة ربك عليك هي التي تتحدث عن نفسها ، ولا تكن أنت المخبرُ عنها بلسان مقالك. التحديثُ بالنعمة حقًّا هو أن تجعلها تتحدث هي عن نفسها. ومصدقُ هذا ما رواه الترمذي في كتاب(الأدب)من سننه بسنده حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِىُّ حَدَّثَنَا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ »..

وسياق القول في القصيدة منصرفٌ إلى مدح أبي العلاء . ومن ثم كان الوجه الثاني هو الأليق بالسياق، وإن كان الوجه الأول أغنى وأملأُ.

أما بيت أبي تمام : **إذا أنا لم يحمدك عني صاغرًا عدوك ، فاعلم أنّي غير حامد**

فقد جاء في سياق قصيدته الدالية التي يمدح بها أبو الحسين محمد بن الهيثم بن شبانه. التي مطلعها :

قِفُوا جدِّدُوا مِن عَهدِكُمْ بالمعاهدِ * وإنْ هِيَ لَمْ تَسْمَعْ لِنشدانِ ناشِدِ**

وهي في خمسين بيتًا . يجعل خاتمتها ثمانية أبيات في صفة شعره، واقتداره الإبداعيّ .يقُول:

سأجهد حتى أبلغ الشعر شأوه ** وإن كان لي طوعاً ولست بجاهد

فإن أنا لم يحمدْك عني صاغراً ** عدوك فاعلم أنني غير حامد

بسياحة تنساق من غير سائق وتنقاد في الآفاق من غير قائد**

جلاق تخطوها الليالي وإنْ بدت ** لها موضحات في رؤوس الجلامد

إذا شردت سلت سخيمة شانئ ** وردّت عزوباً من قلوب شوارد

أفادت صديقا من عدو وغادرت ** أقارب دنيا من رجال أبـاعد

مجنبة ما إن تزال ترى لـــها ** إلى كل أفق وافـداً غير وافد

ومحلقة لما ترد أذْن ســامع ** فتصدر إلا عن يميـن وشـــاهد

(شرح ديوان أبي تمام للأعلم الشنتمري (ج:١ص٥٠٥-٥٠٦) تح: ابراهيم نادن- المغرب ط(١) ١٤٢٥هـ

فأنت تبصر جليا أن سياق القولِ في هذه الخاتمة إنما هو في تصور شاعريته الفائقة ، وهذا يجعل قوله: « إذا انا لم يحمدك ... » البيت مخرجه أنّه بهذه الشاعرية يرغم الأعداء على أن يسلموا لك ما هو قائم فيك، فأنت تنزع عنهم قدرتهم على معاداتك ومحاربتك بأسلحتهم، فيخضعوا لك ،وأنا أجعلهم بشاعريتي يسلموا لك بأنك أنت أنت، وانت إذا ما حباك الله بسلطان السيف فتخضع لك الرقاب، فإنّ الله تعالى قد حباني بسلطان الشعر أخضع به قلوب أعدائك فتسلم لك بالحق القائم فيك، فلا تملك ألسنتهم إلا أن تصدح بحمدك.

هذا هو مخرج القول في بيت أبي تمام . زهو كما ترى غير مخرج بيت البحتري الذي اقتضاه السياقُ. وحديثُ ابي تمام عن شعره هو الشعرُ ،،وقد لفت عبد القاهر في الدلائل .ط:« شاكر»(ص ٥١١-٥١٨) إلى شيءٍ من حديثِ الشعراء عن شعرهم وصنعتهم فيه ومنهم أبو تمام والبحتري. وحديثهما عن ذلكم

ومثلُه قولُهم: "إنما هو أسَدٌ"، و "إنّما هو نار"، و "إنّما هو سيف صارمٌ"، إذا أدخلوا "إنّما" جعلوا ذلك في حُكْم الظاهرِ المعلومِ الذي لا يُنْكَرولا يدفع ولايخفى(١)

****

[ما يَكُونُ لَهُ الخبرُ بالنّفي والاستثناءِ المفرغِ]

٣٩٢ - وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون للمر يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه.

فإذا قلتَ: "ما هو إلاَّ مُصيبٌ" أو: "ما هو إلا مخطئ"، قلتَه لمن يدفَعُ أن يكونَ الأمْرُ على ما قلت، وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيدٍ فقلتَ: "ما هو إلا زيدٌ"، لم تَقُلْه إلاَّ وصاحِبُك يَتوهَّم أنه ليس بزيدٍ، وأنه إنسانٌ آخرُ، ويجدُّ في الإنكارِ أن يكون "زيدًا".(٢)

حريّ بأنْ يفرد بدراسة تكشف عمَّا يراه كل من الطائين هو الأحقُّ بأن يفتخر شعرٌ بأنه فيه قائم . فذلك مسلك من مسالك النقد جد لطيف وطريف.

(١) كأنّه يشير إلى أن مقتضى السُّنة البيانية في الوصف والثناء الادعاء بأنّ ما يصفون به ، ويثنون ، إنّما هو أمرٌ مقرَّرٌ ، وما ههم إلا مذكّرون بما هو قائمٌ ، وليسُوا بالمدّعين ما ليس بقائم، وكأنَّهم يعودون بالائمة على النَّاس أنَّهم من كثرة إِلْفِهِم تلك الصفات في الموصوفين غفلوا عنها، وهي القائمة بيينهم ، بلْ والقائمون فيها ، فإذا ما ذكرها الشعراء لمن يصفون أو يثنون عليهم ، فإنما يذكرون ما هو تليد قائم .

(١) هذا بيان للمقام الذي يقُوم فيه الاستثناء المفرغ، فهو آنس بالسياق الذي تكون فيه المعاني مما تجهل أو تعلم وتنكر، إما لفرادتها أو غرابتها أو لأمر آخر قائم فيها. أو لأمر قائمٍ في المخاطب بها، وحين يكون لأمر قائمٍ في المخاطب المعنى ، وليس لأمر في المعنى ، فهذا يجري على سنن التنزيل . أي أن المعنى حقه التسليم بهِ ، بيْد أنّ أمرًا عرض للمخاطب ، فجعله يتخذ موقِفًا من هذا المعنى الذي حقه أن يسلم ، فجعل رعاية حقّ المخاطب تحملُ على أن يأتي المعنى مقصُورًا بطريق النفي والإثبات: (الاستثناء المفرغ)

وإذا كان الأمرُ ظاهراً كالذي مضَى، لم تَقُلْه كذلك، فلا تقول للرجل ترققه على أخيهِ وتُنَبِّهُهُ للذي يَجب عليه منْ صِلة الرَّحِم ومنْ حُسْن التحابِّ : "ما هُوَ إلاَّ أخوك" (١) وكذلك لا يَصْلُح في "إنما أنتَ والدٌ": "ما أنتَ إلاَّ والدٌ"، (٢)

فأما نحوُ: "إنما مصعبٌ شهابٌ"، فيَصلُحُ فيه أن تقولَ: "ما مصعبٌ إلاَّ شهابٌ"، لأنَّه ليس من المعلومِ على الصحَّة، وإنما ادَّعى الشاعرُ فيه أنَّه كذلك، وإذا كانَ هذا هكذا، جاز أن تقول بالنفي والإثباتِ، إلاَّ أنك تُخْرِجُ المدحَ حينئذٍ عن أن يكونَ على حَدِّ المبالغةِ، من حيثُ لا تكونُ قد ادَّعيتَ فيه أنه معلوم، وأنه بحيث لا يُنْكِره مُنْكِرٌ، ولا يُخَالِفُ فيه مُخالِفٌ. (٣)

******

---

(٢) لأن اتخاذك طريق (ما ،وإلا) حينئذٍ كأن فيه اعتذارًا له عن تقصيره، والمقام مقام ملامة، وتأنيب على أنه لم يرع للأخوة التي هو بها عليم ومسلم حقها ، لا مقام بحثٍ عن أعذار لمن قصّر، فيكون البيان حينئذٍ مما لا يأنسِ به المقام ، وذلك جد قبيح .

(١) لو قال له" : ما أنت إلا والد "لدل هذا على أنّ عفو " كافور "عن مولاه ، وربيب نعمته" ابن الإخشيد "أمرٌ ليس مستحقًا باقتضاء الأبوة , وليس مسلمًا بمقتضى الأبوة ، وهذا لا يتواءم مع سياق القول الذي هو معقود لتوطيد أواصر الودّ والمصالحة بين" كافور "ومولاه" ابن الأخشيد "لِما وقع من "ابن الأخشيد "من عقوق في حقِّ سيّده" كافور "، كما مضت الإشارةُ إليه.

(2) في مقال عبد القاهر مراجعة : لو قيل : "ما مصعبٌ إلّا شهابٌ" لكان هذا مغسولًا من الشعر، ولما كان جديرًا بأن ينسب إلى ابن قيس الرقيات ، وما كان جديرًا أن يمدح به" مصعب" ،ولدفعُ الشاعر عن أنْ يكونَ قد أتى المعنى من الجهةِ التي هي أصحّ لتأديته ، وهذا من العقوق الذي لا تحمد عقباه ، وهو ما ينفر منه كلُّ شاعرٍ ،فكيف بابن قيس الرقيات . ليس كل ما جاز نحوًا جاز شعرًا، فإن للشعر استحقاقات فوق ما يسترضيه النحو، فكم من هو مسترضى نحوًا هو مستقبح بلاغةً. العقل النّحويّ إلى الصحة، والعقل البلاغّ العربيّ إلى الجمال ،والله تعالى جميلٌ يُحب الجمال.

[من مقتضيات القصر بالاستثناء المفرغ دون إنما]

٣٩٣ - قولهُ تعالى: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[إبراهيم: ١٠] إنما جاء - والله أعلم - "بإنْ" و"إلاَّ" دونَ "إنَّما"،فلم يَقُلْ: "إنما أنتُم بشرٌ مثلُنا"، لأنهم جعلوا الرسلَ كأنهم بادِّعائهم النبوَّة قد أَخرجوا أنفُسَهم عن أن يكونوا بَشَراً مثلَهم، وادَّعوا أمْراً لا يجوزُ أنْ يكَون لِمَنْ هو بشرٌ.

ولمَّا كان الأمرُ كذلك، أُخرجَ اللفظُ مُخرَجَهُ حيثُ يُرادُ إثباتُ أمرٍ يدفَعُه المخاطَبُ ويدَّعي خلافَه،(١)

ثم جاء الجوابُ منَ الرسُل الذي هو قولُه تعالى:﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[إبراهيم: ١١]، كذلك "بإن" و"إلا" دون "إنَّما"، لأنَّ مِنْ حُكْمِ مَنْ ادَّعى عليه

---

(1)قال تعالى :) **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (إبراهيم :١٠)**

جاءت الآية في سورة" إبراهيم فِي سياق المحاجة والمجادلة التي كانت من الذين كفروا ومن أرسِلَ إليهم. والمحاجة بُنيت من قبل الذين كفروا على أن رسل الله لا يكونون بشرًا، ومن زعم أنَّه رسول من الله فكأنما زعم أنّه ليس ببشر. وهذا المقدمة باطلة بمنطق العقل ومنطق الواقعِ المشهود . هم لا يمكن أن ينكروا أن الله أرسل رسلاً ، وكان أولئك بشرًا ، ومن ثم تنتقضُ المقدمة التي بني عليه الحجاج .

وهم بنوا على التسليم بالمقدمة أنّ الرسل ينكرون بشريتهم ، ومن ثم جاء القصر بطريقِ النفي والاستثناء، تنزيلاً للرسل منزلة من ينكر أنه بشر. فقالوا : (إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا...)

الذين كفروا كانوا في استعمالهم "إن، وإلاّ" نازلين على مقتضى زعمهم أنّ من يدّعي الرسالة منكرٌ لبشريته، ومن كان كذلك كان حقّه أن يكون الطريق هو النّفي والاستثناء ، وذلك ما كان. فمناط الرد عليهم ليس في استعمالهم "النفي"و"الاستثناء" ولكن فيما اقتضاه ، وهو دعوى أن من يدعي الرسالة ينكر البشرية، فهذه منهم هي محل الردّ والمدافعة .

خصْمُه الخلافَ في أمرٍ هو لا يُخالِفُ فيه ، أن يُعيد كلامَ الخصْمِ على وجه، ويجيءَ به على هيئتِه ويَحْكيه كما هو. فإذا قلتَ للرجلِ: "أنتَ مِنْ شأنِكَ كيتَ وكيتَ"، قال: "نَعَمْ، أنا مَنْ شأني كيتَ وكيتَ، ولكنْ لا ضَيْرَ عَلَيَّ، ولا يلزَمُني مِنْ أجْلِ ذلك ما ظنَنْتُ أنه يلزَمُ" فالرُّسُلُ صلواتُ اللهُ عليهم كأنهم قالوا: "إنَّ ما قُلْتُم مِنْ أَنَّا بشرٌ مثْلُكم كما قلتم، لَسْنا نُنْكِر ذلك ولا نَجْهَلُه، ولكنَّ ذلك لا يَمْنعُنا مِنْ أن يكونَ اللهُ تعالى قَدْ منَّ علينا وأكْرَمنا بالرسالة. (١)
وأمَّا قولُه تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [الكهف: ١١٠]، [فصلت: ٦]، فجاء "بإنما"،

) ١)ظاهر النظر أنّ الرسل لما كانوا يقرون ببشريتهم ، وأنَّ ذلك أمرٌ مسلمٌ عندهم أن يكون بيانهم عن هذه الحقيقة باستعمال (إنما) وليس "النفي" و"الاستثناء" بيد أن الذي كان من الرسل أنهم لم يناقشُوا في المقدمة التي أدعاها الذين كفروا: أنَّهم بشر مِثلهم. فمثل هذا لا يناقشُ فيه ؛ لأنَّ الواقع يوثقه ويقرره عيانًا. ومن ثم أعادوا عبارة الذين كفروا فيهم بنصّها: (إنْ نحنُ إلا بشَرٌ مثْلُكُم) ليبنوا عليها عكس ما بني الذين كفروا عليها ، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنّ في عقول الذين كفروا دغلاً أو خلالا ، فهم يتوهمون ما ليس بأهلٍ لأن يتوهم .توهموا أنّ الرسل يدعون أنهم ليسُوا ببشر.
وهم يبنون على الأمور ما لا يستقيم أن يُبنى عليها ، وهذا من فساد العقول ، ومن أنكى ما يواجه به المرء خصمه في الحجاج أن يطعنه في قواه العقلية ، وأن يقرر عليه أن في عقله من الفساد ما يستقيم له أن ينظر به ، وكأنه يباعد بهذا بينهم وبين اهل النظر الأذين هم أهل للمحاجة .
فكان لزامًا أن ينزل الرسل في ردهم عليهم على ما كان من أولئك الذين كفروا ليجعلوا مناط المنازعة ليس البشرية ، بل مناط المنازعة أن يكونوا مرسلين . ولذا قالوا : (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إلا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (ابراهيم:١١)
فكشفُوا لهم عن مناط الفرقِ بينهم ، وبين غيرهم من البشر ، إنّّه الفضلُ الإلهي، وليس أمرًا يرجع إليهم أنفسِهم . ولذا لم يقُولوا لهم إن الله من علينا ، بل قرروا الحقيقة الكلية : (يمنُّ عَلَى مَنْ يشاءُ) والذين كفروا لن يستطيعوا أن ينكروا أن الله سبحانه وتعالى مَنّ على بعضِ البشر بالرّسالة . وهكذا سلك الرسل مسلكًا لطيفًا في نقضِ مزاعمِ الذين كفروا، وكشفوا لهم أنّهم متناقضُون في نظرهم مع الواقع الذي لا يمكن أن يدفعوه ، وفي هذا طعنٌ لهم في حركةِ عقولهم، فالعقلُ الذي لا يكتشفُ تناقضَ حركته مع حركةِ الواقعِ هو عقلٌ فيه دغلٌ ، لايؤمنُ معه. وليس أنكى من أن يطعن المجادلُ خصمه في عقلِه.

لأنَّه ابتداءُ كلام قد أمِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأنْ يُبلِّغه إيَّاهُم ويقولَه معَهم، وليس هو جواباً لكلامٍ سابقٍ قد قِيلَ فيه: "إنْ أنْتَ إلاَّ بشرٌ مثلُنا"، فيجبُ أنْ يُؤْتى به على وفْقِ ذلك الكلامِ، ويُراعَى فيه حَذْوُه، كما كانَ ذلك في الآيةِ الأولى. (١)

٣٩٤ - وجملةُ الأمرِ أنك متى رأيتَ شيئاً هُوَ مِن المَعْلوم الذي لا يُشَكُّ فيه قد جاء بالنَّفي، فذلك لتقديرِ معنًى صارَ به في حُكْم المشكوكِ فيه(٢)

فمِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِير﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣]

) قال تعالى في سورة الكهف :

)قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:١١٠)

وقال في سُورة(فصلت) : ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) (فصلت:٦)

عبد القاهر يُبين عن وجه استعمال (إنما) هنا، دون(النفي) و(الاستثناء) أن آيتي (الكهف) و(فصلت) لم يكونا في سياق محاجة ومدافعة تقتضي إنزال الكلام على نسق كلام الخصم، ليتمكن من دفعه ونقضِه، فهو هنا يعلمنا أصلاً من أصول المحاجّة، **وفي الوقت نفسِه يعلمنَا البصرَ بالسياقِ الذي يكون عليه البيان ، وما يقتضِيه السياق ، فالتشابه في أصل الخبر لا يلزم منه سلوك طريقٍ واحد، فثم ما يقتضي لكلٍ غير ما يقتضيه للآخر.**

) ١)هذه قاعدة كلية، تهدِي إلى أن ينظر المرءُ نظرتين :

الأولى) إلى المعنى الذي تحمله الصورة التركيبية : أهو من المعاني التي من شأنها أن تكون معلومة ، وغير منكورة أم غير ذلك.

والأخرى (الصورة التي جاء عليها التخصيص أهي بالنفي والاستثناء أم غيره

إن يكن المعنى معلوما غير منكور في نفسِه، وجاء تخصيصه بطريقِ النفي والاستثناء ، فإن المقتضي الدّلالة على التخصيص بالنفي والاستثناء حينئذٍ تقديرُ أمرٍ يجعل هذا المعنَى المعلوم غير المنكور في نفسه في منزلة المجهول أو المنكور، فينزّل البيان على وفق هذا المقتضَي . لا على وفق ما عليه المعنى في ذاتِه. ذلك أنَّ البلاغة ربيبة الاقتضاء والسياق .

إنما جاء - واللهُ أعلم - بالنفي والإثبات، لأنه لمَّا قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، وكان المعنى في ذلك أن يقال للنبي صَلى الله عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم "إنك لن تستطيعَ أن تُحوِّل قلوبَهُم عمَّا هي عليه من الإباء، ولا تملِكُ أن تُوقِعَ الإيمانَ في نفوسِهم، مع إصرارِهم على كُفرهم، واستمرارِهم على جَهْلِهم، وصدِّهم بأسْماعِهم عما تقوله لهم وتتوله عليه" كان اللائقُ بهذا (١) أن يُجعَل حالُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حالَ مَنْ قد ظَنَّ أنه يملكُ ذلكَ، ومَنْ لا يَعْلَمُ يقينًا أنه ليس ي وُسْعه شيءٌ أكثرُ من أن يُنْذِر ويُحَذِّر، فأَخْرَجَ اللفظَ مُخْرَجَه إذا كان الخطابُ مع مَنْ يَشُكُّ، فقيل: "إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ". (٢)

---

(٢) قول عبد القاهرِ ه: " كان اللائق بهذا هو جواب الشرط :لــ"لما" قال الله تعالى : (وما أنت بمسمع من في القبور(

1) قَوله تعالـى: (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)) (فاطر:١٨-٢٦)

أوردت عليك السباق واللحاق لقوله تعالى)إنْ أنتَ إلا نذير (وهي التي لم يخاطب بها النبيّ صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم كله إلا في هذا الموضع ، وذلك لتستعين بمراجعة هذا السباق والحاق على حسن البصر بحركة المعنى في هذه الآية التي تعدّمن فرائد القرآن في نظمها ، حتّى لا يكون منك ما لا يليق أن يقال في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم .فالله تعالى قد نهانا قائلا) لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)) .... النور(63:

سباق الآية هادٍ إلى أنّ الناس ليسوا سواء، كما أن الأشياء في الكون ليست سواء، وأبان السباق لرسُوله صلى الله عليه وسلم أن إنذاره الذي بلغ في القيام به لمن كلف إبلاغه إليه درجة الكمال لن ينتفع به ، ويستجيب له إلا من كان قلبه مهيئًا لن ينظر ويتأمّل فيما يقال له ، لمن كان قلبه أرضًا نقيّة خصبة

،وليست قيعان لا تنتفع بغيثٍ ، ولا تمسكه، فينتفع به غيرها V إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

ليس في هذا السياق ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دق في قلبه يقين بأن إنذاره ينتفع به كل الناس ، كما الغيث تنبت به كل أرض ؟ ومن كان كذلك لا يمكن أن يشك في أنه غير قادر على هداية الناس جميعًا ، وأنه ليس إليه ذلك . من ذا الذي فيها ، وقد أنزل عليه هذا السياق ، قبل أن ينزل عليه :) وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)

وقد أنزل عليه بعدها) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

والبيان في قوله تعالى V مَنْ فِي الْقُبُورِ) يراد به الذين صمت آذانهم وطبع على قلوبهم فلا ينظرون فيما يقال لهم فهم لعدم انتفاعهم بما يقال لهم : لهم موتى فهذا من قبيل الاستعارة ، صورهم في حالهم هذه بحال الموتى في قبورهم ، لا ينتفعون بالنصح والموعظة وفي هذا تأكيد أن كل جهد يبذل معهم في النصح جهد غير مجد فحق للمرء أن يشفق على نفسه ، وألا يحملها جهدًا في عمل لن يكون منه نفع ، لا من جهته هو بل من جهة من يوجه إليه ذلك الجهد.

وتأويل عبد القاهر فيه يحسن التنبيه عليه .

كان حريًّا بعبد القاهر أن يلتفت إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليكف عن دعوة أولئك الذين طبع على قلوبهم من أجل شفقته على نفسه أن يكون منه تقصير فهو يعذر إلى نفسه وإليهم ، وهذا مما يحمد له فهو الرؤوف الرحيم بأمته صلى الله عليه وسلم فهو لم يكن يقنط ولا يظن أنه يملك أن يحول قلوبهم عما هي عليه من الإباء ، ولا يملك قط أن يوقع الإيمان في نفوسهم مع إصرارهم على كفرهم واستمرارهم على جهلهم وصدهم بأسماعهم عما يقال لهم ويتلى عليهم . لا . لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ؛ لأن هذا ليس مقدوره ، وما يملك من ذلك ، ولكنه كان يستفرغ جهده في أداء ما عليه من التبليغ ، وهو أيضًا يعذر إليهم . ومن ثم قيل إنه كان على يقين أنه ليس في وسعه شيء أكثر من أن ينذر ويحذر

ويُبيِّنُ ذلك أنَّك تقولُ للرجل يُطِيلُ مُناظَرةَ الجاهلِ ومقاولَتَهُ: "إنَّك لا تَستطيعُ أنْ تُسْمِعَ الميّتَ، وأنْ تُفْهِمَ الجمادَ، وأن تحوِّلَ الأعمى بصيرًا، وليس بيدك إيلا تُبَيِّنَ وتحتجَّ، ولستَ تملكُ أكثرَ من ذلك" لا تقول ههنا: "فإنَّما الذي بيدِك أنْ تُبَيِّنَ وتحتجَّ"، ذلك لأنك لم تَقُلْ له "إنك لا تستطيع أنْ تُسمِعَ الميتَ"، حتى جعلته بماثبة مَنْ يَظُنُّ أنه يملك وراءَ الاحتجاجِ والبيانِ شيئاً. وهذا واضحٌ، فاعرفْه. (1)

ومثلُ هذا في أنَّ الذي تقدَّم منَ الكلام اقتضى أن يكونَ اللفظُ كالذي تَراه، من كَوْنه

مجمل الأمر أن قوله تعالى) إن أنت إلا نذير) جاء للبيان والتنبيه في إشفاق على نفسه من أن يكون ليس بشيء من التقصير في التبليغ فإن الله بصير، ولبيان مزيد إشفاقه صلى الله عليه وسلم عليهم وهم أعداؤه ومناوئوه وشانئوه، وبرغم من ذلك هو الذي يحمل على نفسه فوق ما يحتمله، أي نبي هذا الذي أكرمه الله تعالى به!! إن يكن هذا حاله مع أعدائه وشانئيه، ومعانيه فكيف به مع أحبته. ما أعظمه! صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا .

(1) (إن ما يصح الذي قاله عبد القاهر في شأن غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو بمنزلة من يمكن أن يقوم في قلبه ذلك، أمّا النبي صلى الله عليه وسلم فعلم به ربه سبحانه وتعالى وعلم محله وهو نبيًا رسولا وقدرته حجازان يعان من أن يظن في نفسه ذلك، وما يكون منه هو إبلاغ في التبليغ وتحمل ألم الأذى الذي يستقي من جهده أشياء في إبلاغ رسالة ربه سبحانه وتعالى، وأشياء منها حال الآخرين من العناد والمعاداة والملاحاة عن ما يقام عليها.

فقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم) : إن أنتَ إلا نذير (ليس من باب قولك لصاحبك الذي يجادلك في المحاجة والإقناع: إن أنت إلا مبين "التخالف الحالين:

قولك لصاحبك قد يكون مشوبًا بالإنكار، والتنبيه على الخطإ أو الضلال في المسلك.

أما قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم) : إن أنت إلا نذير (فهو من باب الإشفاق عليه، وتطمينه أنه قد بلغ الكمال في أداء ما عليه من التبليغ

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) ((الكهف: 6)

(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) (الشعراء: 3 - 4)

"بإنْ" و "إلا"، قولُه تعالى: ﴿قُلْ لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨]. (١)

---

(١) جاء من قبل هذا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187]. هذا السياق يبين عن مجال المنازعة التي كانت بين المناوئين للرسول صلى الله عليه وسلم، فهم يسألون عن مرساها كأنه حفي عنها، يجهل أمر وقوعها فكان لزامًا أن يأمره الله تعالى أن يخبرهم بالحقيقة: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أورده في إثر الثالث جملة تقرر وتؤكد. ولذا أوردها مفصولة. لأنها تتوارد على حقيقة واحدة ثم كرر الأمر ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾

وهذا يترتب عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس له من الأمر شيء فهو لا يملك لنفسه شيئًا إلا أن يشاء الله، وهذا اقتضى أن يقطع من صدور أولئك أن يكون له من ذلك الذي يجادلون فيه ويسألونه عنه أي شيء فقال: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما اقتضاه حالهم من المساءلة والمجادلة في هذا الأمر فلما كان حالهم يشي بأنهم لا يوقنون بأن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعدو الإنذار والتبشير، سعى البيان إلى انتزاع ذلك من قلوبهم وفيه أيضًا تشكيك فيهم من أن موقفهم فيه ظن أن يكون أمر الساعة لأحد غير الله سبحانه وتعالى فبظاهر حال المعنى في هذا السياق كان يقتضي أن يأتي البيان بإنما، ولكن البيان نظر إلى حال المخاطبين، وهو حال غير متساوق مع حال المعنى فنزل البيان على مقتضى حال المخاطبين فجاء القصر بالنفي والاستثناء.

وكان من كمال الإبلاغ أن قال **﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** في قوله تعالى: **﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** فيه دلالة أنهم لن ينتفعوا بهذا الذي يقوم به من الإنذار والتبشير إذا لم تكن قلوبهم مهيئة لأن تنظر في حقيقة قوله لهم ويتبصروا أمره فمن لم يطهر قلبه من داء الاستكبار والرغبة في المعاندة والملاحاة فلن ينفعه إنذار وتبشير.

وفي هذا تربية للأمة أنه لا ينتفع بالعلم والهدى إذا ما أقبلت عليه القلوب وفيها ما يحادزها من الانتفاع بهذا العلم والهدى، ومن أشد العوائق عن الانتفاع أن يتخذ المرء موقفًا من قوم بتعليمه وهدايته، إنها دعوة لنا أن نقبل على العلم والهدى بقلوب مجردة من اتخاذ المواقف المعاندة للحق، بل عليها أن تتلقى وتنظر في موضوعية وتجرّد، وهذا يعينها على إنشاء الصلة بالله تعالى، ويعينه على أن يبصر الحق فيكون لها أن تستمسك به عن يقين.

[فصل: هذا بيان آخر في "إنما"]

ما تفيده «إنّمــا»

٣٩٥ - اعْلَمْ أنها تفيدُ في الكلام بَعْدَها إيجابَ الفعلِ لشيءٍ، ونَفْيَه عن غيرِه. فإذا قلْتَ: "إنما جاءني زيدٌ"، عُقِلَ منه أنكَ أرَدْتَ أن تنفي أن يكون الجاني غيرَه. (١)

فمعنى الكلامِ معَها **شبيهٌ بالمعنى** في قولك: "جاءني زيدٌ لا عمرو"، إلا أنَّ لَهَا مزيَّةً

(1) قرر العلماء لـ"إنما" أمرين:

الأول: أنها تفيد شيئين: إيجاب، ونفي، إيجاب ما هو منطوق به، ونفي غيره. وغير خفي أن إدراك الموجب أقرب لأنه سبيل التصريح فهو من دلالة المنطوق. وإدراك النفي دونه لأنه سبيل التلويح فهو دلالة المفهوم ولهذا وقعت المنازعة من بعض أهل العلم في دلالتها على النفي، وهذا يقتضي أن يجعل استصحاب التصريح بالنفي في بعض السياقات أمرًا ممكنًا كما تراه في قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (التوبة: 91 - 93)

والآخر: أنه يعقل منها أنك تنفي الأمر عن غيره من غير تصريح به.

قوله (عقل) فيه إشارة إلى أن الدلالة عليه من قبيل دلالة المعنى على المعنى، وليس من قبيل دلالة الكلام على المعنى فـ"إنما" لها معنى، ومعنى المعنى: المعنى هو الموجب، ومعنى المعنى هو النفي، وحضور معنى المعنى إلى القلب صاحب حضور المعنى من اللفظ إلى القلب، سواءً بسواء.

وهي أنَّك تَعْقِلُ معها إيجابَ الفعلِ لشيءٍ ونفْيَه عن غيرِه دفعةً واحدةً في حالٍ واحدةٍ. وليس كذلك الأمرُ في: "جاءني زيد لا عمرو"، فإنَّك تَعْقلُهما في حالين ومزيةً ثانية، وهي أنها تَجْعلُ الأمرَ ظاهراً في أن الجاني "زيدٌ"، ولا يكونُ هذا الظهورُ إذا جعلتَ الكلامَ "بلا" فقلتَ: "جاءني زيدٌ لا عمرُو".(1)

---

(1) قوله "شبيه بالمعنى" دلالة على أن "إنما" و (لا) ليسا سواء، وإن تقاربا فالمعنيان مما مفترق يجعل لكل أي منهما سبقا ما قد لا تأسس به الأخرى فالترادف بينهما استعمالا، ومقاما ودلالة. وهذا ما يجب على البليغ والبلاغي أن يتمثله وفاء بكمال حسن فهمه.

ولهذا أبان عبد القاهر عما بينهما من تمايز:

تمتاز (إنما) عن "لا" بمزيتين رئيستين:

الأولى: تتمثل في وجازة عبارتها واتساع مدلولها فهي من قبيل إيجاز القصر. إنها في إفادتها الإيجاب والنفي تفيدهما جملة واحدة وحال واحدة فهما يتواردان على قلب المتلقي في حال كما أشرت إليه من قبل، ولهذا كانت "إنما" أدخل في القصر الاصطلاحي. إنه مبني على إفادة معنى جملتين متقابلتين إثباتا ونفيا ببنية جملة واحدة، وهذا من الإيجاز الذي هو من عمد البلاغة. **وهذه المزية قد شاركها فيها أداتا النفي والاستثناء عند عبد القاهر**.

والأخرى: ظهور دلالتها على الموجب الذي هو رأس القصد فهي تؤتي بها حين يكون مبتدأ الأمر أن المتلقي يعرف الفاعل من معين ينفيه معه من هذا التعيين في عقله. وهذا يأتيك من تصدر (إنما) فهي أول ما يلي المسمع ويلوح، و(إن) رأس في توكيد نسبة الخبر للمخبر عنه فإذا ما سمعت الأذن (إن) أدرك القلب وكادة الخبر للمخبر عنه وفي هذا من الإفضاء بصدر القول عن الغرض. وهو من بديع الإبانة. وقد مدحت العلماء البيان الذي يسلك ذلك السبيل في الإبانة. **أمّا "لا"** فإنها لا تمتاز بشيء من هاتين المزيتين

(لا) تدل على المعنيين فيه: الإيجاب والنفي في حالين متتاليين: الإثبات أولا ثم النفي، وهما على درجة سواء في التصريح بهما. وهذا الذي حقق لها مزية إيجاز القصر. مما يباعد بينها وبين طبيعة القصر الاصطلاحي الذي تبينته لك من قبل.

◆◆◆◆◆

[القصر بـ(لا) العاطفة قصر قلب](١)

٣٩٦ - ثم اعلمْ أنَّ قولَنا في "لا" العاطفةِ: "إنها تنفي عن الثاني ما وَجَب للأولِ"، ليس المرادُ به أنها تنفي عن الثاني أنْ يكون **قد شاركَ الأوَّلَ في الفعل**، بل أنها تنفي أن يكونَ الفعلُ الذي قلتَ إنه كانَ من الأول، **قد كان مِن الثاني دونَ الأول**.

ألاَ تَرى أنْ ليس المعنى في قولك: "جاءني زيدٌ لا عمروٌ"، أنه لم يكُنْ مِن عمرو مجيءٌ إليك مثلُ ما كانَ من "زيدٍ"، حتى كأنه عكسُ قولك: "جاءني زيدٌ وعمرو"، بل المعنى أنَّ الجائي هو زيدٌ لا عمرو، فهو كلامٌ تقولُه مع مَن يَغْلط في الفعل قد كانَ مِنْ هذا، فيتوَهَّم أنه كان من ذلك.

والنكتةُ أنه لا شُبْهةَ في أنْ ليس ههنا جائيان، وأنه ليس إلا جاءٍ واحدٌ.

وأمر آخر أن (لا) التي تدل ... مجرد صرف الحكم الأولى من جهة ما سمعته فهذا التوكيد الذي يأتيك إلا مع آخر الجملة وفرق بين ما يهيئك أو ما يلقاك، وما يهيئك على فراغ من التلقي.

(١) جعل البلاغيون العطف بـ"لا" و"لكن" و"بل" من طرق القصر وشرطوا لكل ... وعدوا هذا الطريق أقوى طرق القصر من أنه قد صرح فيه بالإثبات والنفي معًا بينا غيره من الطرق التي ذكروا في باب القصر، كان النفي فيه ضمنيًا: غير مصرح به.

وهذا الذي جعلوه علة قوته هو في الحقيقة علة ضعفه بلاغيًا، لأنه لا يوافق مزية "الإيجاز" ولطف الدلالة، وهما عمودان من أعمدة البلاغة، إذا لم يقتض المقام بسطًا أو جلاءً.

ولعلي أناقش ذلك – إن شاء الله تعالى – في كتابي ... في "اللاحق" أو في نهاية شرح مقولة عبد القاهر.

<u>وإنما الشبهةُ</u> في أنَّ ذلك الجائي زيدٌ أم عمرو، فأنتَ تُحقِّقُ على المخاطَب بقولِك: "جاءني زيدٌ لا عمرو"، أنه "زيدٌ" وليس بعمروٍ. (١)

<u>ونكتةٌ أخرى</u> : وهي أنك لا تقول: "جاءني زيدٌ لا عمرو"، حتى يكونَ قد بلغَ المخاطَبَ أنه كان مجيءٌ إليك من جاءٍ، إلاَّ أنه ظنَّ أنه كان مِنْ "عمروٍ"، فأعلَمْتَه أنه لم يكُن مِنْ "عمروٍ" ولكنْ من "زيد".(٢)

****

---

(١) يقرر عبد القاهر أن (لا) في بابها خاص تتعين عبارة وتصريحا، والتكون إلا حين تريد أن تقلب على المخاطب اعتقاده فهو قد اعتقد عكس الحقيقة، وليس بالذي اختلطت عليه الحقيقة بغيرها في خارج إلى فصل بإفراد، بل هو الذي جهل القضية أو أنكرها، فأنت في حاجة قوية إلى أن تقصيه عن معتقده هذا تنتزعه منه انتزاعًا، ولذلك عمد إلى أن تكون الدلالة على الموجب صريحة، وعلى المنفي صريح في التصريح به مقوة.

وهذا قريبٌ مما يأتي به القرآنُ الكريم حين يعدلُ عن استعمالِ أسلوب القصر بـ"النفي والاستثناء" أو"إنما" فيصرح بالجملة المثبتة، والجملة "المنفية" ويجعلهما سواء في سبيل الدّلالة ومستواها كما تراه في قوله:) يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ((البقرة: من الآية١٨٥)

المهم أن عبد القاهر يعين لكل مقام التي تقوم في "ال" والتقوم في غيره فهي أخص من (ما، وإلا)

(٢) يقرر عبد القاهر نوع المخاطب بـ)لا(لابد أن يكون مخاطبًا سبق إليه العلم بوقوع الخبر من أحد، وليس بالذي الا علم له فما هو بخالي الذهن عن الخبر خلوًّا تامًّا، محط جهالته من وقع منه المخبر به فيعتقد غير الحقيقة فتصحح حاله. إذن هو مخاطب تسبب أمرين أساسيين:

الأول أن له علمًا بوقوع المخبر به.

والآخر أنه أخطأ في العلم بمن وقع منه المخبر به فاعتقد عكس الحقيقة.

وحينئذ لا يكون القصر في استعمال)لا(هو الإنباء بوقوع المخبر به، لكن لأنه أمر معلوم للمخاطب، وإنما القصد إلى تصحيح اعتقاد المخاطب بالحقيقة .

كل ذلك يعين على قارئها تحرير المقام الذي تأسس به (ال) والعطية تحرير المقامات التي تتوارد فيها التراكيب وصون الجناية بين ما هو مكنون في تلك التراكيب من دقائق ولطائف، وطرائف المعاني بل هي مقدم عليها ؛ لأنه لا يكون حسن الاستنباط إلا من هذا .

["إنما" لقصر القلب كـ"لا" العاطفة]

٣٩٧ - وإذْ قد عرفتَ هذه المعاني في الكلام بـ " لا " العاطفةِ ، فاعلمْ أنها بجملتها قائمةٌ لك في الكلام بإنما فإذا قلتَ : إنّما جاءَني زيدٌ . لم يكن غرضُك أنْ تنفيَ أن يكونَ قد جاء مع زيدٍ غيرُه ، ولكن أن تنفيَ أن يكونَ المجيءُ الذي قلتَ إنه كانَ منه كان من عمرٍو . وكذلك تكونُ الشبهةُ مرتفعةً في أن ليس هاهنا جائيان وأن ليسَ إلاّ جاءٍ واحدٌ . وإنما تكونُ الشبهةُ في أنَّ ذلك الجائي زيدٌ أم عمرٌو . فإذا قلتَ : " إنما جاءني زيدٌ" . حتى يكونَ قد بَلَغ المخاطَبَ أن قدْ جاءَك جاءٍ ، ولكنَّه ظنَّ أنه عمرُو مثلاً ، فأعلمتَهُ أنَّه زيد . (١)

---

(1) هذا من عبد القاهر بيان لمقام "إنما" وأنها تأتي مع مخاطب عالم بالمخبر به ، وظن أنه قد كان من اثنين أو أكثر فأنت تصحح له علمه بأنه من واحد منهم فهو قد وقع في خلط ، وجمع بين صواب وخطإ . . وهذا يسبق مقام "إنما" تأسيسه . إنه لتأسيس المقام الذي تأسس به "لا" العاطفة . حين يكون المخاطب عالمًا بالمخبر به ، موقنًا أنه وقع من متعين عنده ، وهذا المتيقن عنده مخالف للحقيقة ومقابل لها فتقلب عليه اعتقاده فيكون النفي بـ"إنما" و"لا" العاطفة متعينًا مخصوصًا ، وليس عامًا ، وهو ما يسميه المتأخرون إضافي (أي إضافي إلى نفي متعين . إلا أن النفي التعييني) "لا" العاطفة منصوص عليه صراحة بينما النفي التعييني بـ"إنما" مفهوم من السياق ، وليس من جملة القصر . تلك مذهب عبد القاهر في ما تكون له "إنما"

فإنْ قلتَ : " فإنّه قد يصحُّ أن تقولَ : "إنَما جاءَني مِنْ بينِ القومِ زيدٌ وحدَه " و" إنما أتاني من جملتِهم عمرٌو فقط " . فإنّ ذلك شيْءٌ كالتَكلُّفِ والكلامُ هُوَ الأوَّل . ثُم الاعتبارُ به إذا أُطلِقَ فلم يقيَّد بـ " وحدَه " وما في معناه .

ومعلومٌ أنَّك إذا قلتَ : " إنما جاءَني زيدٌ" ولم تَزِد على ذلك أنه لا يَسْبِقُ إلى القلبِ من المعنى إلاّ ما قَدَّمنا شرحَه من أنَّك أردتَ النصَّ على زَيْدٍ أنه الجائي ، وأن تُبْطِلَ ظنَّ المخاطَب أنَّ المجيءَ لم يَكُنْ منه ، ولكن كان من عمرٍو حَسْبَ ما يكونُ إذا قلتَ : "جاءني زيدٌ لا عمرٌو"،فاعرفْه. (1)

***

---

(1) استشعر عبد القاهر أن في الذي قرره يمكن أن يعترض عليه فعرض هذا الاعتراضَ ونقده . أما الاعتراض فيتمثل في أنه يصح في البيان أن يقال : إنما جاء زيد وحده . وهذا لا يكون إلا لإفراد زيد بالمجيء ، ونفيه عن آخر.

ويُنقد بأنّ هذا إذا استصوبه النظم النحوي ، من حيث اللحن ، ولا تعقيد فإنه ليس من النظم البياني ، لما فيه من التكلّف ، ومن ثمّ لم يكن هو المعهود للعرب في الإبانة ، بل المعهود أن تأتي (إنما) حين يراد بها تقرير عكس معتقد المخاطب .

وأمر آخر أنّ الاعتبار فيما لم يكن في البيان شيء يفيد قصد الحصر فإذا ورد من نحو (وحده فقط) . ... **وهذا من عبد القاهر لم يأخذ به جمهور أهل العلم.**

****

[مراجعة نقدية]

لو أن بعض القراء ذهب إلى أن مجيء "إنما" لقصر القلب هو الغالب، وليس الواجب، ولأنه قد اتسع في سياق القصر الإفرادي لكان هذا من عند القارئ أقرب إلى الواقع اللغوي البليغ الكامن في الإبداع البشري، بل والواقع البياني المعجز: بيان الوحي قرآنا وسنة.

من هذا ما تراه في قوله سبحانه وتعالى: (**قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**) (طه:72) أيظن فرعون -عليه اللعنة- كان يعتقد أنه يقضي الحياة الآخرة وحدها دون الدنيا فقلب عليه المؤمنون بموسى عليه السلام -اعتقاده؟ كما هو شأن قصر القلب.

لذلك يقال: فرعون كان يعتقد أنه يقضي الحياة الدنيا والآخرة وأن عذابه لهم باق عليهم فأفردوا بـ(إنما) الحياة الدنيا فكأن مقولهم: إنما تقضي هذه الحياة الدنيا وحدها دون الحياة الآخرة.

ومن ذلك ما تراه فيما رواه البخاري في صحيحه من كتاب (الزكاة) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: وَجَدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم -شَاةً مَيِّتَةً أُعْطِيَتْهَا مَوْلاَةٌ لِمَيْمُونَةَ مِنَ الصَّدَقَةِ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم -: «هَلاَّ انْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا». قَالُوا: "إِنَّهَا مَيْتَةٌ". قَالَ: «إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا».

ألا ترى قوله (إنما حرم أكلها) خاطب به الصحابة المعتقدين اشتراك جلدها ولحمها وكل شيء فيها في الحرمة فأفرد المصطفى بـ(إنما) الأكل بالحرمة، وكأنه قال ما حرم منها إلا أكلها فأفرد أكلها بالحرمة، وأباح الانتفاع بغيره فهذا من قبيل قصر الإفراد بـ(إنما) ولا يقال البتة إن هذا من التكلف.

وروى البخاري في صحيحه من كتاب (الوضوء) بسنده عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِذَا أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ». قُلْتُ أُرْسِلُ كَلْبِي فَأَجِدُ مَعَهُ كَلْبًا آخَرَ، قَالَ «فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبٍ آخَرَ».

فقوله صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ، وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى كَلْبٍ آخَرَ» تفيد فيه (إنما) قصر الإفراد فعدي بن حاتم رضي الله عنه لم يكن معتقدًا أنه سمى على كلب غيره دون كلبه فقلب عليه النبي اعتقاده بأن التسمية خاصة بكلبه بل إن عديًا يعتقد أن التسمية تصلح لكلبه ولكلب غيره معا، ولذا كانت (إنما) في الإفراد.

ومن هذا ما رواه البخاري في كتاب (الصلاة) بسنده عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن بني عمرو بن عوف بقباء كان بينهم شيء، فخرج يصلح بينهم في أناس من أصحابه، فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحانت الصلاة، فجاء بلال إلى أبي بكر - رضي الله عنهما - فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد حبس وقد حانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت. فأقام بلال الصلاة، وتقدم أبو بكر - رضي الله عنه - فكبر للناس، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الصفوف يشقها شقًا، حتى قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيح. قال سهل: التصفيح هو التصفيق. قال: وكان أبو بكر - رضي الله عنه - لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليه يأمره أن يصلي، فرفع أبو بكر - رضي الله عنه - يده فحمد الله، ثم رجع القهقرى وراءه حتى قام في الصف، وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم بالتصفيح. إنما التصفيح للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل سبحان الله».

ثم التفت إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال: «يا أبا بكر، ما منعك أن تصلي للناس حين أشرت إليك». قال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم - .) أهـ

قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما التصفيح للنساء" [أي التصفيق] قصر إفراد: فأفرد النساء بالتصفيق؛ لأن الصحابة كانوا يعتقدون أن التنبيه في الصلاة بالتصفيق للرجال والنساء، فأفرده النبي صلى الله عليه وسلم للنساء، وكان الطريق (إنما) وبين لهم أن للرجال التسبيح، وللنساء التصفيق. وهذا واضح جدًا لكل ناظر.

ويمكن في غير البيان النبوي أن يقال: "التصفيق للنساء، لا للرجال" فيكون الإفراد بالطريق هو العطف بـ(لا) والفرق في هذا بيّن.

ومن هذا أيضًا ما رواه البخاري في كتاب (الجنائز) بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: مرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتقي الله واصبري». قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبيّ - صلى الله

عليه وسلم - فأتت باب النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال: « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ». (أ هـ)

قوله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ». لم يقله لمن كانت تعتقد أنه ليس الصبر عند الصدمة الأولى بل الأخرى فقط فقلب عليها اعتقادها كلاً. بل هي لما قالت: لم أعرفك، دلّ هذا على أنها ترى الصبر في كل حال فأفرده ? (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) على الصدمة الأولى، والمعنى أن الصبر الجميل الحميد هو الذي يقابل الصدمة الأولى، يحجزها عن أن تؤثر في النفس بما لا يليق بعبوديتها لخالقها، ومالكها سبحانه وتعالى.

وتراها في إفرادها في الكلمة الشاعرة. يقول البحتري:

ويوم تلاقينا في فراق شهدته * بعين إذا نهنهتها دمعت دما

لحقنا الفريق المستقل ضحى وقد * تيمم من قصد الحمى ما تيمما

فقلت: انعموا منا صباحاً وإنما * أردت بما قلت الغزال المنعما

ألا تراه قصره قصراً إفرادياً، مؤكدة أن المدعو ذلك الغزال المنعم، وأن ما سواه غير ناظر إليه عين البحتري المتيم، ولأنه لن يكون أحد يظن أن الشاعر قد أراد بدعائه من في الركب كلهم إلا الحبيبة الشاعر فما أراده البتة فقلب الشاعر عليه اعتقاده، بل المتبادر فيه أن يظن أنه أراد بدعائه الركب كله بما فيه الحبيب فأفرد الشّاعر الدعاء للغزال المنعم بـ (إنما)، ونفى أن يكون غيرها شاركها في هذا الدعاء.

ليس هذا فحسب، بل إن (إنما) تأتى كثيراً حين لا يكون مخاطب يعتقد شيئاً فتكون للإعلام بما لم يعلم.

لذلك تشرق في قوله تعالى: (**وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**) (فاطر: 28) ليس فيها مخاطب معين له اعتقاد معين. ومن ثم فإنه من القصر الحقيقي، وليس القصر الإفرادي الذي يكون فيه المنفي عنه الحكم معيناً. كما هو شأن القصر الإضافي الذي ينقسم إلى إفراد وقلب.

ومن هذا ما رواه أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم -: « **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ** ».

فهذا قرينة تبين للقصر الحقيقي الذي يستلزم مخاطب ذو اعتقاد يتعين به الحال ، وبمساعدة الواقع يتعين صحيح فهو إفراد أو قلبيًا .

ومن هذا ما رواه أبو داود في سننه من كتاب الصلاة بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : » **مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ** «.

إذا ما ذهبنا إلى أن الحديث موجه إلى مخاطب لديه علم واعتقاد معين فيما يخبر به ، فالقصر بـ (إنما) فيه ليس قصرًا إضافيًا بل هو قصر حقيقي ، التعيين فيه في كان قائمًا في اعتقاد المخاطب.

وبهذا يتبين لك أن ما ذهب إليه عبد القاهر من أن (إنما) لا تكون إلا للقصر القلب كمثل (لا) العاطفة أمر لم يسلم له أهل العلم ، ولم يسلم له الواقع التطبيقي البلاغي غير المعجز.

[نوعُ القصر بالنفي والاستثناء]

٣٩٨- وإذ قَدْ عرفتَ هذه الجملة، فإنّا نذكُر جملةً منَ القولِ في"ما"و"إلاّ" وما يكونُ من حكمِهما.(١)

اعلم أنَّك إذا قلتَ : " ما جاءني إلاّ زيدٌ" احتَمَلَ أمرين:

أحدُهما : أن تريدَ اختصاصَ "زيدٍ"بالمجيءِ وأن تنفيَه عمَّنْ عَداه. وأن يكون كلاماً تقولهُ لا لأنَّ بالمخاطَبِ حاجةً إلى أن يعْلَمَ أنَّ زيداً قد جاءَك ، ولكِنْ لأنَّ به حاجةً إلى أن يَعْلَمَ أنه لم يجئْ إليكَ غيرُه .

---

(1) وقد عقد عبد القاهر هذا المبحث ليبين نوع القصر الذي يكون له "النفي والاستثناء" وقد جعله على نوعين:

الأول القصر إفرادًا الذي يكون المخاطب ظانًا أن تشترك بين أمرين في أمر، وأنت تريد أن تخصه بواحد.

والآخر القصر قلبًا : كما في "إنما" و "إلا" على منهجه .

والذي يجب أن يكون على ذكر منه أن أسلوب القصرِ الذي قال إنه للقلب أو الإفراد إلا إذا كان هنالك مخاطب خاصّ ذو موقف متعين من الخبر ، ومن يثبت له الحكم ، وأنت ترد عليه ، فالرد عليه هو الذي يعين القصر إفرادًا أو نفيًا . وعلى ذلك فحيث لم يكن هنالك مخاطب خاص أو كان ، ولم يكن له علم من قبل بالخبر ، وأنت تخبره بمضمونه : المثبت والمنفي معا فلا يقال إن القصر إفراد أو قلب.

وعلى هذا يتبين لك أن عبد القاهر حين جعل قسمًا لـ"إنما" وقسمًا لـ"النفي والاستثناء" فهذا حين يكون هنالك مخاطب ، وله علم بالخبر ، ويتخذ منه موقف التسليم أو المنازعة والإنكار.

وهذا كما لا يخفى الذي يحيط بالمقامات التي تستعمل فيها إنما أو ما ، وإلا

<u>والثاني</u> : أن تريدَ الذي ذكرناهُ في " إنما " ويكونُ كلاماً تقولُه ليُعْلَمَ أن الجائي زيدٌ لا غيرُه . (1)

فمن ذلك قولُكَ للرجلِ يدَّعي أنك قلتَ قولاً ثم قلتَ خلافَه : " ما قُلتَ اليومَ إلاّ ما قلتَه أمسِ بعينِه "

---

(1) الاحتمال الأول هو ما يعرف بقصر الإفراد ، وهذا حين يكون المخاطب عالماً بالحكم ويرى أنّ المجيءَ كان من أكثرَ من واحد منهم زيد ، وأنت تردُّ اعتقاده هذا ، وتحصر المجيء في زيد وتنفيه عن غيره الذي يعتقد المخاطب مشاركته زيداً في الفعل.

والاحتمال الثاني هو ما يعرف بقصر القلب ، وهذا حين يكون المخاطب عالماً بالحكم ويرى أنّ المجيءَ كان من شخص آخر غير زيد ، وأنت تردُّ اعتقاده هذا ، وتقلب عليه اعتقاده فتحصر المجيء في زيد وتنفيه عن غير الذي يعتقد المخاطب أنه هو الذي جاء ، وليس بزيد.

وهناك احتمال ثالث لم يصرح به عبد القاهر ، وهو أن يكون المخاطب غير عالم بالحكم ، ومن ثم لا يتخذ منه موقفاً فأنت تريد أن تخبره بالحكم المثبت والمنفي معاً ، وهذا لا يقال إن القصر فيه للقلب أو الإفراد .

وهو في القرآن غير قليل ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:28) ليس ثمَّ مخاطب متعين ذو موقف من الخبر يراد الرد عليه بل الآية إلى الإخبار بأمر جليل . أن خشية الله اختص بها العلماء ، ومن ليس منهم ليس ممن يخشى الله تعالى وإن خافه ، والفرق جلي بين الخشية والخوف ، لا يخفى على مثلك ، والمرمى الأجلّ من الخبر الحث على طلب العلم الذي يزيد المرء عرفاناً بربه سبحانه فذلك العلم هو الذي يربي نعمة المهابة والمحبة المهابة من جلال الألوهية ، والمحبة من جمال الربوبية . العلم هو الذي يحقق للعبد نعمة الخشية من الله تعالى ، وإن لم يكن الذي يسلك الخوف نفسها . قد يصحب الخوف ألم ، أمّا الخشية فلذة هي الصحة ، وهذا من الجزاء العاجل للعالم فكيف بالجزاء الآجل ؟!!!

ويقولُ : " لم تَرَ زيداً وإنّما رأيتَ فلاناً" فتقولُ : " بل لم أرَ إلاّ زيداً " وعلى ذلك قوله تعالى :﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾(المائدة: ١١٧)

لأنّه ليس المعنى أنّي لم أَزِدْ على ما أمرتَني به شيئاً ، ولكنَّ المعنى أنّي لم أدعْ ما أمرتَني به أن أقولَه لهم وقلتُ خلافَه . (١)

---

(1) سياق الآية يبين على حركة المعنى في قوله تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ (المائدة: 116)

قوله: ﴿**أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ يبين عن أن المعنى ما قلت لهم هذا، بل قلت لهم ما أمرتني به، وليس هذا الذي زعموا فمناط النفي قوله "اتخذوني وأمي إلهين" والذي أمر به هو الذي صرح به في قوله: ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ (المائدة: 117)

فنفي عيسى - عليه السلام - بقوله: ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ يقلب على الذين حرفوا دينه ادعاءهم عليه، وهم المقصودون بالخطاب، وإن كان الخطاب المباشر لله تعالى، ولن يتوهم متوهم أن القصر قصر قلب لاعتقاد المخاطب المباشر تعالى الله عن ذلك، بل هو قلب دعوى المقصود الرئيس بالخطاب. وهم النصارى.

يقول الطيبي: " ومن القلب قوله تعالى: ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**﴾ أي ما قلتُ لهم أن اعبدوني، واتخذوني إلهًا بل كان قولي مقصورًا على ما أمرتَني به أن اعبدوا الله. والاستفهام في "أأنت" للتقرير؛ ليفيدَ "التعريض" كما في قولك: "آتيتَني فستعرِف" على إرادة المجاز في التعريض." أ.هـ (التبيان للطيبي: 125)

ومما ينبغي عليك أن تلتفت إلى أن هذا الذي حكاه القرآن إنما هو سيكون يوم القيامة، وهو لله تعالى يحكيه بصيغة الماضي، وكأنه يحكي لك أمرًا قد وقع، وفي هذا تعليم لك أن ما سيكون هو وما كان عند الله تعالى سواء من عزته وجلاله وهيبته، فليس ثمة ما يمنعه أن يكون كما قال، وفي هذا تمكين لليقين في فؤادك، وتحقيق اليقين في فؤاد المسلم مما يقيم في طمأنينة مما

ومثالُ ما جاء في الشعرِ من ذلك قولُه :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وجَارَاتُها * ما قَطَّرَ الفَارِسَ إلاّ أَنا

المعنى : أنا الذي قطَّر الفارسَ ، وليسَ المعنى على أنَّه يريدُ أن يَزْعُم أنَّه انفردَ بأنْ قطَّره وأنَّه لم يَشْرَكْه فيه غيرُه. (1)

***

يعد هذا من التحلي، وعلى المسلم أن يمارس حبه على أن ما يحب به التحلي عما يكون يوم القيامة على أنه كذلك.

وعظم ضعف هذه الأمة في زماننا هو تفشي التقليد في ما أخذ به من التحلي وعدمه. وأوسع مجالات الحياة التي تتم فيها التقاليد في زماننا هو التحلي في مجال الأرزاق. والسيما الأرزاق المادية من الدراهم والدنانير والعقارات ونحو ذلك.

ومن الدراسات التي تبين في الآيات ... دراسة (عدول البيان القرآني عن الإعراب عما يكون إلى الإعراب عنه أنه كذلك اقتضاء المقام والصورة، والأثر) ولعلك تقوم إلى ذلك فتجري دراسة تقارن في الآيات المكية وفي الآيات المدنية لتتبين ذلك مطابقة البيان لمقتضيات سياق النزول.

(1) يذهب عبد القاهر إلى أن الشاعر يرمي إلى إفراد نفسه بقتل هذا العلج وأن مخاطبه يعتقد أن قتل الفارس كان منه ومن آخر معه، وإنما أراد الشاعر أن يقرر أن قتله لم يكن من غيره، بل كان منه. وكأنه يرد على ذي ظن أن غيره قتله فقال الشاعر ما يرد عليه اعتقاده.

ونلاحظ أن عبد القاهر قد حمل معنى القصر في الاستشهاد بقوله (أنا الذي قطر الفارس) فأحاله إلى جملة معرفة الطرفين (أنا) (الذي) وكأن تعريف الطرفين لإفادة التخصيص على غرار قول المتنبي: "أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ..." أظهر في الدلالة على رفض الزعم الخاطئ. وهذا يحتاج إلى مزيد نظر، ومراجعة مقامات التخصيص بتعريف الطرفين من وقائع البيان العالي، وليس من وقائع التنظير العلمي فحسب. ذلك أن الفصل بين أفادة

[أثر تحرير نوع المقصُور وموقعه في المعنى]

٣٩٩- وها هُنا كلامٌ ينبغي أن تَعْلَمَه إلاّ أني أكتبُ لكَ مِنْ قبلِهِ مسألةً ؛ لأنَّ فيها عوناً عليه . قولهُ تعالى : ﴿ إنما يخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ... ﴾(فاطر:٢٨) في تقديم اسمِ الله - عزَّ وجلَّ - معنًى خلافُ ما يكونُ لو أُخِّر.(١)

تعريف الطرفين للتخصيص لإفادة غيره جدد وتحقيق ، بل شوائك ، التي ليس لفصل فيه دون منازع حقيقية.

(1) يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:28) جاء نظم جملة القصر بتقديم المفعول على الفاعل ، ومثل هذا لا يكون إلا لغاية بلاغية ، هي مكون رئيس من مكونات المقصود إيصاله إلى القلب وتمكينه فيه.

قدم لفظ الجلالة (الله) على فاعل الخشية (العلماء) وبذلك كان المعنى : ما يخشى الله من عباده إلا العلماء فقصر خشية الله على العلماء قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا ، فهم المختصون بذلك ، لا يكون ذلك من غيرهم .

ولو أنه جاء النظم على أصله فقيل في غير القرآن : إنما يخشى العلماء الله لكان المعنى أن العلماءَ لا يخشون إلا الله فيكون قصر موصوفٍ على صفة ، وهو معنى صحيح في نفسه ، لكنه ليس هو الذي جاء السياق لإيصاله إلى القلوب وتمكينه فيها .

السياق جاء لبيان فضيلة العلم ومكانة أهله دالة سباق جملة القصر ، وذلك حثّ القلوب على السعي إلى العمل فيه وله ، وبه فيبان لهم أنّ العلم هو الذي يجعل صاحبَه أن يكونَ المخصوصَ بخشية الله تعالى ، لا يشاركه فيها غيره ، ومن طَبعِ المرء أن يحب ما يخصُّه به فيبان لهم أنّ العلم هو الذي يجعل صاحبَه مخصوصًا بخشية الله تعالى ، وأن من لم يكن كذلك فليعلم أنه لا يكون مثله في هذه النعمة الجليلة.

وهذا المعنى لا يتحقّق إذا ما قدمنا الفاعل على المفعول ، وبذلك لا يتحقق للكلام حسن دلالتِه على المقصود ، ولا يتحقق له أيضًا تمام دلالته عليه .

ولو لم يرد في فضيلة العلم سوى هذه الآية لكانت كافية لكل ذي عقل أن يشغله عن العلم الفيع ولتحقيقات طلبه وخدمته وتحقيقه، ولتطعامه ولتثمار شاغل من الحياة الدنيا ، ولكانت

وإنّما يبيّنُ لكَ ذلكَ إذا اعتبرتَ الحكمَ في "ما" و"إلا " وحصَّلْتَ الفرقَ بينَ أن تقولَ : " ما ضربَ زيدا إلاّ عمرٌو" وبينَ قولِك : " ما ضربَ عمرٌو إلاّ زيداً" .

والفرقُ بينهما أنّك إذا قلتَ : " ما ضربَ زيداً إلاّ عمرٌو " فقدَّمْتَ المنصوبَ كان الغرضُ بيانَ الضَّاربِ مَنْ هو ، والإخبارَ بأنَّه "عمرو" خاصَّة دون غيره ، وإذا قلت :" ما ضرب عمرو إلا زيداً" فقدَّمت المرفوع كان الغرضُ بيان المضروب من هو والإخبار بأنَّه "زيدٌ" خاصَّةً دونَ غيره .

وإذ قد عرفتَ ذلكَ فاعتبرْ بهِ الآيةَ . وإذا اعتبرتَها به علمتَ أنَّ تقديمَ اسمِ الله تعالى إنّما كانَ لأجْلِ أنَّ الغَرَضَ أن يُبَيَّنَ الخاشُونَ مَنْ هُمْ ، ويخبرَ بأنّهم العلماءُ خاصَّةً دونَ غيرهم . ولو أخِّر ذكرُ اسمِ الله وقدَّم العلماءُ فقيلَ : إنَّما يخشى العلماءُ اللهَ ؛ لصارَ المعنى على ضِدِّ ما هو عليه الآن ، ولصارَ الغرضُ بيانَ المخشِيِّ مَنْ هو ، والإخبارَ بأنّه اللهُ تعالى دونَ غيره ، ولم يَجِبْ حينئذٍ أن تكونَ الخشيةُ مِنَ الله تعالى مقصورةً على العلماءِ ، وأن يكونوا مخصوصينَ بها كما هو الغرضُ في الآية . بل كان يكونُ المعنى أنّ غيرَ العلماءِ يخشَون اللهَ تعالى - أيضًا - إلاّ أنّهم مع خشيتِهم اللهَ تعالى يخشَوْن معه غيرَه ، والعلماءُ لا يخشَون غيرَ اللهِ تعالى .

- أيضًا - لكن ذي قلب ... أحدًا من ذي سلطان أو مال ونحو ذلك من زخرفِ الحياةِ الدنيا. وعلى قدر تقوى المرء وعلمه يكون ...

وهذا المعنى، وإنْ كانَ قد جاءَ في التنزيلِ في غيرِ هذه الآية،كقولِهِ تعالى:﴿ولا يخْشَوْنَ أحداً إلاّ اللهِ ﴾[الأحزاب:٣٩] (١) فليس هو الغرضَ في الآية ، ولا اللَّفظُ بمحتَمِلٍ له البتةَ .

(1) بعد القراءة والنظر بين آيتي سورة "فاطر" وآية سورة "الأحزاب"، وهذا منهج في التحليل بديع عطاؤه لطول ممارسته، وقد أبرز أثر السياق والمقصد من النظم فالمعنى لا يتم من ثلاثة روافد: من النظم، ومن سياقه، ومن مقصد السياق فمن غفل عن أي منها قصر وعيه بما في النظم من مكنون لطيف المعاني وطرائف دقائقه فلا يمد ذلك المراد في تلقي البيان سواء كان بيان وحي قرآنًا وسنة أو بيانًا إبداعيًا بشريًا شعرًا أو نثرًا أدبيًا أو فنيًا.

سياق هذه الآية في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب : 37- 39)

هذا دال على أنّ السياق لبيان أنّ الأنبياء لا يخشون إلا الله تعالى ، وليس السياق لبيان أن خشية الله تعالى لا تكون إلا من الأنبياء فالآية في سياق تعليم النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن يلقي بالأمر للناس فلا حرج عليه فيما فرضه الله عليه ، ومما فرض عليه زواجه سيدتنا " زينب بنت جحش" عليها الرضوان فلم يبال بما يرى الناس في هذا ؟

ولذا جاء نعت الأنبياء بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ ... ﴾ فعلم الموصول بابه قوله ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ... ﴾ وهم الأنبياء الذين جاء ذكرهم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب:7) ومن الميثاق المأخوذ منهم أن يخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله ، وألا يكون في حرج فيما فرض الله لهم.

ومَنْ أجازَ حَملها عليه كان قد أبطلَ فائدةَ التقديمِ ، وسوَّى بينَ قولِهِ تعالى :﴿ إنّما يخشَى اللهَ مِنْ عبادِه العلماء ﴾ وبين أن يقالَ : إنما يخشى العلماءُ اللهَ .
وإذا سوَّى بينهُما لَزِمَه أن يُسَوِّيَ بينَ قولِنا : " ما ضَرَبَ زيداً إلاّ عمرٌو" وبَيْنَ : "ما ضربَ عمرٌو إلاَّ زيداً " . وذلك ما لا شُبْهَةَ في امتناعِه. فهذه هيَ المسألةُ (1)

تبين لك أن السياق الذي يمكن أن يناسبه قصر الصفة على الموصوف: قصر خشية الله على الأنبياء، بل البد أن يكون الأنسب به هو قصر موصوف على صفة: قصر الأنبياء على خشية الله تعالى.

وبهذا يتبين لك جليًا الفرق بين الآيتين: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:28)

(1) التسوية بين ما يقوله من شم رائحة البيان أن النظم يختلف كل اختلاف فهو يأتي قرينة على اختلاف المعنى، وإن كان النظم في أحدهما قويًا.

بقية القسمة إلى الإعراب ـ (إنما) دون (النفي والاستثناء المفرغ) فالقرآن لم يقل: ما يخشى الله إلا العلماء (قصر صفة على موصوف حقيقة وإن كان ظاهر المعنى أنه مما يمكن أن ينازع فيه أو يتوقف فيه يدعى أن غير العلماء تقع منهم الخشية، فكم من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وهو أخشى لله من حاصل على أعلى الإجازات العلمية في علوم العقيدة والشريعة فكان مقتضى هذا أن يأتي البيان بالنفي والاستثناء المفرغ.

قد يبدو هذا الاعتراض وجيهًا، ولكن الأمر عند التحقيق يتجلى أن ما عليه البيان القرآني هو العلي.

بيان هذا. أن إتيان البيان بالقصر بطريق "إنما" تقرير لأن هذا أمر عند أولي الألباب المتثبتين في فهم البيان مما لا يجرؤ ذو عقل أن يتوقف فيه. ذلك أن الفعل المنسوب إلى العلماء لا سبيل لغيرهم أن يقع منه

البيان القرآن نسب إليهم على سبيل القصر فعل الخشية لا فعل الخوف وفي اللسان العربي فارق بين الفعلين وإن كان من جهة الدلالي واحد فما هما بمترادفين بل "الخوف" أعم من "الخشية"

فالخوف يكون منك سواء كنت عليمًا بما تخاف أو لست عليمًا به بينما "الخشية" لا تكون إلا إذا كنت عليمًا بمن تخشاه، والعلماء هم الذين يخافون الله -سبحانه وتعالى- عن علم بكمال جلاله وسلطانه وقهره وعزته فخوفهم عن علم فهو أحق بأن يقال له "خشية" بينما غير العلماء خوفهم لا يكون عن علم بعزته وجلاله وقهره وسلطانه فهو خوف لا خشية.

ولذا كان الإعراب بـ"إنما" هو الأنسب للمقام.

وهذا التركيب من قبيل **قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا**، وليس قصرًا إضافيًا، والقصر حقيقيًا ادعائيًا. فهل لك أنت جهد لتكون ممن قال الله -سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

وأنت إذا ما ذقت هذه النعمة نعمة خشية الله تعالى وتطلعت نفسك يومًا إلى ما في أيدي غيرك من زخرف الدنيا فجاهد أن تحجز نفسك عن هذا فما معك من نعمة خشية الله -سبحانه وتعالى- لا تعدل الدنيا بكل ما فيها مثقال ذرة مما أنت تتمتع به من نعمة خشية الله تعالى

من لم يجد في نفسه لذة خشية الله تعالى فهو من مقام العلماء الربانيين جد بعيد.

معيار يكفيك، به تعرف إن كنت في طريقك أن تكون من العلماء يومًا أو أنك غير مؤهل لذلك، لن تكون من العلماء بكثرة الإجازات والمشايخ، وبازدحام خزائن الكتب بالأسفار وبحضور مجالس العلم ليلًا ونهارًا، كلا. هذا وحده لا يفيد.

قليل من العلم الصحيح وكثير من العمل الصالح، والمطعم الطيب والعزلة النفسية عن العامة، والانصراف الحقيقي عن طلب الشهرة ثم التفكر الحقيقي فيما حصلت من العلم الصحيح هو طريقك أن تكون عند الله تعالى عضوًا في هيئة كبار العلماء به أو بكتابه وبسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

[موقع المقصُور عليه في النفي والاستثناء]

٤٠١- وإذ قد عرفتَها ،فالأمرُ فيها بيّنٌ : أنّ الكلامَ بـ"ما" و" إلاّ " قد يكونُ في معنى الكلامِ بـ "إنما"، ألا ترَى إلى وُضُوحِ الصورةِ في قولك : "ما ضربَ زيدا إلا عمرٌو" و" ما ضربَ عمرٌو إلاّ زيداً" أنه في الأوّلِ لبيانِ مَن الضارب، وفي الثاني لبيانِ مَنِ المضروبُ ، وإنْ كان تكلفاً أن تَحمله على نفي الشّرِكة ، فتريدَ بما ضربَ زيداً إلاّ عمرو أنه لم يضرِبْه اثنان ، وبما ضربَ عمرٌو إلا زيداً أنه لم يضرِب اثنين. (١)



---

(1) إذا علم المخاطب أن هناك إكرامًا وقع على خالد ولم يعلم فاعله فالأصل أن تجعل الفاعل هو المقصور عليه فتقول : ما أكرمَ خالدًا إلا محمد، وإذا كان عالمًا بالفاعل وجاهلًا من وقع عليه الفعل فالأصل أن تجعل المفعول مقصورًا عليه فتقول : ما أكرم محمد إلا خالدًا.

وليس الأصل أن يقال : ما أكرم محمد إلا خالدًا ، أو ما أكرم خالدًا إلا محمد ؛ لبيان نفي الشركة أي لبيان انفراد محمد بإيقاع الإكرام على خالد ، أو انفراد خالد بإيقاع إكرام محمد عليه فذلك يكون تكلفًا . لأن الكلام في أصله لم يوضع لذلك . فإن وجدت قرينة على إرادة نفي الشركة ، فلا ضير في ذلك ، أي أنّ التكلف الذي أشار إليه عبد القاهر هنا يستثنى إذا ما كان هناك مخاطب ذو اعتقاد أنّ الضرب وقع من اثنين أحدهما عمرو فتبين له أن الضارب عمرو وحده ، أو كان مخاطب ذا اعتقاد أنّ الضّرب وقع على أكثر من واحد منهم " زيد . فتبين له أنه وقع على " زيد " وحده . والسياق هو الذي يقضي .

[جِهةُ المُفارقة بين النّمطين التركيبين]

٤٠٢ - ثُم اعلمْ أنَّ السَّببَ في أنْ لم يكن تقديم "المفعولِ" في هذا كتأخيرِه ، ولم يكنْ " ما ضربَ زيداً إلا عمرٌو" و" ما ضربَ عمرٌو إلا زيداً" سواءٌ في المعنى أنَّ الاختصاصَ يقعُ في واحدٍ من "الفاعلِ" و"المفعولِ"، ولا يقع فيهما جميعاً .

ثُمّ إنَّه يقعُ في الذي يكونُ بعد " إلاّ " منهما ، دونَ الذي قبلَها ، لاستحالة أنْ يحدُثَ معنى الحرفِ في الكلمة قبلَ أن يجيءَ الحرفُ .(١)

وإذا كان الأمرُ كذلكَ وجبَ أن يفترِقَ الحالُ بينَ أن تقدِّم "المفعولَ" على " إلا " فتقولَ : ما ضربَ زيداً إلاّ عمرٌو ، وبين أن تقدم " الفاعلَ" ، فتقول : "ما ضربَ عمرٌو إلاّ زيداً" . لأنَّا إنْ زعمْنا أنَّ الحالَ لا يفترقُ جعلنا المتقدِّمَ كالمتأخِّر في جوازِ حدوثِه فيه . وذلك يقتضي المُحالَ الذي هو أن يَحْدثَ معنى "إلا " في الاسمِ من قبلِ أن تجيءَ بها فاعرِفْه. (٢)

---

1 (الاستحالة هنا استحالة في منطقِ اللسان، وهذا المنطق إنما هو مستمد من واقع المتكلم بهذا اللسان

العلاقة بين اللسان والإنسان المتكلم به هو أن الإنسان يقيم منطق لسانه على وفق منطق حياته فكرًا وشعورًا وعلاقات بينه وبين الكائنات فخصائص التركيب في أي لسان ولا سيما اللسان العربي إنما هي ثمرة خصائص المتكلم بهذا اللسان فأنت إذ تتكلم عن خصائص اللسان العربي فإنما أنت تقرأ خصائص الإنسان العربي القح الذي لم تلوثه عجمة فكرية أو أخلاقية.

إذا ما تبين لك ذلك أدركت أن اصطفاء اللسان العربي ليتنزل به القرآن الكريم أدرك تقويمه الإنسان العربي، وأنه لمصطفى أيضًا أن تكون خصائصه النقاء هي خصائص اللسان الذي أعرب به عن مراد الله -سبحانه وتعالى- في كتابه المعجز ببيانه، وبكل شيء فيه.

)1(يشير عبد القاهر هنا إلى أصل من أصول معاني النحو وقوانينه التي يجب أن تراعى في البيان فهمًا وإفهامًا ، والخضوع لذلك أصل من أصول علمية النظر وثوابتها التي لا يليق الثقة التمرد عليها بدعوى الإبداع ، لأن هذا سفه يفقد البيان وظيفته فهو وأهله في التمرد على أصول وثوابت اللسان ، والإيمان بدعوى حرية الإبداع فيه إنما هو فلسفة في

وإذ قد عرفتَ أنَّ الاختصاصَ مع " إلا " يقعُ في الذي تؤخِّرُه من الفاعل والمفعول (1) فكذلك يقعُ مع " إنما " في المؤخَّرِ منهما دونَ المقدَّم . فإذا قلتَ : "إنما ضربَ زيداً عمرٌو " كان الاختصاصُ في الضاربِ .
وإذا قلتَ : " إنما ضربَ عمرٌو زيداً" كان الاختصاصُ في المضروبِ .

الأرض . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور:19)

هذه الآية لمن أحسن تلقيها تقيم فيه حذراً بالغاً من الاقتراب من الذين فضحت به الحال وتطلعت إليهم الأعين، وأن تستوفي سبب الخطأ من أمثالهم من الذين يسعون إلى شغل العباد عن ذكر ربهم -سبحانه وتعالى- في قلوبهم وعقولهم وألسنتهم وأفعالهم. ما يحيط بك في محيطك من بيتك أو أمتك هو إلى هذه الفئة "الذين يحبون بلسان حالهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بالله تعالى" ويدخل فيهم من تنتمي نفسه إلى تلك الفئة بتتبع أخبارهم والاستماع إلى ما يصدر عنهم مما يسمونه "الفن" بكل أنواعه وألوانه فمن أعان الفساق والسلوك وتعلق به أو شاهده وتتبع أخباره هو بذلك فاسقاً .

(1) الضابط أن يكون الذي بعد "إلا" هو المقصور عليه فإذا تأخر شيء آخر عن محله الذي حقه أن يكون مقابل "إلا" في الكلام ما يبين عن المعنى فالتحقق ليس، لأنَّ العبرة هو تحرير المقصور عليه ، وهو محرر بملازمة وروده عقبَ "إلا" فإذا قلت : ما اشترى إلا الكتاب محمد فليس يخفى عليك أن يقصر شراء محمد على الكتاب فالمقصور عليه هو الكتاب ، والمقصور هو الشراء الواقع من محمد أو مشترى محمد فكأنك قلت ما مشترى محمد إلا الكتاب

وإذا قلت: ما اشترى إلا محمد الكتاب فالمقصور عليه هو الفاعل: محمد والمعنى : ما المشتري للكتاب إلا محمد فالمعنى لا لبس فيه . لأن العبرة معك : ما بعد) إلا (هو المقصور عليه فضع عليه بنانك يعصمك هذا من أن يمسك اللبس . ولكن في حرز.

وكما لا يجوزُ أن يَستويَ الحالُ بينَ التقديم والتأخيرِ معَ " إلا " كذلكَ لا يجوزُ مع "إنما " . (١)

***

(1) يريد عبد القاهر أن يبين لك أن المؤخر من طرفي القصر مع إنما هو المقصور عليه ، وليس أي مؤخر .

عليك أوَّلًا أن تحرر طرفي القصر : المقصور والمقصور عليه فإذا قلت: إنما أكرم محمد خالدًا الفاعل رتبه فالمقصور هنا هو الفاعل رتبة الأولى والمعنى : ما أكرم محمد خالدًا إلا الفاعل رتبه . وليس المقصور عليه هنا خالدا وإن كان مؤخرًا.

هذا يهديك إلى معالم الوعي الحكيم لسياق الكلام وقصديته من تأنق في تحرير المعنى، وتحقيق للتواصل بين المتكلم والسامع. والسامع الذي يلقي بالًا لمساقِ القول ،ولا سيما إن كان ممن يخاطبه ممن يعرف حق معناه الذي اصطنعه على عين في فؤاده. حقٌّ هذا المتكلم على سامعه ألا يتلقى معناه من قبل مبتغاه على وافٍ بحق تلقيًا.

تاخير المقصُور عليه مع "إنما" يوجب نمطا من النظم

٤٠٤- وإذا استبنْتَ هذه الجملةَ عرفتَ منها أن الذي صنعَه الفرزدقُ في قولِه : " وإنَّما يُدافِعُ عَنْ أَحْسابِهِمْ أَنا أَوْ مِثْلي " شيْءٌ أو لم يصنعْهُ لم يصحَّ له المعنى . ذاك لأنَّ غرضَه أن يخصَّ المدافِعَ لا المدافعَ عنه.وأنّه لا يزعمُ أنَّ المدافعة منه تكونُ عن أحسابِهم،لا عن أحسابِ غيرهم، كما يكونُ إذا قال: "وما أدافِعُ إلا عن أحسابِهم "وليس ذلك معناه ،إنَّما معناه أن يزعم أنَّ المدافِعَ هو لا غيرُه، فاعرفْ ذلك (١) فإن الغلطَ ، كما أظنُّ يدخلُ على كثيرٍ ممن تسمعُهُم يقولونَ : " إنه فَصَلَ الضميرَ للحملِ على المعنى". فيرى أنه لوْ لم يفصِلْه، لكان يكونُ معناه مثلَه الآن. (٢)

---

(1) السياق سياق فخر ، وهذا يوجب أن يقصر الدفاع عن أحساب قومه عليه، لا أن يقصر دفاعه على أحساب قومه . من قصر دفاعه على أحساب قومه لم ما هجا نفسه لم ما هجاء فالعربي ، أما هو نصير لكل مستنصر فخر أن له أن يفخر بأنه الذي يدافع إلا عن أحساب قومه.

فالمعنى والغرض يوجب على الشاعر أن يأتي بالمعنى من جهة قصر الدفاع عن الأحساب عليه ، لا من جهة قصر دفاعه على أحساب قومه ، ولو أتى من هذه الجهة لخرج عن غرضه في حمأة الهجاء الذي علق نفسه ، والذي فيه هاش عرور فكيف بالفرزدق ؟

لهذا كان فصل الضمير المجرد عنه ، لأنه هو الذي أوجه للجهة التي يأتي منها الفخر .

فالمعنى هو الذي اقتضى البيان على هذا النظم .

(2) الحمل على المعنى نهج من أنهاج العربية ، ومذهب من مذاهبها الواسعة العديدة التي يخاطب بها الناس ، كما يقول "الشافعي" في "الرسالة" وهو أيضًا مما يعرف بشجاعة العربية كما ذهب إليه "ابن جني" في "الخصائص" . "والحمل على المعنى يصار إليه إلا إذا اقتضاه السياق والقصد فإن في إبانة من بليغ ، ولا تقدم أي من بالغي فإذا لم تعارض السياق والمعنى والقصد مع اللفظ والحمل على المعنى فالإعراض عنه أولى به فروض فيه تأويلية.

هذا ولا يجوزُ أن يُنْسَب فيه إلى الضرورةِ فيجعلَ مثلاً نظيرَ قولِ الآخَرِ :

كأنَّا يَوْمَ قُرَّى إنْـــما نقْتُلُ إيّانا (١)

لأنَّه ليس به ضرورةٌ إلى ذلك من حيث إنَّ أدافِعُ ويدافِعُ واحدٌ في الوزن ، فاعرِفْ هذا أيضاً

يريد عبد القاهر في باب الحمل على المعنى الحمل على معنى "يُدافع" الذي هو أفاعل فالحمل على أفاعل يوجب فصل الضمير في قال أدافع "أنا" غير أن لم يكن هذا الضمير المفصول هو المسند إليه الذي هو المقصور عليه بل هو توكيد للضمير المستتر في أفاعل.

والمستقيم أن يكون الضمير المستتر في (إنما أدافع عن أحسابهم) هو المقصور عليه ؛ لأن المعنى والغرض يقتضيه، ويكون المعنى ما أنا إلا أدافع عن أحسابهم ، وليس هذا بمقصد الشاعر ، وما هذا بالذي يناسبه السياق .

(1) البيت لذي الإصبع العدواني كما في الخزانة للبغدادي.

قال الأعلم الشنتمري الشاهد فيه وضع "إيانا" موضع الضمير المتصل في قتلنا وفي وضع "إياك" موضع الكاف ضرورة. ....

قال ابن الشجري: ومعنى قوله كأنا نقتل إيانا تشبيه قتليهم بنفسه وقومه في الحسن واليسار فلذلك صاروا فيهم بعده، أي: هم مساوون لنا فلذلك بدأ أن من قتلنا إياهم قتلنا أنفسنا.)أهـ(

وقال ابن الأعرابي: أي : لا ينبغي أن نقتل من هؤلاء أنفسنا ولكن ألجئونا إلى ذلك.

وقال الأعلم: وصف قوماً أوقعوا ببني عمهم فكأنهم بقتلهم قتلوا أنفسهم.

(خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - عبد القادر البغدادي ج/٥ص ٢٨٢- ط: الخانجي)

والضرورة التي يشير إليها عبد القاهر في البيت هي فصل الضمير المنصوب ، وحقه الاتصال في قتلنا ، ولو ساعده الوزن لقال قتلنا أنفسنا فأقام الضمير المنفصل مقام (نا) (أو) أنفسنا (لأنهما في المعنى سواء ، أي يراد بهما شيء واحد ، وهذا ما سوغ له ذلك تحت وطأة الوزن . وهذا ليس مما يطالب فيه على رقبة تبيين الفرزدق ؛ لأن الوزن يساعد الفرزدق أن يقول « إنما أدافع » بدلا من « إنما يدافع » فالذي يكون فصله إلا لمعنى أراده الفرزدق ، اقتضاه الفخر الذي يقوم له.

★★★★★

٤٠٥- وجملةُ الأمْرِ أنَّ الواجبَ أن يكونَ اللفظُ على وجهٍ يجعلُ الاختصاصَ فيه للفرزدق ، وذلك لا يكونُ إلاّ بأن يقدِّمَ " الأحسابَ " على ضميرِه ، وهو لو قال : " وإنما أدافِعُ عن أحسابهم" استكنّ ضميرُه في الفعل ، فلم يُتصوَّر تقديمُ " الأحسابِ" عليه ، ولم يقعِ " الأحساب " إلاَّ مؤخَّراً عن ضميرِ الفرزدق . وإذا تأخرتِ انصرفَ الاختصاصُ إليها لا محالة(١)

فإنْ قلتَ : إنَّه كان يمكنه أن يقولَ:" وإنما أدافِعُ عن أحسابهم أنا " فيقدِّمَ الأحسابَ على" أنا "

قيل : إنّه إذا قال : " أدافِعُ " كان الفاعلُ الضميرَ المستكنَّ في الفعلِ وكان "أنا" الظاهرُ تأكيداً له أعني للمستكنِ . والحكمُ يتعلَّقُ بالمؤكَّد دون التأكيد ؛ لأنّ التَّأكيدَ ، كالتَّكريرِ ، فهو يجيءُ من بَعْد نفوذِ الحكمِ ، ولا يكونُ تقديم الجارِ مع المجرورِ الذي هو قولُه :" عن أحسابهم" على الضمير الذي هو تأكيدٌ تقديماً له على الفاعلِ ؛ لأنَّ تقديمَ المفعولِ على الفاعل إنّما يكونُ إذا ذكرتَ المفعولَ قبل أن تذكرَ الفاعل ، ولا يكونُ لكَ إذا قلتَ : " وإنَّما أدافِعُ عن أحسابِهم " سبيلٌ إلى أن تذكرَ المفعولَ قبل أن تذكرَ الفاعلَ ؛ لأنَّ ذكَر الفاعلِ هاهنا هو ذكرُ الفعلِ من حيثُ إن الفاعلَ مستكِنٌ في الفِعْلِ ، فكيف يتصَوَّرُ تقديمُ شيءٍ عليه ، فاعرِفْه. (٢)

(1) إذا انصرف الاختصاص إلى الأحساب زوالاً على التأخير خرج الكلام عن القصد ، وكان مطرودًا من باب الفصل في فصل الضمير لدى الفرزدق أو جهة بيان المعنى من الجهة التي أصلح لتأديته بين فصل الضمير في بيت العدواني) قد تلنا (أو جهته الضرورة الوزنية. وليس من وراء ذلك مزية فنية تفترق ا .

(1) يكشف عبد القاهر في هذا عن عقلية نظرية حرّى للعلاقة فيها :
فريضة على البلاغي أن يراقب حركة المعنى في العبارة التي هو ناظر فيها ، والعمد إلى تأويل التجواب مع حركة المعنى من جهة ، ومع قوانين علم النحو ، وأصوله، ورسومه من أخرى.

****

[وقوع الفاعل والمفعول معا بعد"إلاّ"]

٤٠٦- واعلمْ أنك إنْ عمدتَ إلى الفاعلِ والمفعولِ، فأخَّرتَهما جميعاً إلى ما بَعْدَ "إلاّ "، فإنَّ الاختصاصَ يقعُ حينئذٍ في الذي يلي " إلاّ " منهما .

فإذا قلتَ : " ما ضربَ إلا عمرٌو زيداً " كان الاختصاصُ في الفاعلِ ، وكان المعنى أنَّك قلتَ :" إنَّ الضاربَ عمرٌو لا غيرُه " وإن قلتَ : " ما ضربَ إلا زيداً عمرٌو "" كان الاختصاصُ في المفعول ، وكان المعنى أنك قلتَ :" إنَّ المضروبَ زيدٌ لا مَنْ سِواه" (١)

من يذهب إلى أن الشاعر بمقالته أن يحقق مقصوده من قصر الدفاع عن أحسابهم عليه ، كما هو مقتضى الظاهر من خلال تقديم الجار والمجرور على ضميره ، ولسبب دلالة الفعل) أدافع (على الفاعل) يدافع فيقول " : إنما أدافع عن أحسابهم أنا" ، وبذلك يكون الضمير) أنا (مؤخرًا، وما كان مؤخرًا كان هو المقصور عليه وبذلك يكون الفرق في كل كان ضمير المتكلم هو المؤخر وهو المقصور عليه - من يذهب إلى ذلك غاب عن مراقبة حركة المعنى ، وعن أصول النظم.

النظم في بيت الفرزدق وقع بين مسند مقيد بجار ومجرور "يدافع عن أحسابهم" ، ومسند إليه) أنا (إذا قلنا " : إنما أدافع عن أحسابهم أنا "على حد توهم المعترض ، كان تقديم الجار والمجرور ليس تقديما على المسند إليه الذي هو الركن الثاني من ركني القصر بل هو تقديم على مؤكد الفاعل ، العائد على الفاعل نفسه وبذلك يتحقق قصد الشاعر من قصر الدفاع عن أحسابهم عليه نفسه.

)1(يقيم لك عبد القاهر معيارًا لتعيين المقصور عليه فيما أذنت أصول النحو بتقديمه أو تأخيره في مكونات جملة القصر فما عليك إلا أن تسعى إلى ضبط المقصور عليه، وهو أحد ركني الجملة، ومن هنا يتيسر لك ضبط العنصر الآخر. المعيار أن ما يلي) إلا (مباشرة هو المقصور عليه فإذا قلت: ما أكرم إلا محمد خالدًا فالمقصور عليه هو المسند إليه الفاعل وليس المفعول خالد فكأنك قلت : ما أكرم خالدًا إلا محمد بمعنى ما مكرم خالد إلا محمد .قصر صفة على موصوف باعتبار أن " مكرِم خالد" في قوة

***

المسند . ويمكنك أن تحله: ما إكرام خالد إلا واقعًا من محمد فيكون من قصر الموصوف على الصفة .

وإذا قلت: ما أكرم إلا خالدًا محمد. كان المقصور عليه هو ما يلي (إلا) وهو المفعول (خالدًا) والمعنى ما أكرم محمد إلا خالدًا. ويمكنك أن تحله إلى معنى ما إكرام محمد إلا واقعًا على خالد فيكون من قصر الموصوف (إكرام محمد) على الصفة (واقعًا على خالد) والأمر قريب مقريب.

المهم أن المقصور عليه هو ما يلي إلا

[وقوع المفعولين معا بعد "إلاّ"]

وحُكْمُ المفعولَيْنِ حكمُ الفاعلِ والمفعولِ فيما ذكرتُ لك . تقولُ : لم يَكْسُ إلاّ زيداً جبةً . فيكون المعنى أنَّه خصَّ الجبةَ من أصنافِ الكُسوةِ . وكذلك الحكمُ حيثُ يكونُ بدلَ أحدَ المفعولي جارٌّ ومجرورٌ ، كقولِ السيِّدِ الحِمْيري :

لَوْ خُيِّرَ المِنْبَرُ فُرْسَانَهُ * ما اخْتَارَ إلاّ مِنْكُم فَارِسا

الاختصاصُ في " منكُم " دونَ " فارساً " .

ولو قلتَ : ما اختارَ إلاّ فارساً منكم صار الاختصاصُ في " فارساً " (١)

---

(1) البيت من مدحة للحميري لبني العباس ، ومذمة بني أمية.
يبين عبد القاهر الفرق بين (إلا) إذا وقع بعدها فاعل ومفعول، أو مفعولان، ويقرر أنه الفرق بين أن يكون الواقع بعد إلا الفاعل والمفعول، أو المفعولين. المهم أن الذي هو بعد (إلا) هو المقصور عليه. إذا قلت " : ما أعطى محمد إلا خالدًا كتابًا ." المقصور عليه هنا " خالد " والمعنى ما معطى محمد الكتاب إلا خالد . وكأنك قلت : خالد هو معطى محمد الكتاب ، لا غيره. .
ويجوز أن تؤوله إلى : ما إعطاء محمد الكتاب إلا واقعًا على خالد .
المهم أن خالدًا هو المقصور عليه لأنه هو الذي يلي (إلا) فكأن (إلا) والمقصور عليه كالكلمة الواحدة لا يفرق بينهما ، أو كالمضاف والمضاف إليه ، أو الصفة والموصوف.
وإذا قلت : ما أعطى محمد إلا كتابًا خالدًا . فكأنك قلت : ما أعطى محمد خالدًا إلا كتابًا .
ويؤول الكلام : ما معطى محمد خالدًا إلا الكتاب . ، وكأنك قلت : الكتاب هو معطى محمد خالدًا لا غيره . ويجوز أن تؤوله إلى : ما إعطاء محمد خالدًا إلا واقعًا على الكتاب.
وإذا نظرنا في بيت السيد الحميري رأيناه من قبيل تأخير المعمولين عن (إلا) والذي يلي (إلا) هو المتعلق : الجار والمجرور "منكم . "
والمعنى ما اختار فارسًا إلا منكم . فهم محل الاختيار للفرسان فغيرهم ليس أهلا لأن يختار الفرد فارسًا منهم . ذلك ما يوجه نحو الثناء ونهج الإطراء.

ولو أنا جعلنا المقصور عليه هو المفعول به: فارسًا لاستحال المعنى إلى ما اختار منكم إلا فارسًا. ومعنى هذا أن فيهم من ليس بفارس، وهذا لا يجري في بحر الثناء، ومن ثَمّ يخرج عن السياق

*****

ومن أبيات السيد الحميري مترافًا يقول المتنبي في معرض رثاء جدته حين ماتت وهو في غربته على إثر رسالة وصلتها منه فقبلت الكتاب وحُمّت لوقتها سرورًا به! وغلب الفرح على قلبها فقتلها! فقال يرثيها ويتحسر على وفاتها في غيبته ويفتخر بنفسه:

ألا لا أرى الأحداث حمدًا ولا ذمًّا * فما بطشها جهلًا ولا كفّها حلما

وقال واصفًا نفسه:

تغرَّبَ لا مستعظِمًا غيرَ نفسه * ولا قابلًا إلا لخالقِهِ حكما

ولا سالكًا إلا فؤاد عجاجة * ولا واجدًا إلا لمكرمة طعما

ففي الشطر الثاني من البيتِ الأول، ومن البيتِ الثاني جاء معمول اسم الفاعل (قابلًا) و(واجدًا) مؤخرًا عما تعلق به من الجار والمجرور (لخالقه) و(لمكرمة) (جاعلًا) الجار والمجرور (هو الموالي) لإلا فكان المقصور عليه هو المتعلِّق بالكسر في كل (لخالقه) و(لمكرمة) وليس المتأخر في بيتي البيت): (حكمًا) و(طعمًا) وكان المعنى: لا قابلًا حكمًا إلا لخالقه، ولا واجدًا طعمًا إلا لمكرَمَة.

ولو أنه قال: ولا قابلًا لخالقه إلا حكمًا، ولا واجدًا لمكرمة إلا طعمًا لاختلف الكلام، ولم يكن دالًّا على مقصد الشاعر.

...وكأني به قد أراد أن يوظف هذا البناء الاستشرافي للتلقي إلى تمام المقصور فيأتي من بعد ما تأخر تقديم المقصور عليه في تمامه فيستقر في قلبه بأتمّ استقرار، حيث تمكّن من المتلقي إلى رسوخ التصرف به واقتصاره عليه فيبقى في كل نفس من بعد ذلك أنه لا يخضع إلا لحكم خالقه، ولولا أنّ موت جدته من قضاء خالقه لكان له مع ذلك شأن أي شأن، ويبقى في كل نفس أيضًا أنه لا يستطيب إلا طعم المكرمات، ولولا ذلك لما فارق الديار، وغاب عنها، وهي الحبيبة لديه، لكنه في ما أتى معذور، فهو لا يقيم في ضيمٍ أبدًا.

المقصُور عليه من المبتدأ والخبر الواقعين بعد"إنما"

واعلمْ أنّ الأمرَ في المبتدإِ والخبر إن كانا بَعْدَ " إنّما " على العبرةِ التي ذكرتُ لك في الفاعلِ والمفعولِ إذا أنتَ قدَّمتَ أحَدَهما على الآخَرِ .

معنى ذلك أنَّك إن تركتَ "الخبرَ" في موضِعِه ، فلم تقدِّمه على" المبتدأ" كان الاختصاصُ فيه . وإن قدَّمته على "المبتدإِ" صار الاختصاصُ الذي كان فيه في " المبتدإِ ".(١)

ولا يخفى عليك أن في كل من الشطر الأول من البيت الأول ، ومن البيت الثاني أسلوبَ قصر : الأول متعظمًا غير نفسه قصر استعظامه على نفسه ، ونفاه عن غيره أي الاستعظام النفسي، وقصر سلوكه على فؤاد عجاج ونفاه عن غيره . وهذا الشاهد فيه لمانحفيه.

ثم إن في كل شطر من الأشطر الأربعة أسلوب قصر، والطريق في كل هو الاستثناء المفرغ (

ومما يحسن الالتفات إليه هنا أن قوله : والقاب الإلحاقه حكما

من يقول لك أن يكون مدعيًا النبوة كال.

****

ومن الباب نفسه تقديم إلا المقصور عليه ما أنشده سيبويه في كتابه.

النَّاس إلب عليك فيك ليس لنا * إلا السيوف وأطراف القنَا وِرد

الأصل "الناس إلب علينا فيك ليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا "

ولو أنك أخرت إلا عن السيوف وما عطف عليها لفسد المعنى الذي رمى الشاعر إليه.

...الشاعر بإقامته البيت على هذا النهج فيه طاقة تثير استشراف المتلقي إلى ما أقيمت عليه قافية البيت ، وكأنه أراد من وراء ذلك أن يوغل في أعماق المتلقي بذلك الاستشراف أن هذا الورد هو الغاية التي ليس من ورائها غاية ، ولا يقيم عليها حياته ووجوده نظام أقام عليه البيت الشعري الذي هو في حقيقته صورة نفسه المنظورة المسموعة ..

(1) أي صار المؤخر منهما هو المقصور عليه فقوله "الاختصاص فيه". أي هو المقصور عليه .

تفسيرُ هذا أنَّك تقولُ : " إنما هذا لك " فيكونُ الاختصاصُ في " لك " بدلالةِ أنك تقولُ : إنَّما هذا لكَ لا لغيرك.(١)

وتقولُ : "إنما لك هذا " فيكونُ الاختصاصُ في " هذا " بدلالةِ أنكَ تقولُ: "إنّما لك هذا لا ذاكَ .

والاختصاصُ يكونُ أبداً في الذي إذا جئتَ بـ (لا العاطفة) كان العطفُ عليه .

وإنْ أردتَ أن يزدادَ ذلك عندَكَ وضوحاً ، فانظرْ إلى قولِه تعالى : ﴿ فإنَّما عليكَ البلاغُ وعلينا الحسابُ﴾ .(سورة الرعد:٤٠)وقوله عزّ وعلا : ﴿ إنّما السَّبيلُ عَلَى الّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ (سورة التوبة:٩٣) . فإنّك ترى الأمرَ ظاهراً أنَّ الاختصاصَ في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو البلاغُ والحسابُ دون الخبر الذي هو عليكَ وعلينا (٢)

)2(استدل بقوله: "لا لغيرك" على أن معادل غيرك هو المقصور عليه، لأن ما بعد لا هو المقصور عليه فمع النفي (إنما) هو المقصور عليه في هذا ونسق البيان يقتضي هذا التعادل .
فالبيان يستقيم بالغة أن تقول: إنما هذا لك، لا لك، لأن لك الذي عادل المؤخر في (إنما) ونسق البيان حق الكلام، وحق سامعه، وليس بحسن أن يقع الكلام في عقوقين.

يقول الله تعالى) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) الرعد40

يقول عبد القاهر ": الاختصاص في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو البلاغ والحساب دون الخبر الذي هو عليكَ وعلينا " وهذه فيه مراجعة تبيينية مهمة:

المعنى في قوله تعالى" :إنما عليك البلاغ "ما عليك إلا البلاغ ،وليس عليك أن تأتيهم بما يقترحونه إشارة إلى قوله تعالى) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد(7:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾) الرعد: 27(

فالمنفي ليس هو الحساب ، أي ليس المعنى إنما عليك البلاغ ،لا الحساب ،لأنه علينا فليس السياق في المنازعة أعليك البلاغ أم الحساب.

والمعنى في " وعلينا الحساب "أي ما علينا إلا الحساب، وليس علينا أن نجيب مقترحاتهم، فالسياق في إثبات أن الله تعالى ليس من شأنه أن يستجيب لمقترحات الذين كفروا وتعنتهم بل الذي عليه -سبحانه- هو حسابهم، وبهذا يكون تقرير الكلام: الحساب علينا لا عليك كما قال الزمخشري: "وعلينا لا عليك وجزاؤهم على أعمالهم فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم)". أهـ

الآن هذا ليس مناط المنازعة. هذا هو تحرير المعنى. وأنت ترى حصافة عبد القاهر فنا وعمق بصيرته في تفقد لحظ السياق.

وبناء على هذا يكون قوله "علينا الحساب" معطوفاً على مدخول "إنما"، وليس معطوفاً على "إنما" وما دخلت عليه. لأننا إنّ جعلناه معطوفاً على "إنما" ومدخولها، كان التقديم هو طريق القصر قولا واحدًا، ولو قلنا بذلك وجب أن يكون الاختصاص في المقدم: "علينا" وحينئذ لا يتجاوب المعنى مع السياق. .

من خلال الذي بينته لك يتبين لك أن الاعتراض على عبد القاهر بأن الاختصاص ليس في الحساب بل في "علينا" اعتراض لم يلحظ حركة المعنى وسياقه في السورة، وإنما نظر إلى الجملة محجوزة عن سياقها .

وبذلك تدرك الفرق بين المعنى في " وعلينا الحساب" في سورة الرعد وفي قوله تعالى:
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ، إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية)

إن تبصرت علمت أن الاختصاص في آية "الغاشية" هو "علينا" تماما كالاختصاص في "إلينا" في قوله تعالى (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) والمعنى: إيابهم إلينا لا إلى غيرنا، وحسابهم علينا لا على غيرنا وفي قوله: (إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) لا ينفي عنه قوله تعالى بعده (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) أما الاستثناء في (إلا من تولى) فهو استثناء منقطع.

وأنه في الآيةِ الثانيةِ في الخبرِ الذي هو " على الذين " دونَ المبتدأ الذي هو " السبيل "(١)(ص/٣٤٥)

---

(١) قوله تعالى: ((وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) التوبة: (90- 93).

تقدير المعنى: ما السبيل إلا على الذين يستأذنونك، وهم أغنياء "أثبته عليهم ونفاه عن الذين سبق ذكرهم في الآيات التي قبلها وهم الضعفاء، والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون إذا نصحوا لله ورسوله والذين إذا ما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ليحملهم قال لهم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

وعلى هذا يكون من قصر الموصوف على الصفة. أي قصر السبيل على أن يكون على الذين يستأذنون وهم أغنياء. لأن المقصور "مسند إليه/السبيل" على المسند /على الذين يستأذنون وهم أغنياء" وطريق القصر فيه هو (إنما) والمقصور عليه هو المتأخر.

تأكيد القول بأن المقصُور عليه مع النفي والاستثناء هو الذي يلي "إلا"

٤٠٨- واعلمْ أنه إذا كان الكلامُ بما وإلاّ كان الذي ذكرتُه من أن الاختصاصَ يكون في الخبر إنْ لم تقدِّمْه وفي المبتدأ إنْ قدَّمتَ الخبر أوضحَ وأبينَ (١)
تقولُ : "ما زيدٌ إلاَّ قائمٌ"، فيكون المعنى أنك اختصصتَ القيامَ من بين الأوصافِ التي يتوهَّم كونُ زيد عليها بجعله صفةً له . وتقولُ : "ما قائم إلا زيدٌ" ، فيكون المعنى أنك اختصَصْتَ "زيداً" بكونه موصوفاً بالقيام.فقد قَصْرتَ في الأول الصفةَ على الموصوفِ وفي الثاني الموصوف على الصفة. (٢)
***

---

(1) ووجه الوضوح مع "ما، وإلا" أكثر من "إنما" أن المقصور عليه مع النفي والاستثناء يتعين لفظيًا، أي يتعين بالتركيب لزوم المقصور عليه "إلا" فحيثما رأيت "إلا" فاقض على ما بعدها يكون هو المقصور عليه، ولا يحتمل أي وجه آخر في قولك : ما محمد إلا كريم فما بعد إلا وهو "كريم" هو المقصور عليه، ولا يحتاج إلى أدنى نظر وفي قولك : ما كريم إلا محمد لذلك المقصور عليه هو محمد ، وكأن "إلا" والمقصور عليه كالكلمة الواحدة أو المضاف والمضاف إليه في الفصل بينهما، ولا يقدم أحدهما على الآخر فلا تقل (ما إلا قائمًا هو) الذي سبق المقصور عليه، ولا يقدم المقصور عليه على "إلا" . بخلاف "إنما" فالمتأخر يحتاج في تعيينه إلى شيء من المراجعة كما سبق بيانه فإذا قلت : "**إنما أكرم محمدٌ خالدًا بعطية قيمة يوم زواجه في مصر بابنة عمه صلة للرحم**" فالمقصور عليه هو قوله "صلة للرحم" فلك أن تبين علة ما كان من محمد لخالد حينئذ أي ما أكرم محمد خالدًا بعطية قيمة يوم زواجه في مصر بابنة عمه إلا صلة للرحم
. وهذا يحتاج إلى شيء من النظر، والتأمل لتعيين المقصور عليه.

(2) في قوله فقد قصَرت في الأول الصفة على الموصوف وفي الثاني الموصوف على الصفة ". سهو، ولعله من الناسخ فالصواب أن يقال فقد قصَرت في الأول] أي : "ما زيد إلا قائم" الموصوف على الصفة، لأن المقصور زيدًا على صفة القيام

[المنفي من الصفة أو الموصوف في القصر مقيد عمومه بالسياق]

٤٠٩- واعلم أنَّ قولَنا في الخبرِ إذا أُخِّرَ نحو " ما زيدٌ إلاّ قائم " أنك اختَصَصْتَ القيامَ من بين الأوصافِ التي يُتوهَّم كونُ "زيدٍ" عليها ونَفَيْتَ ما عدا القيامَ عنه . فإنما نعني أنك نفَيْتَ عنه الأوصافَ التي تُنافي القيامَ نحو أن يكون جالساً أو مضطجعاً أو مُتَكئاً أو ما شاكلَ ذلك .

ولم نُرِدْ أنك نفيتَ ما ليس منَ القيامِ بسبيلٍ إذْ لسنان ننفي عنه بقولِنا : ما هوَ إلاّ قائم أن يكونَ أسودَ أو أبيضَ أو طويلاً أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً . كما إنَّا إذا قلنا : ما قائمٌ إلا زيد لم نُرِدْ أنه ليس في الدنيا قائمٌ سِواهُ وإنَّما نعني ما قائمٌ حيث نحن وبحضرتنا وما أشبهَ ذلك . (١)

وفي الثاني أي : ما قائم إلا زيد [الصفة على الموصوف ؛ لأنه قصر القيام على زيد، والمؤخر فيها هو الموصوف .

وهذا واضح، والذي يمكن أن يكون في المتن من عبد القاهر فالأمر أظهر من أن يخطئ فيه عبد القاهر فلعله سهو منه أو من الناسخ. ولم يعلق شاكر على هذا. .

وقد نبه الدكتور محمد رضوان الداية وفايز الداية في تحقيقهما دلائل الإعجاز (ص 340) على ما في المطبوعة، وجعلا في المتن ما هو الصواب وتحقيق الأستاذين رضوان وفايز أسبق من تحقيق الشيخ شاكر فقد كانت الطبعة لتحقيقهما سنة 1403 هـ وطبعة شاكر 1404 ، ولعل شاكر لم يطلع على تحقيقهما، وكذلك نبه أخي الصديق الأستاذ الدكتور "محمد الشادي" في شرحه "الدلائل" على هذا في الهامش رقم (1) ص 435- ط: 1431 هـ - دار اليقين – المنصورة فقال :"من الواضح أن العكس هو الصحيح"

(1) هذا الذي قاله عبد القاهر من تقييد النفي في أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء أو "إنما" : "أو تقييم "لا يكون عامًا عمومًا مطلقًا بل عمومه مقيد بسياق القول ، وهذا أصل من أصول النظر البلاغي فهو يستمد المعنى من النظم وسياقه الكلامي والمقامي معًا ، وقصد المتكلم، فلابد لاستمداد المتلقي المعنى من ثلاثة فالنفي في قولنا : "ما زيد إلا كريم" أننا

[القصر بالنفي والاستثناء بين الإفراد والقلب]

٤١٠- واعلم أنَّ الأمرَ بَيّنٌ في قولِنا : "ما زيدٌ إلاَّ قائم" أنْ ليس المعنى على نفيِ الشركةِ ، ولكنْ على نفي أن لا يكونَ المذكورُ ، ويكونَ بدلَه شيءٌ آخر .

تثبت له الكرم وتنفي عنه كل صفة أخرى، سواء كانت من سبيل الكرم أو ليس من سبيلها، فذلك لا يقال.

ومن هنا تدرك مدى ما ذهب إليه البلاغيون المتأخرون من استحالة قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا. يقول القزويني في الإيضاح: "والأول من الحقيقي كقولك: "ما زيد إلا كاتب" إذا أردت أنه لا يتصف بصفة غير الكتابةِ، وهذا لا يكاد يوجد في الكلام؛ لأنه ما من متصور إلا وتكون له صفات تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر" (الإيضاح: بغية – ج2: ص4)

وقد جرى على نهجه الشراح، يقول السعد في المطول: "بل نقول إن هذا النوع من القصر مفض إلى المحال، لأنَّ للصفة المنفية نقيضًا البتة، وهو أيضًا من الصفات، لزم ارتفاع النقيضين، مثلاً إذا قلت: ما زيد إلا كاتب على معنى أنه لا يتصف بغيره، لزم أن لا يتصف بالشاعرية، ولا بعدمها، وهو محال أن يراد الصفات الوجودية") أهـ (المطول: 382-383- ط: هنداوي – دار الكتب العلمية – بيروت، ومثله في عروس الأفراح للسبكي) 1/487- ط: خليل إبراهيم- دار الكتب العلمية بيروت، وكذلك الأطول للعصام: 1/536- ط: هنداوي- دار الكتب العلمية- بيروت ومواهب الفتاح للمغربي: 1/409- ط: خليل إبراهيم- دار الكتب العلمية – بيروت .

ولو أن أولئك الأئمة لاحظوا السياق كما فعل عبد القاهر لما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه في هذا التورك العقلي الذي لا يتناسب مع النظر البلاغي .

ألا ترى أنْ ليس المَعنى أنه ليس له معَ القيامِ صفةٌ أخرى ، بلِ المعنى أنْ ليس له بدلَ القيام صفةٌ ليستْ بالقيام ، وأنْ ليس القيامُ منفياً عنه ، وكائناً مكانَه فيه القعودُ أو الاضطجاعُ أو نحوُهما.(1)

فإنْ قلتَ : فصُورَةُ المعنى إذاً صُورَتُهُ إذا وضعتَ الكلامَ بـ"إنـما" فقلتَ :" إنما هو قائمٌ ". ونحنُ نرى أنَّه يجوزُ في هذا أن تَعْطِفَ بـ(لا) فتقول : " إنما هو قائمٌ لا قاعدٌ " ولا نرى ذلك جائزاً مع "ما" و"إلاَّ "إذ ليس من كلام الناس أن يقولوا :" ما زيدٌ إلاّ قائمٌ لا قاعدٌ ".

فإنَّ ذلك إنّما لم يَجُزْ من حيثُ إنّك إذا قلتَ : " ما زيدٌ إلاَّ قائمٌ " فقد نفيتَ عنه كلَّ صفةٍ تُنافي القيامَ . وصرت كأنك قلت : " ليس هو بقاعدٍ ولا مضطجعٍ ولا متكىءٍ " وهكذا حتّى لا تدعَ صفةً يخرجُ بها من القيامِ،،فإذا قلتَ من بعد ذلك : "لا قاعد"

---

(1) هذا الذي قاله عبد القاهر من أن القصر بالنفي والاستثناء أصل في القلب النافي للشركة (الإفراد) (لا ما يكون إذا لم يكن في الكلام قرينة على إرادة الإفراد ، أي الاعتبار إذا أطلق ولم يقيد بقرينة في الكلام ، أو المقام ، ومعنى هذا أن القلب هو الأصل ، والإفراد ليس الأصل ، ولذا يحتاج إلى قرينة دالة على إرادته ، أمّا أن يقال إن عبد القاهر ينفي أن يكون القصر بـ"ما" ، و"إلا" القصر ، يقصره على القلب كما كان مع "إنما" و"لا" عنده فذلك لا يسلم.

ألا ترى إلى قول السيد الحميري، وقد مضى:

لَو خُيِّرَ المنبرُ فرسانَه * ما اختار إلا منكمُ فارسًا

لا يصلح أن يقال إنه على القلب، وأنه رد على من يذهب إلى أن المنبر يختار فارسًا من غيرهم فنقلب عليه زعمه ، ونخصهم باختيار الفارسِ منهم ، هذا لا يليق بمقام الثناءِ ؛ لأن الثناء يوجب أن يزعمَ أنه ليس هناك من يعتقد أو يزعم أن غيرهم هو المختص بذلك ، ولأنهم ليسوا أهلا لذلك ، ولكن الأقرب أن يكونَ هناك مخاطب يعتقد أن فيهم وفي غيرهم فرسانًا هم أهل للاختيار منهم في فردهم الشاعر بالاختيار فكأنه قال : ما اختار فارسًا إلا منكم وحدكم ، لا يشاركهم في ذلك أحد فالمقام أحق بالاختصاص فالسياق قرينة على أن الأولى ألا يظن أنّ هناك من يعتقد العكس فيدفعه .

كنتَ قد نفيتَ بـ"لا "العاطفةِ شيئاً قد بدأتَ ، فنفيتَه ، وهي موضوعةٌ لأنْ تنفيَ بها ما بدأتَ ، فأوجبتَه ، لا لأن تفيدَ بها النفيَ في شيءٍ قد نفيتَه([1])

ومن ثَمَّ لم يَجُزْ أن تقولَ : "ما جاءني أحدٌ لا زيدٌ "على أنْ تعمدَ إلى بعضِ ما دخلَ في النفيِ بعمومِ أحدٍ ، فتنفيَه على الخُصوصِ ، بل كان الواجبُ إذا أردتَ ذلك أن تقولَ :" ما جاءني أحدٌ ، ولا زيدٌ" فتجيءَ بالواو من قَبْل "لا" حتى تخرجَ بذلك عن أن تكونَ عاطفةً فاعرفْ ذلك ([2])

٤١١- وإذْ قد عرفتَ فسادَ أن تقولَ : " ما زيدٌ إلا قائمٌ، لا قاعدٌ " فإنَّك تعرفُ بذلك امتناعَ أن تقولَ : " ما جاءني إلا زيدٌ لا عمرٌو" و" ما ضربتُ إلا زيداً ، لا عمراً " وما شاكلَ ذلك .

وذلك أنكَ إذا قلتَ : " ما جاءني إلاّ زيدٌ " فقد نَفَيْتَ أنْ يكونَ قد جاءك أحدٌ غيرُه .

---

(1) يعتمد عبد القاهر على الوضع اللغوي لـ"لا" العاطفة . هي موضوعة في عرف اللغة لأن يكون ما ينفى بها الموجب قبله فيه بل هو الذي يوجب إيجابه فـ"لا" العاطفة، التوكيد نفي ما نفي قبلها. فإن كانت مؤكدة لنفي سبق فما هي بـ"لا" العاطفة التي تفيد القصر بل تتجرد من الدلالة على العطف وتسقط دلالتها على القصر.

(2) هذا يدل على أن النفي وحده ليس هو سبب دلالة "لا" على القصر بل اجتماع الأمرين معًا : النفي والعطف فإذا ما تعطل أحدهما سقطت دلالتها على القصر، ولذا لما جاءت "الواو" في "ولا زيد" بطلت دلالتها على العطف فبقيت للنفي وبذلك لم يكن فيها القصر : بل إثبات نفي بعد نفي فيه قطع نفي عام ، عطف عليه نفي عام فصار إلى باب التوكيد بعطف الخاص على العام .

ومن ثم تدرك أن قول المتنبي:

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذمًا * فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما

لا تكون فيه "لا" للقصر لأمرين :

الأول أنه قد سبقها نفي

والآخر أنه قد سبقها حرف عطف "الواو" "ولا ذما" و"ولا كفها حلما"

فإذا قلتَ : " لا عمرٌو " كنتَ قد طلبتَ أن تنفيَ بـ"لا "العاطفةِ شيئاً قد تقدمتَ ، فنفيتَه وذلك - كما عَرَّفْتُك - خروجٌ بها عن المعنى الذي وُضِعَتْ له إلى خلافِه . (١)

⁂⁂⁂⁂

[الفرق بين "النفي والاستثناء" ، و"إنّـما " في مجيئ "لا"]

٤١٢- فإنْ قيلَ : فإنَّك إذا قلتَ : " إنّما جاءني زيدٌ" فقد نفيتَ فيه أيضاً أن يكونَ المجيءُ قد كانَ من غيرهِ ، فكانَ ينبغي أن لا يجوزَ فيه أيضاً أن تعطِفَ بـ " لا " فتقول : "إنَّما جاءني زيدٌ لا عمرٌو"

قيل : إنّ الذي قلتَه من أنّك إذا قلتَ : " إنما جاءني زيد " فقد نفيتَ فيه أيضاً المجيء عن غيرهِ غيرُ مسلَّمٍ لك على حقيقتِه (٢) وذلك أنه ليس معك إلاّ قولُك : " جاءني زيد " وهو كلامٌ كما تراهُ مثْبَتٌ ليس فيه نفيٌ البتَّةَ ، كما كانَ في قولِك : " ما جاءني إلاّ زيدٌ ".(٣) وإنما فيه أنَّك وضعتَ يدَك على" زيدٍ" ، فجعلتَه الجائي . وذلك وإن أوجَبَ انتفاءَ المجيء عن غيرِه ، فليس يوجِبُه من أجلِ أنْ كان ذلك إعمالَ نفيٍ في شيءٍ (٤)

---

(1) العلة هنا هي العلة في ما مضى ، وقد سبق بيانه فاعتبر به هنا.

(2) قوله " غير مسلَّم لك على حقيقتِه" يريد على حقيقة النفي في الدلالة على نفي المجيء، لأنك لم تجعل في الكلام أداة موضوعة للدلالة عليه، وليس معناه أنه ليس معك نفي البتة، وإنما هو إثبات محض، لأنه لو كان " إنما جاءني زيد" إثباتًا محضًا ما دل الكلام على القصر، وهو قائم على اجتماع إثبات ونفي. وإن اختلف الدال على كل . وعبد القاهر بعد فرق الكلام في القصر بتأويل دلالة (إنما) على النفي لاجتماع النفي والإثبات فيها (فقرة: 388 ص: 328)

(3) يريد ليس فيه أداة تدل على النفي دلالة وضعية صريحة ، ولا يريد البتة أنه ليس فيه نفي على أيِ وجه.

(1) أي أعمال أداة النفي في موضوعها الدال عليه . هذا هو مناط النفي في قول عبد القاهر

وإنما أوجَبَه من حيثُ كان المجيءُ الذي أخبرتَ به مَجيئاً مخصوصاً، إذا كانَ لـ"زيدٍ" لم يكنْ لغيره.(١)
والذي أَبيناهُ أن تنفيَ بـ"لا" العاطفةِ عن شيءٍ ،وقد نفيتَه عنه لفظا (٢)

*****

٤١٣- ونظيرُ هذا أنّا نعقلُ من قولنا : " زيدٌ هو الجائي " أن هذا المجيءَ لم يكن من غيرِه ، ثم لا يمنعُ ذلك من أن تجيءَ فيه بــ" لا " العاطفةِ ، فتقولَ : " زيدٌ هو الجائي لا عمرٌو ". لأنَّا لم نعقلْ ما عَقَلْناه من انتفاءِ المجيءِ عن غيرِه بنفيٍ أوقَعناه على شيءٍ ، ولكنْ بأنَّه لمّا كانَ المجيءُ المقصودُ مجيئاً واحداً ، كان النصُّ على "

(2) خصوصية المجيء حملت في المجيء عن غير زيد، لأنه لما كان مخصوصًا لم يكن أهلا لأن يكون لغير زيد فثبت لزيد دال بمفهومه على انتفائه عن غيرِه ، لأن ما كان خاصًّا لا يكون في موضعين فخصوصيته تنفي ذلك.

وهذا يقيمك بعد القاهر كلامه على الفارق بين النفي القاطع في "ما" و"إلا"، والقاطع في "لا": في "ما" و "إلا" النفي صريح بأداته فهو نفي لفظي أي منطوق به مبسوط موضوع للدلالة عليه، ومن ثم فهو في نصين للدلالة، ومن ثم لا يصلح "لا" العاطفة أن تأتي من بعده، لأن مدخولها كان قد دخل في ما يفيد نفيًا صريحًا للدلالة على النفي، وهذا يخالف موضع "لا" العاطفة في دلالتها على النفي.

أما النفي القاطع في "إنما" فليس في الكلام كلمة موضوعة للدلالة على النفي دلالة صريحة، و"ما" في "إنما" ليست نافية بل هي كافة لـ(إنّ) عن العمل في ما بعدها عملاً إعرابيًا. والنفي الذي يجتمع مع الإثبات في (إنما) للقصر مدلول عليه دلالة ضمنية لا دلالة صريحة بأداة في موضوعة للنفي، فرق بين نفي دل عليه بأداة موضوعة له، ونفي مفهوم من الكلام وسياقه، لا من أداته . الأول لا يصلح معه (لا) العاطفة ،لتعارضه مع ما وضعت له، والآخر تصلح معه (لا) العاطفة ؛لأنها لا تتعارض مع موضوعها، لضعف النفي مع (إنما)

(3) كذلك يحرر لك عبد القاهر من المفارقة: "إن "لا" العاطفة لا تكون حيث يكون نفي صريح بأداة موضوعة للنفي فإن كان في الكلام ما يدل على نفي دلالة ضمنية غير صريحة أي ليست دلالة منطوق فإن "لا" العاطفة تتأسس بذلك النفي الضمني، لأنه لا ينازع دلالتها..

زيدٍ " بأنّه فاعلُه ، وإثباتُه له نفياً له عَنْ غيرِه ، ولكنْ من طريقِ المعقولِ لا من طريقِ أن كانَ في الكلامِ نفيٌ كما كان ثَمَّ فاعرْفه(١)

٤١٤- فإنْ قيل : فإنَّك إذا قلتَ : "ما جاءني إلاّ زيدٌ" . ولم يكن غرضُك أن تنفيَ أن يكونَ قد جاءَ معه واحدٌ آخرُ ،كان المجيءُ أيضاً مجيئاً واحداً .
قيلَ : إنه وإنْ كانَ واحداً ، فإنَّك إنّما تُثْبِتُ أنَّ زيداً الفاعلُ له بأنْ نفيتَ المجيءَ عن كلِّ مَنْ سوى زيدٍ ، كما تصنعُ إذا أردتَ أن تنفيَ أن يكون قد جاءَ معه جاءٍ آخرُ (٢) وإذا كان كذلك ، كانَ ما قلناهُ من أنَّك إنْ جئتَ بـ"لا "العاطفةِ فقلتَ : "ما جاءني إلاّ زيدٌ لا عمرُو" كنتَ قد نفيتَ الفعلَ عن شيءٍ قد نفيتَه عنه مرةً صحيحاً ثابتاً كما قلنا فاعرفْه.

******

(1) يبين عبد القاهر عن أن ضمير الفصل في (زيد هو الجائي) أفاد قصرًا ، ولكن ليس من قبيل أن في الكلام نفيًا وإثباتًا صريحين مدلولاً عليهما معًا بالدلالة الصريحة بل المدلول عليه بالدلالة الصريحة هو الإثبات أمّا النفي فيفهم من سياقِ الكلام أي من طريق المعقول ، لا المنطوق فنفي المجيء عنه عَن غيرِ " زيد" لم ينطق به بأداة موضوعة للنفي أوقَعها على غير مجيءِ غير "زيد" ، ولكن بأمر معقول لازم للمنطوق ، وهو أنه لما كانَ المجيء المقصود لـ"زيد" مجيئاً واحداً خاصًّا ،كان النصُّ على " زيد "بأنه فاعله ، وإثباته له هو الدالُّ على نفيه عَن غيرِه فاجتمع إثبات صريح ، ونفي غير صريح بالإثبات . وما كان كذلك لم يكن نفيًا يصح معه)لا(من حيث تأتي لتنفي شيئاً منفيًا ، وإثبات ما قبلها القصر. ويكون ما أتت عليه من القصر مؤكدًا لما دل عليه ضمير الفصل قبلها من القصر .

(2) قوله: "كما تصنع إذا أردتَ أن تنفيَ أن يكون قد جاءَ معه جاء آخر" دال على أنه يقول بقصر الإفراد، وهي الشركة ، وأن كان قصر القلب هو الوارد عن الإطلاق .كورود الحقيقة عند انتفاءِ القرينةِ.

[أدوات الاستثناء سواء في دلالتها مع النفي على القصر]

٤١٥ - واعلمْ أنَّ حكمَ " غير " في جميعِ ما ذكرنا حكمُ " إلا " فإذا قلت : "ما جاءني غيرُ زيدٍ " احتملَ أن تريدَ نَفْيَ أن يكونَ قد جاءَ معه إنسانٌ آخرُ ، وأن تريدَ نفيَ أن لا يكونَ قد جاءَ وجاءَ مكانه واحدٌ آخرُ .
ولا يَصِحُّ أن تقولَ : "ما جاءني غيرُ زيدٍ لا عمرٌو" . كما لم يَجُزْ : "ما جاءني إلاّ زيدٌ لا عمرٌو " (١)

****

---

(1) هذا قاطع في أن القصر بطريق النفي والاستثناء أيا كانت أداة الاستثناء يحتمل إفادة قصر الإفراد ، أو قصر القلب. وليس مقصورًا على قصر القلب كـ"إنما" و"لا" العاطفة ، اللذين قصرهما عبد القاهر على إفادة " قصر القلب" ، وفي أيدينا " قصر الإفراد" وأنت تعلم أن الذهاب إلى أن القصر بـ"إنما" قصر قلب إنما هو على الغالب لا على القطع، وبيان عبد القاهر قاطع فيه قصر الإفراد ، وكذلك بيان النبوة قاطع فيه قصر الإفراد بـ"إنما": وذلك متمثل في ما رواه مسلم في صحيحه بسنده عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي، يَعْنِي فُلَانًا، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» متفق عليه، أن تحمله على القلب
ومثل هذا غير قليل في بيان النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

فصل في نكتة
تتصل بالكلام الّذي تضعه بـ"ما" و "إلا "

٤١٦ - اعلمْ أنَّ الذي ذكرناه من أنك تقولُ : "ما ضَرَبَ إلاّ عمرٌو زيداً "، فَتُوقِعُ "الفاعلَ" و"المفعولَ " جميعاً بعد "إلاّ" ليس بأكثَرِ الكلام ، وإنَّما الأكثرُ أن تقدِّم المفعولَ على " إلاَّ " نحوُ : "ما ضربَ زيداً إلاّ عمرٌو ". حتى أنّهم ذهبوا فيه أعني في قولكَ : "ما ضربَ إلا عمرٌو زيداً " إلى أنَّه على كلامين وأنَّ "زيداً "منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ ، حتى كأنَّ المتكلِّمَ بذلك أَبْهَمَ في أوَّلِ أمرِه ، فقال : "ما ضَرَبَ إلا عمرٌو" . ثم قيلَ له : "مَنْ ضَرَبَ"؟ فقال : "ضَرَبَ زيداً "[1]

****

وهاهنا - إذا تأملتَ - معنًى لطيفٌ يوجِبُ ذلكَ وهو أَنَّكَ إذا قلتَ : " ما ضرب زيداً إلا عمرٌو " كان غرضُك أن تَختَصَّ "عَمْراً" بضربِ "زَيْدٍ" لا بالضربِ على الإطلاق .

---

(1) على هذا يكون "زيدًا" منصوبًا بفعل مقدر، ويكون بين الجملتين فصل للاستئناف البياني (شبه كمال الاتصال) وهذا كمثل ما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: 36 - 37) (على قراءة بناء (يسبح) لغير الفاعل (يُسبَح)

وهذا التأويل في " ما ضرب إلا عمرو زيدًا " يحتاج إلى بيان لمقتضي الإبهام ثم الإيضاح بأسلوب الاستئناف البياني.

وليس كل تأويل صح نحوًا يصح بلاغة، ذلك أن التأويل البلاغي لا يكتفي بمطلق الصحة نحوًا لأن فللك شرطًا، وهو أن يكون هنالك مقتضٍ لبناء الكلام على هذا الوجه فإذا لم يكن ثَمّ مقتضٍ فلا يستقيم النظم بلاغةً ، وإن استقام نحوًا .

وإذا كانَ كذلِكَ وجبَ أن تُعَدِّيَ الفِعْلَ إلى "المفعولِ" من قَبْلِ أن تذكُرَ "عمراً" الذي هو "الفاعلُ" ؛ لأنَّ السَّامعَ لا يعقِلُ عنكَ انك اختصَصْتَه بالفعلِ معدًّى حتّى تكونَ قد بدأتَ فعدّيتَه .

أعني : لا يفهمُ عنكَ أنّك أَردْتَ أن تختصَّ "عمراً" "بضربِ "زيدٍ" حتى تذكرَه له مُعَدًّى إلى زيدٍ . فأما إذا ذكرتَه غيرْ معدًى فقلت: "ما ضربَ إلاَّ عمرٌو". فإنَّ الذي يقع في نفسِه أنك أردتَ أن تزعُمَ أنه لم يَكُنْ من أحدٍ غيرِ "عمروٍ" ضَرْبٌ وأنه ليس هاهنا مضروبٌ إلاّ وضاربُه عمرٌو فاعرِفْه أصلاً في شأنِ التقديم والتأخير(1)

(1) مهم أن يتبين عند عبد القاهر أن الكلام فيما إذا كان "الفعل" متعديًا، وليس في كل فعل. وهو يفيد أنه إذا ما كان مرادك أن تقصر فعلاً واقعًا على مفعول معين من فاعل معين فعليك حينئذ ألا تقصر الفعل غير مقيد بمن وقع عليه، لأن هذا سيخالف قصدك، ولن يكون بيانك حسن الدلالة والتمام، بل عليك أن تقيد الفعل بمفعول ثم تخصص به الفاعل.

وهذا القصد يوجب عليك أن تقدم "المفعول" مع "الفعل"، وأن تؤخر "الفاعل" وتجعله واليًا لـ(إلا) كل ذلك يقتضيه النظم، الذي هو توخي معاني النحو وقوانينه وأصوله ورسومه فيما بين معاني الكلم على وفق المعنى والغرض الذي يكون للكلام.

فالنزول على مقتضى المعنى والغرض هو الذي يوجب تقديم "المفعول"، وتأخير "الفاعل"، وبهذا يكون هذا الموضع مما يجب فيه تقديم "المفعول" على "الفاعل" وإلا عجز البيان عن الوفاء بحق الدلالة على المقصود. وذلك عقوق بالكلام، والسامع. فاحذره.

فصل
حوارٌ في ما الأصل أن تدخل عليه " إنما " وما يبدو أنه مخالف ذلك

(فقرة : ٤١٨) إن قيلَ : مضيتَ في كلامِك كلِّه على أنَّ " إنما " للخبرِ لا يجهلهُ المخاطَبُ ولا يكونُ ذكرُك له لأنْ تفيدَه إياه، وإنَّا لنراها في كثيرٍ من الكلامِ والقصدُ بالخبر بعدَها أن تُعْلِمَ السامع أمراً قد غَلِط فيه بالحقيقة ، واحتاجَ إلى معرفتِه ، كمثْلِ ما ذكرتَ في أوّلِ الفَصْل الثاني مِنْ قولك : إنّما جاءني زيدٌ لا عَمرٌو (١) وتراها كذلك تدورُ في الكُتب للكشفِ عن معانٍ غيرِ معلومةٍ ودلالةِ المتعلمِ منها على ما لا يعلمُ(٢)

قيل : أمَّا ما يجيءُ في الكلامِ من نحوِ :" إنّما جاءَ زيدٌ لا عمرٌو" فإنّه ، وإنْ كانَ يكونُ إعلاماً لأمْرٍ لا يَعلَمُه السَّامعُ ، فإنّه لا بدَّ مع ذلك من أن يُدَّعى هناك فضلُ انكشافٍ وظهورٍ في أنَّ الأمْرَ كالذي ذُكِرَ . وقد قسّمتُ في أولِ ما افتتحتُ القولَ فيها فقلتُ:" إنّها تَجيءُ للخبر لا يجهلُه السامعُ ، ولا ينكِرُ صحتَه، أو لِمَا تنزَّلَ هذه المنزلةَ ". وأمّا ما ذكرتَ من أنّها تجيْءُ في الكتبِ لدّلالة المتعلِّم على ما لم يعلمْه ، فإنَّك إذا

---

(1) ينظر الفقرة رقم (390) ص: 330 من الدلائل - ط: شاكر

(2) يعمد عبد القاهر إلى منهاج الإقناع والمحاجة الافتراضي في طرف الحوار والمحاجة الافتراضي، وهذا شأن المتلقي حين يكون نشط الأفق ، مستعد أي فراغ منه ويرد ما يختلج في صدره ينظر في أثر هذا التصور في المتلقي الافتراضي فيتخيل ما يمكن أن يحدث الوهم فيه، وما يمكن أن يثور فيه من اعتراض. وهذا نهج تراه حاضرًا في منهاج علمائنا في صناعة أسفارهم، وهو ما يعرف بمنهاج "إن قلت... قلت..." أو "إن قيل،، قلنا..."، أو "الا يقال ...، ألنا " ونحو ذلك من العبارات.

، وعمود الاعتراض هنا أن الواقع اللغوي البياني يؤيد ما ذهب إليه عبد القاهر من أنّ (إنما) لا تأتي لإفادة ما هو مجهول بل هي تتناول أمرًا سبق علمه .

تأملتَ مواقِعَها وجدتَها في الأمر الأكثر قَدْ جاءتْ لأَمْرٍ قد وَقَع العلمُ بموجِبِهِ وشيءٍ يدلُّ عليه .

مثالُ ذلك أنَّ صاحبَ الكتابِ قال في بابِ كان :" إذا قلتَ :" كان زيدٌ قد ابتدأتَ بما هو معروفٌ عندَه مثلُهُ عندك (ص/ ٣٥١)وإنما ينتظِرُ الخبرَ .

فإذا قلتَ : " حليماً " فقد أعلمتَه مثلَ ما علمتَ .

وإذا قلتَ : " كان حليماً " فإنما ينتظِرُ أن تعرِّفَه صاحبَ الصفة " .

وذاك أنه إذا كان معلوماً أنه لا يكونُ مبتدأ من غيرِ خَبَرٍ ولا خبرٌ من غير مبتدأ كانَ معلوماً أنك إذا قلتَ : " كان زيدٌ " . فالمُخاطبُ ينتظرُ الخبرَ .

وإذا قلتَ : " كان حَليماً" أنه ينتظر الاسمَ ، فلم يقعْ إذاً بعدَ " إنما " إلا شيءٌ كانَ معلوماً للسَّامِعِ من قبلِ أن ينتهيَ إليه . (١)

******

٤١٩- وممّا الأمْرُ فيه بَيِّنٌ قولهُ في باب ظننتَ: وإنما تحكي بعد" قلتُ"ما كان كلاماً لا قولاً(٢) وذلك أنه معلومٌ أنك لا تحكي بعد " قلتُ " إذا كنتَ تنحو نحوَ المعنى

---

(1) يعود قوله أنك إذا قلت : (إنما جاء) فإنك قبل أن تتكلم لا تجهله كان قد علمت أن مجيئاً قد كان في هذا التأني (إنما) الإخبار به، وإنما التأني لتعيين من كان منه المجيء الذي أنت تعلم قبل في من ثم هي على أصلها. صحيح أن الآتي والخبر تمامه معلوم، وإنما هو معلوم على عمومه.

ومعنى هذا أن هذا التأني لما جهل جملة، ولم يسبق إشارة على شيء منه فيصدر مدخول (إنما) معلوم ، ولذا فإن السامع ينتظر استكمال الخبر. كما إذا قلت : كان زيد فإن السامع ينتظر الخبر .

(2) أي تحكي بعد قلت " ما يفيد، ويحسن السكوت عليه فإذا قلت : قلت :إن محمدًا وسكت لم يصح أن هذا قول ،وليس كلامًا فيه يفرق بين القول والكلام فالقول من الشعر أعم من الكلام، والكلام لا يكون إلا ما كان ذا فائدة يحسن السكوت عليه.

إلا ما كَانَ جملةً مُفيدةً . فلا تقول: " قال فلانٌ : زيدٌ " وتسكت اللّهم إلاّ أنْ تريدَ أنه نَطَق بالاسمِ على هذهِ الهيئة كأنك تريد أنه ذكرَه مرفوعاً . (١)

ومثْلُ ذلك قولُهم : إنّما يحذَفُ الشيءُ إذا كانَ في الكلامِ دَليلٌ عليه . إلى أشباه ذلك مما لا يُحْصَى .

فإنْ رأيتَها قد دَخَلَتْ على كلامٍ هو ابتداءُ إعلامٍ بشيءٍ لم يعلَمْه السامعُ ، فلأنَّ الدليلَ عليه حاضرٌ معه والشيءَ بحيث يقع العلمُ به عن كَثَبٍ. (٢)

واعلمْ أنه ليس يكادُ ينتهي ما يعرِضُ بسببِ هذا الحرفِ من الدقائق.(٣)

---

(1) هذا أمر بين لا نزاع فيه . لأن محل الإخبار حينئذ هو صدور القول من فلان، وليس محل الإخبار الفاعل بما يكون من زيد ، كما في قولك : قلت: قال زيد كريم" فالأمر مختلف عنه ، كما لا يخفى على مثلك.

(2) يشير إلى أن عدم العلم سبب قطعي في الجهل به ، الفعلي في الخبر نفسه فالخبر نفسه أهل لأن يكون غير مجهول لأحد فكان العداد قبل حال الخبر ، لا حال الجاهل به متعرضًا به، ولأنه بلغ من تمكن الجهل به ، أن جهل ما لا يليق أن يجهل، لأنه ليس من شأنه أن يجهل فأنت إذا قلت لأحد : " لم تطلع الشمس من المشرق" فما دخلت عليه (إنما) من شأنه أن لا يجهل بل ليس قابلاً لأن يكون مجهولاً فمخاطبك تجاوز جهله كلّ متوقع فتناول من فهمه توهمه ما لا يصلح أن يجهل من عاقل . ففي هذا من الجهالة ، والطعن في عقله ما ليس وراءه.

(3) في هذا دعوة من عبد القاهر إلى أن نعمد إلى استقراء مواقع (إنما) في الكلام العالي البليغ عند تجويده وحفظه ، والكلام العالي المعجز كتابًا وسنة ، للوقوف على ما تثمره من لطيف دقائق المزايا وطريف العطايا ، وهذا لا يكون إلا بحسن البصر والتدبر بعيدًا عن الانكفاف في محاريب أسفار البلاغيين التنظيرية ، ولا يكون إلا بالانخلاع من تلك الأسفار زادًا إلى العلم بما جاءت به أسفار البيان في أفق العالي المعجز ، والعالي البليغ من فنون الإبانة والتصوير في سياقات متنوعة المتناسلة ، والأغراض المتكاثرة المتغايرة في آفاق منهاجية الإبانة المتجددة التي تخرج عن الجوعربية وأصولها ورسومها .

مواقع أنسِ "إنما" بـ"لا" العاطفة ، ومواقع نفُورها منها

(فقرة: ٤٢٠) ومِمّا يَجِبُ أن يُعلَمَ أنه إِذا كانَ الفعلُ بعدها فعلاً لا يَصِحُّ إلاّ من المذكورِ ولا يكونُ من غيرِه كالتذكُّرِ الذي يُعْلَمُ أنه لا يكونُ إلاّ مِنْ أولي الألبابِ لم يحسُنِ العطفُ بلا فيه كما يحسنُ فيما لا يختصُّ بالمذكورِ ويَصحُّ من غيرِه . (١)

---

(1) في اختصاص الفعل بالفاعل دليل على انتفائه عن غيره فكان في هذا قوة النفي الضمني الذي في (إنما) وكأنّه اجتمع فيها رافدان من روافد النفي فقواه فكان فيها قوة النفي المدلول عليه بأداة موضوعة له كما في "ما" و"إلاّ" .

ونستشعر أن "إنما" لم تكن متمحضة للدلالة على القصر: بإثبات الحكم للمذكور ونفيه عن غيره، بل تثبته للمذكور على وجه الاختصاص جاء من مادة الفعل وما أسند إليه، وليس من "إنما" وإنما فيها جاءت للتعريض التخصيص. وتجريد الأدوات من معانيها التي وضعت لها، وإقامتها للدلالة على معنى آخر قليل في لسان العرب

وإذا ما كانت "لا" العاطفة ، التي تأنس بـ"ما" وإلا لقوة النفي فيها فكذلك حالها مع ما كان النفي فيه للدلالة على النفي قوية حصينة متدرجة ، وهذا ما يتحقق مع ما كان الفعل خالصا بفاعله .

في هذا إشارة إلى أن تكاتف الروافد للدلالة على معنى بطريق التلويح تجعل الدلالة حينئذ في قوة الدلالة بالتصريح .

ولعلّ هذا يذكرنا بأمر مشابه عند علماء الحديث يتمثّل في أن تعدّد طرق الحديث الذي في سنده شيء من الضّعف يجعل له قوّة تقارب قوةَ الحديثِ الذي سنده صحيح فيؤخذ به فيما يؤخذ فيه بالحديثِ الصحيحِ سنده .

ويمكن أن يستثمرَ ذلك في حال الشعوب فإذا اتحدت الشّعوب الضّعيفة عادها أمكنها أن تتصدّى الأقوى عاداها ففي اتحادِ الضُّعفاءِ ما يقيهم سوءَ قوي على ضعفهم، ويبلغها ما لا تنالها بتفرّقها .

تفسيرُ هذا أنه لا يحسنُ أن تقولَ : إنما يتذكرُ أولو الألبابِ لا الجُهَّالُ . كما يحسنُ أن تقولَ : إنما يجيءُ زيدٌ لا عمرٌو . (١)

ثم إِنَّ النفيَ فيما يجيءُ فيه النَّفْيُ يتقدَّم تارةً ويتأخَّرُ أخرى (٢)

فمثالُ التأخير ما تراه في قولِكَ : " إِنّما جائني زَيْدٌ لا عمرٌو "

وكقولِه تعالى:﴿إِنَّما أَنت مذكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢)(٣)

---

(1) التذكر يراد به الاعتبار بالشيء، لا مجرد ذكره، ولذا جعله لأولي الألباب، ولب كل شيء خالصه وخياره فاللب هنا خالص العقل ونقيه وسيده . وفي هذا آية على أن التذكر الذي هو الاعتبار المذكور الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بهذا الضرب من العقل ، وأصحابه في الناس قليل فكم من عاقل ظالم لم يعقل قلبه ولم يطع عقله وطريقه شوارده وأوابده وغرائبه ، والذي يعتبر بشيء من ذلك فمثل هذا الذي يدخل في أولي الألباب البتة فانظر في أمرك ، إلى أي أنت تنتسب، فإنه أهم لك من نسب جدك فأنساب الأجداد ليست مناط محمدة أو مذمة ، وإنما المذمة والمحمدة لأنساب القلوب والعقول والأعمال.

(2) النفي الآتي مع (إنما) يكون بـ(لا) العاطفة ، وبغيرها إن كان بـ(لا) فهو آت من بعد جملة (إنما) ، وإن كان بغيرها فإنه يأتي مع (إنما) في سياقها حينا، وتسبقه حينا فموضعه منها ليس بذي أثر في أسلوبه أو نوعها .

وكان حريًا بعبد القاهر أن ينظر في طبيعة المعاني التي تحملها جملة (إنما) وكان النفي فيها سابقًا لـ(إنما) وأن ينظر في طبيعة المعاني التي تحملها جملة (إنما) وكان النفي فيها تاليًا (إنما) أهما سواء ، أم أن في طبيعة المعنى أو الغرض ما يقتضي التقديم أو التأخير ؟ ألأنه لا يمكن أن يكون التقديم والتأخير في موضع النفي من (إنما) سواء.

وهذا لمح طيب يحتاج إلى استقراء وتصنيف ، ثم تحليل ، وتأويل ، واستنباط الحقائق ، وتحويلها في كليات تقرر بالحجة والبرهان الصحيح فانتصب جوادك (عقلك) واتشق سيفك (قلمك) فإنها منازل الفرسان .

(3) يقول الله تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ

وكقولِ لبيد :

.... ★ إِنَّما يَجْزِي الفَتى لَيْسَ الجَمَلْ (١)

عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية: 17- 26)

أورد الحقُّ -سبحانَه وتعالَى- آيات هي أولى بأن تكون محل نظر واعتبار، وهي آيات قائمة فيهم لا تغيب عنهم، ولا يغيبون عنها، ولكنهم لا ينظرون إليها اعتبارًا، وكأنها ما خلقت إلا لمنافع يتمتع فيها متاع الدنيا ، وهي التي تنسى عطاء منافع الآخرة من منافع الدنيا فأمر رسوله -صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم- أن يذكر بهذه المنافع الأخروية لهذه الآيات فهي أحقُّ بالتذكر والانتفاع مما حرص عليه أولئك . أي فذكر بوجوب النظر إلى تلك الآيات بما يجمع المنفعتين: الدنيوية العاجلة الزائلة والأخروية الآجلة الباقية ثم قال له: ﴿ إنما أنتَ مذكر. لست عليهم بمسيطر﴾ في هذا إقبال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإشفاق عليه من أن يحمل نفسه فوق ما هو مأمور به، وإنما عليه القيام به حق القيام. وقصره على حسن التبليغ ، ونفى عنه أن يكون أهلا لأن يسيطر عليهم فيحملهم على الامتثال فيعتبرون بهذه الآيات في ما فيه صلاح مصيرهم كانتفاعهم بها في مسيرهم في الدنيا فما جاء عقب (إنما) قوّى النفيَ المتأخر النفيَ الضمني الذي تقدم في (إنما)

(1) يقول أبو هلال العسكري في " جمهرة الأمثال": "المثل للبيد قاله في قصيدته التي أولها

إن تقوى ربنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي والعجل

إلى أن قال

أعمل العيس على علاتها * إنما ينجح أصحاب العمل

فاعقلي إن كنت لما تعقلي * ولقد أفلح من كان عقل

وإذا جوزيت قرضا فاجزه * إنما يجزي الفتى ليس الجمل

ومعناه إنما يجزي على الإحسان بالإحسان من هو حر وكريم فأما من هو بمنزلة الجمل في لؤمه وحمقه فإنه لا يوصل إلى النفع من جهته إلا إذا قسر وقهر ") اهـ

وعبد القاهر يستشهد به على أن (إنما) يأتي بعدها النفي فيقول (ليس الجمل) تصريح بالنفي الذي هو مضمن في (إنما) ومجيء النفي فيها آية على تنزيل الخبر منزلة ما يجهله

ومثالُ التقديم قولُكَ : "ما جاءني زيدٌ ، وإنّما جاءني عمرٌو " وهذا ممّا أنتَ تعلَمُ به مكانَ الفائدةِ فيها ، وذلك أنكَ تَعْلَمُ ضَرورةً أنّك لو لم تُدْخِلْها وقلتَ : "ما جاءني زيدٌ ، وجاءني عمرٌو" لكانَ الكلامُ مع من ظنَّ أنّهما جاءاكَ جميعاً ، وأنَّ المعنى الآن مع دخولِها أنَّ الكلاَم معَ من غَلِطَ في عينِ الجائي فظنَّ أنه كان زيداً لا عمراً(١) .

****

[أثر انضمام"ما" إلى"إنَّ" فِي "إنّما"]

٤٢١ - وأمرٌ آخرُ، وهو ليس ببعيدٍ، أن يظنَّ الظانُّ أنَّه ليس في انضمامِ "ما" إلى "إنّ" فائدةٌ أكثرُ من أنها تُبطِلُ عملَها ، حتّى ترى النَّحويين لا يزيدون في أكثرِ كلامِهم على أنّها كافَّة ومكانُها هاهنا يُزيلُ هذا الظنَّ ويبطلهُ . (٢)

المخاطب على الرغم من أنه مما يتحصل فالفعل في منطق العقل والواقع قاضيان بأنّ الجزاء إنما يكون من قبل الطبيب، ولا يكون من المجهول الغافل .

(1) يشير عبد القاهر إلى أن البيان بالجمع بين جملة الإثبات بغير (إنما) وجملة النفي يكون في مقام يكون المخاطب ذاهبًا إلى أن الفعل قد كان من "زيد" و"عمرو" معا ، فتصحح له اعتقاده بإثبات صريح لـ"زيد" ونفي صريح عن "عمرو"

كذلك يذهب عبد القاهر إلى أن مجيء "إنما" في الإثبات الصريح، وصريح النفي ، فأنت تنفي في مقام من يرى أن "عمرًا" هو الذي جاء، وليس "زيد" فتقلب عليه اعتقاده . كذلك يذهب عبد القاهر .

ومَخرج هذا أن قصر القلب يحتاج إلى توقي النفي في جملتين في نفي ضمني في (إنما) ونفي صريح في الجملة التي بعدها فكان اجتماعهما أقدر على تحقيق القلب .

(2) أي تكف "إن" عن العملِ الإعرابي فيكون ما بعد "إنما" مبتدأ مرفوعًا ، لا اسمًا لـ" إن" منصوبًا، وكان حرَى بالنحاة أن ينظروا إلى أن يكون لـ" ما" أثر في عمل" إنّ" الإعرابي ، ولا يكون له أثر في عملها الدلالي . وما أثر الإعرابي إلا آية على الأثر الدلالي،

وذلك أنّك ترى أنّك لو قلت : "ما جاءني زيدٌ، وإنَّ عمراً جاءني" لم يُعقَلْ منه أنّك أردتَ أن الجائي "عمرٌو" لا "زيدٌ" بل يكونُ دخولُ "إنّ" كالشَّيْءِ الذي لا يحتاجُ إِليه ، ووجدتَ المعنى يَنْبو عنه. (١)

****

إفادة "إنــما التعريض"

٤٢٢- ثم اعلمْ أنك إِذا استقريتَ وجدتَها أقوى ما تكونُ وأعلَقَ ما ترى بالقلب ، إِذا كان لا يُرادُ بالكلامِ بعدَها نفسُ معناه ، ولكنَّ التّعريضَ بأمرٍ هو مقتضَاه (٢)

فهو خادم له ، لأنّه معرب عنه فكيف تعمل (ما في الخادم) المعرِب (، والتعمل في المخدوم) المعرَبِ عنه ؟

(1) يريد عبد القاهر أنك لو قلت:" وإنّ عمراً جاءني " أن تجمع بين إثبات المجيء لعمرو، ونفيه عن زيد، أمّا أن يستفاد هذا من الجملتين معًا:"ما جاءني زيد"،و" وإنّ عمراً جاءني" فالتعريف فيه البتة ، إلا أنه لا يكون حينئذ لـ(إن) أثر في هذا . لأنك إذا قلت: "ما جاءني زيد"، و"عمرو جاءني" كان المعنى هو هو إلا أن الذي غاب هو توكيد نسبة المجيء إلى "عمرو" ،وجلي أن (ما) في "ما جاءني زيد"، و" وإنّ عمراً جاءني" ليست هي (ما) التي في (إنما) .

وهذا الذي قاله عبد القاهر يبين أن أثر (ما) حين تنضاف إلى (إن) فتكون (إنما) في عملها الدلالي يضاف إلى ما قاله النحاة في عملها الإعرابي فيتكامل النّظران: النّحوي والبلاغي.

****

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أمور :

= التعريض ليس أسلوبًا بل هو غرض له أساليب عدة فليس كالتقديم أو الحذف أو الفصل والوصل أساليب بل هي أغراض بل هو غرض له عدة أساليب تؤدّيه في سياقات القول، وليس في التركيب ما وضع للتعريض كما وضع "الاستثناء المفرغ" للقصر والتخصيص مثلاً بل الأمر مردُّه إلى السياقات التي ترد فيها التراكيب ،وأنماطها

والتصرف البلاغي على منحيين

الأول: يحسن فوق الأغراض، ويرصد الأساليب والطرق لتحقيق هذا الغرض مثل كالتأكيد والقصر ولعل بعض التشبيه، وهذا ينفع لمن يراد تدريبه على البلاغة الإنشائية "الإفهامية" أي من يراد أن يصنع أديبًا

والآخر يحسن فوق الأساليب مثل الذكر والحذف والتقديم والتأخير... وهذا يدرز تفيده الأساليب، وينفع من يراد تدريبه على البلاغة الفهمية أي بلاغة قراءة ما تم إبداعه.

ورأيت جل أسفار البلاغيين تخلط بين المذهبين، ولم تخص سفرًا لمذهب. وأرى على عدي عدم الخلط يجعل البلاغة الإفهامية التي تصنع أديبًا سفرًا

والبلاغة الفهمية القرائية التي تستنبط المعاني من الإبداع الذي تم سفرًا..

= والتعريض ينتمي إلى باب النَّظر الدلالي التركيبي فهو أقرب إلى المجاز والكناية، والتورية... وما شاكل ذلك من كثير من فنون البديع الدلالي. وليس التعريض بِمقصور على مقامات التلويح بالمذمَّة، بل هو منظور فيه إلى كيفية الدلالة ومستواها، ومخرجها.

ولعل البلاغي حريٌّ بِه ألَّا يعكف في محرابِ النظر في استنباط المدلول من الدال، وإن كان هذا في نفسه جليلاً، بل عليه أن يطوفَ على الأقل حول بيانِ مخارجِ الدلالة من الدوال، ومناهجها، ومستوياتها ففي هذا من المزايا ما لا يليق بنا أن نرغبَ عنها.

والتعريض ليس أهلاً لأن يصنف في باب المجازِ أو الكناية، لأنه ليس من قبيل الدلالة بمفهومها المعهود، بل هو من قبيل الإفادة، والتي تسمى "مستتبعات التراكيب". وابن الأثير قد نص على ذلك. قال:

" وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي والمجازي فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: "والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان والبرد قد آذاني" فإنَّ هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعًا في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازًا، إنما دل عليه من طريق المفهوم،

.... والتعريض أخفى من الكناية؛ لأنَّ دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم، لا بالوضع الحقيقي والمجازي.

وإنما سمي "التعريض" تعريضًا؛ لأنَّ المعنى فيه يفهم من عرضه أي: من جانبه، وعرض كل شيء جانبه.") المثل السائر: 2/186-ط: محيي الدين (

نحوُ أنَّا نعلمُ أنْ ليس الغرضُ من قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الرعد:١٩) (١) أن يعلمَ السَّامِعُون ظاهرَ معناه ، ولكن أن يُذمَّ الكفارُ ، وأنْ يُقالَ : إنهم من فرطِ العِنادِ، ومن غَلَبَةِ الهوى عليهم في حكمِ مَنْ ليس بذي عقلٍ. وإنكم إنْ طَمعْتُم منهم في أن ينظروا ، ويتذكروا، كنتُمْ كمن طَمِع في ذلك من غيرِ أولي الألباب .
وكذلك قولُه :﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها ﴾(النازعات: ٤٥) وقوله عزَّ اسمُه : ﴿ إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْب﴾(فاطر: ١٨) المعنى على أَنَّ مَن لم تكنْ له هذه الخَشيةُ ، فهو كأنه ليس له أذُنٌ تسمعُ وقلبٌ يَعْقِلُ . فالإنذارُ معه كلاًّ إنذارٌ . (٢)

= الدلالة (إنما) على ما يقتضيه صريح ما دخلت عليه هو ما يسميه الأصوليون بما سيق له القصد سوقًا أصليًّا. وهذا عندهم أقوى مما صرح به، ولم يسق الكلام له سوقًا أصليًّا بل تبعيًّا فالاعتبار بالسوق لا بالتصريح ، وهذا أدخل في النظر البلاغي فالاعتداد إنما هو بالقصد لا بأوضاع الألفاظ . وهذا يؤكد تبعية على وعي العقل البلاغي والأصولي من قبل بالسياق ، وتأثره بالمنهج السياقي في منهاج الأصولي البلاغي ، يعرفه العقل العربي المسلم من قبل أن تجلب إلى ديار العرب بإثارة من آثار العقل الأعجمي.

(1) قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الرعد:19) قوله تعالى : (أنما أنزل) ليس (إنما) هي التي تفيد القصر، لأن (ما) هو موصول. والأصل أن يفصل كتابةً عن (إن) : (أنَّ ما) أي أفمن يعلم أن الذي أنزل إليك من ربك الحق .

وقوله: "إنما يتذكر أولو الألباب" ليس القصد الرئيس إلى إثباتِ التذكر لأولي الألباب ، ونفيه عن غيرهم ، بل القصد الرئيس إلى بيان أنَّ مَن لم يعلم أن الذي أُنزِلَ إلى النبي صلى الله عليهِ وَعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلم الحق ليس من أولي الألباب ، وهذا إنما فيهم من عرضِ الكلام، وليس في الكلام تمييز بين التعريضِ وإرادةِ المذمة.

(2) في هذا إفادة أن الذين لا يخشون الآخرة ، ولا يخشون ربهم بالغيب فقدوا كل وسائلِ الإقناع بالإنذار من سمع واع وقلب يفقه ، ومؤدى هذا أن من يفقد تلك الإقناع فهو في عالم الأنعام أدخل، وهذا المعنى قد تواتر في مواضع عدة من القرآن، وكان يصرح أحيانًا بأنهم

ومثالُ ذلك من الشعرِ قولُه :

أنَا لمْ أرزقْ محبّتَها ★ إنّما لِلعبدِ ما رُزِقا(١)

الغرضُ أن يُفهِمَك من طريقِ التَّعريضِ أنَّه قد صار يَنْصَحُ نفسَه ، ويُعلِم أنه يَنْبغي له أن يقطعَ الطَّمعَ من وصلِها ، ويَيْأسَ من أن يكونَ منها إِسعافٌ .

صم بكم عمي، وأنهم كالأنعام بل هم أضل. إلا أن في «إنما يتذكر أولو الألباب» كان إيراده بطريق التعريضِ فكان منه أوجع .

(١) البيت للعباس بن الأحنف ، وهو يحدث نفسه مصبرًا ، وفي هذا إلحاح إلى عظيم ما هو مقبل عليه من تيارات تلزمه الإعراضِ والحرمانِ

يقول:

نام من أهدى لي الأرقا * مستريحًا زادني قلقَا

لو يبيت الناس كلهم * بسهادي بيض الحدقا

كان لي قلب أعيش به * فاصطلى بالحب فاحترقا

أنا لم أرزق محبتها * إنما للعبد ما رزقَا

وفي تقديمه المسند إليه (أنا لم أرزق محبتها) إشارة إلى أن ما وقع به من الحرمان لم يقع بغيره فهو المنفرد بذلك ، وهذا من رحم إحساسه بعظيم ما حل بهِ . ومثل هذا يصور لك عظيم يأسه من وصلها ففي هذه إفادة من عرضِ الكلام أنه ماض إلى أن يقيم نفسه مقام الإصرار على اليأسِ من وصلها فإنه السبيل له إلى ما لم يرزق.

ولا يخفى عليك أن قوله "للعبد" عام إلا أنه يريد به نفسه، وتلك مسالك من مسالك العربي تصرح بالعام وتوري به الخاص وفق إشارات وقرائن الكلام تكتنفه، وهذا يدلك على أن العرب لا يحبون أن يكون الكلام كله تصريحًا فالتلويح مما يكون فيه شأن له، وليس عند أولى الألباب مثل لذة التفكير والتدبر، وهم الذين يفرون من شيء كمثل ما يكون من الانكشاف والسفور، نبلاء لا يحبون الكلام الذي يلقى عليه الدهماء وغيرهم.

وأذكر في هذا كلمة سمعتها من أستاذي الجليل "أ.د عبد الرحمن عثمان" أسكنه الله فسيح جناته وكان يدرس لي النقد الأدبي عام 1973-1974م وقد سأل في آخر محاضرة من العام أحد الطلاب :أي الناديين الأهلي أم الزمالك يشجع؟ فقال كلمة حفظتها، ولا أخذها ضابطًا

ومن ذلك قوله: وإنَّما يعذرُ العُشَّاقُ مَنْ عَشِقَا(١)

يقولُ : إنَّه ليس يَنْبغي للعاشقِ أن يلومَ من يَلومُهُ في عشقِه، وأنَّه ينبغي أَن لا يُنكَرَ ذلك منه ، فإنه لا يَعْلَمُ كُنْهُ البلوَى في العِشْقِ ، ولو كان ابْتُلي به لعَرفَ ما هو فيه فَعَذَره .

وقولُه: ما أَنتَ بالسَّبَبِ الضَّعيفِ * وإنّما نُجْحُ الأُمورِ بقوَّةِ الأسبابِ

فاليومَ حاجَتُنا إِليكَ وإنّما * يُدْعَى الطَّبيبُ لِساعةِ الأَوْصابِ(٢)

يقولُ في البيتِ الأول : إنّه ينبغي أن أنْجحَ في أمري حِينَ جعلتُك السببَ إليه .

وقولنا، قال "أن الأنسب في ما يمكن لأحد من الندماء أن يلغي فيه" لكلمة عالية جدًا. ولو فقهها طالب العلم لترك الندماء ما هم قادرون على التفوق فيه، وليتخذوا عمليات الأمور يروضونها فلهم.

(1) في متعة يضرب من يلوم العشاق على ما يكون منهم بأنه ذو قلب لم يمسه الهوى، وقلب كهذا الحجر قلبه فالعشق حياة القلوب عند أهل الهوى، وأهل العشق يلومون الأليم من الهم، لأنهم معذورون فلو مس العشق قلوبهم ما لاموا عاشقا فليس على العاشق من حرج.

(2) ينسب البيتان لأكثر من شاعر، وهذا البيتان يبنيان على الحجاج الشعري، ونستطيع القول فيهما إن ترتيبًا يرتب النتائج على الأسباب، وهم بالرغم من أن حركة المعنى فيهما تجري في مضمار الحجاج فقد يريدان من قول الشاعر بعد في ما من قوة التأثير ما يجعل المخاطب بهما في غالب ما يحمل من المعاني التي يراد إيصالها إلى قلب السامع فالبلاغة الشعرية فيهما لم تنضب بلاغة الحجاج.

صدر الشاعر قوله بتقرير حقيقة لا يستطيع المخاطب أن يدفعها، لأنه في فعلها مقدمة يطيقها، قرر له أنه ليس بالسبب الضعيف فهو بهذه المقدمة لا يخذل، ويجعل في قضيته وفاءً لا بد من أن يسلم بما يفتتح خطابه به، وحينئذ يبني على هذه المقدمة مقدمة أخرى لا يمكن دفعها: وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب. كل ذلك يقتضي منطق العقل ومنطق الواقع إلا إذا كان ذلك ما يقهر منطق العقل ومنطق الواقع ومنطق سنن الحياة.

ويقولُ في الثاني : إنَّا قد وضعْنا الشيءَ في موضِعِه ، وطلبنا الأمرَ من جهَتِهِ حينَ استعنّا بك فيما عرضَ من الحاجة ، وعوَّلنا على فضلِكَ . كما أنَّ مَنْ عوَّل على الطبيبِ فيما يعرِضُ له من السُقْم ، كان قد أصابَ بالتَّعويلِ موضِعَه وطلب الشيءَ من مَعْدِنه .

***

٤٢٤ - ثم إنّ العجَبَ في أنَّ هذا التعريضَ الذي ذكرتُ لك لا يحصُلُ من دُونِ "إنما" فلو قلتَ: "يتذكَّرُ أولو الألباب"، لم يدلَّ على ما دلَّ عليه في الآية ، وإنْ كان الكلامُ لم يتغيَّرْ في نفسِه ، وليس إلاَّ أنه ليس فيه " إنما " .

والسَبَبُ في ذلك أنَّ هذا التَّعريضَ إنّما وقعَ بأن كان من شأنِ " إنَّما " أن تضمَّنَ الكلامُ معنى " النفي" من بَعْدِ " الإثباتِ" والتصريحِ بامتناعِ التذكُّرِ ممن لا يَعْقِل ، وإذا أُسقِطَتْ من الكلامِ فقيل : " يتذكَّر أولو الألباب" كان مجرَّدَ وصفٍ لأولي الألباب بأنهم يَتذكَّرُون ، ولم يكنْ فيه معنى نفيٍ للتذكرِ عمَّن ليس منهم .

ومحالٌ أن يقعَ تعرضٌ لشيْءٍ ليس له في الكلام ذكرٌ ، ولا فيه دليلٌ عليه . فالتعريضُ بمثلُ هذا أعني بأن يقولَ : " يتذكرُ أولو الألباب" بإسقاطِ " إنما " يقعُ إذَنْ إنْ وقع بمدحِ إنسانٍ بالتيقُّظ ، وبأنه فعلُ ما فعلَ ، وتنبهُ لِما تنبَّهَ له ، لعقله ولحسنِ تمييزِه، كما يقال : " كذلك يفعلُ العاقلُ "، و" هكذا يفعل الكريمُ" " . (١)

في قوله: "ولما نجح الأمور بقوة الأسباب" تعريض بأن كل حاجة هو سببها هي المحال ناجحة . ولذا جاء في البيت التالي صرح بالنتيجة ، وبيّنا وجه اتخاذه سببًا إلى تلك الحاجة خاصة فيقول) ولما ادعى الطبيب لساعة الأوصاب (وأنت طبيب تلك الحاجة فلذلك كان لزامًا أن تدعى إلى تلك الحاجة فقوله)ولما ادعى .... (تعريض بأن حاجته إليه يجب أن تقضى.

***

)1(يشير عبد القاهر إلى أن النفي القاطع في)إنما(هو الذي يحقق في صحة الإثبات فائدة التعريض ، وهذا النفي الضمني غير متحقق في الكلام المتروك فيه)إنما(

وهذا موضعٌ فيه دقةٌ وغموضٌ ، وهو مما لا يكادُ يقعُ في نفسِ أحدٍ أنه ينبغي أن يُتعرَّفَ سببُه ويُبحثَ عن حقيقة الأمرِ فيه . (١)

****

(1) يشير عبد القاهر إلى مخرجِ التعريضِ من القصر بـ(إنما) دون غيرها من طرقِ القصر أو غيرها من طرق الجمعِ بين الإثبات والنفي في قولٍ لطيف ، أو ما ليس من قبيل الجمع بينهما كما في قول [illegible] ، وقد سأله الحارث : [illegible] : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . وأنه مما لا يكاد يلتفت إليه [illegible] ، وترصد حركته وفي هذا تحفيز واستفزاز وإغراء بالقيام بالفاعلية [illegible] لاستقراء [illegible] كل بيان بليغ ، وتحليلاً وتأويلاً وتصريفًا ، واستنباطًا للكليات الضابطة كما هو شأن النظر البلاغي العلمي ، لتكون منظري يقتدى به في إحسان [illegible] إلينا من فرائد البيان العالي المبدع ، والبيان العلي المعجز .

عودٌ إلى تقرر
ما تأنَسُ بِه "إنما"
مِنْ مقامات التنزيل على خلافِ الظاهر

٤٢٥- وممّا يجبُ لك أن تجعلَه على ذُكرٍ منك من معاني " إِنما " ما عرَّفتُك أولاً(١) من أنّها قد تدخلُ في الشيْءِ على أن يُخيّلَ فيه المتكلِّمُ أنه معلومٌ ، ويدَّعي أنه من الصحَّةِ بحيثُ لا يدفعُه دافعٌ (٢)

كقوله : إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ (٣)

---

(1) أي في الفقرة رقم (390-391) ص 330-331 (ط: شاكر)

(2) في هذا من عبد القاهر تأكيد لما سبق بيانه، وتأسيس لأمر جديد:

أمّا التأكيد ففي بيان أن (إنما) تأتي لما ليس بمعلوم والأمر يقتضي ذلك العدول عن المعهود في شأنها . وأمّا التأسيس ففي بيان مقتضى التنزيل ، ومبناه ، وأن هذا التنزيلَ مبنيّ على تخييل المتكلم أن هذا المجهول معلوم لما فيه من شواهد تجعل من شأنه أن يكون معلومًا ، وَإن كان في واقعه مجهولاً الأمر خارج عنه ، وأنّ من جهله إنما قصر في الفعل بما يجب عليه من العرفان بِه ، وظلمه ، وغيره ، وكأن فيه هذا شوبَ الاتهام لمن كان به جاهلاً فعَدلُ الأمرِ أن يكون معلومًا مذكورًا .

ولا يخفى عليك أن هذا التخييل ليس من سبيل الاستعارة بل هو تخييل تستولده النظم ، وهذا يفتن إلى فريضة استقراء طرائق التخييل في الكلام البليغ ، وتحليلها وتأويلها وبيان مخارجه منها . فهذا من الموضوعات البكر التي لم يلتفت إلى أحياء موتها، واستزراعها ، واستثمارها فيه جهل.

(1) سبق أن بينت عطف البيت من طائف ، واقتضاء المدح استعمال "إنما" وما فيه من تخييل أن ما عتب به مصعب أمر هو المعلوم لكل منصف، ومن جهله قد ظلم . ولكيف أن الشاعر باستعماله "إنما" قد تأتى للمعنى في الطريق الذي هو أولى به، وذلك مفتاح من مفاتيح الشاعرية، لأن حسن المدخل وإتيان المعنى من الطريقِ الأليق به هو المركب

ومنَ اللطيفِ في ذلك قولُ قَتبَ بن حِصْنٍ :

أَلا ، أيُّها النَّاهِي فَزارةَ بَعْدَما * أجَدَّتْ لِغَزْوٍ، إنّما أنْتَ حالِمُ (١)

ومن ذلك قولُه تعالى حكايةً عن اليَهُود :﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ قالُوا إِنّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:١١) دخلتْ " إِنّما " لتدلَّ على أنَّهم حين ادَّعَوا

المجد للبيت في بلاغة البيان وكما أنّ الكلام عن طريق الإيحاء فيه ملك لكل شاعر له منهاجه إلى البيان إلى معانيه، وهذا ما يتميز به الشعراء ،وهو ألطف السمات التمايز بين الشعراء، وهو باب من النظر البلاغي في البيان جد دقيق ولطيف وطريف أيضًا ، التنقيض عجيبه.

**********.

(1) ينسب البيت لأبي حرجة الفزاري، ولغيره ، وبعده أبيات حرًى أن يحفظها في فؤادِهِ كل حر فتستفزه إلى المعالي:

بلى كلُّ حرٍّ أن يبيت بِوترِه * ويُمنعَ منه النّومُ إذا أنت نائمُ
أقُولُ لفتيان العشيِّ تروحوا * على الجُرْدِ في أفواهِهنّ الشكائمُ
قِفُوا وقفةً مَنْ يَحيَ لا يخزَ بعدها * ومنْ يُخترَم، لا تتبعْهُ اللوائمُ
وهل أنت إن باعدت نفسك عنهم * لتسلم في ما بعد ذلك سالم

والبيت قبل الأخير (قفوا وقفة من يحيى ..) جدير بأن يقام في كل ميدان من ميادين أرضِ الإسلام يكون منهاج حياة ،يستفز الأحرار إلى أن يدمغوا الطواغيت، ويخذلوا إخوان الشياطين ، وهم اليوم كثر .
ومن الإحسان لنفسك أن تراجع أثر هذه الأبيات في نفس "إبراهيم بن عبد الله بن الحسن" عند قتاله أصحاب أبي جعفر المنصور ،لما رواه له "المفضَل الضبي" صاحب الاختيارات .راجع: أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (ج:3ص305)

لأنفسهم أنهم مُصْلِحُون ، أظهروا أنّهم يدَّعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً . ولذلك أكَّد الأمرَ في تكذيبِهم والرَّدَّ عليهم ، فجمَعَ بين " ألاَ " الذي هو للتَّنبيه ، وبين " إِن " الذي هو للتأكيد ، فقال : ﴿ ألا إِنَّهم هُم المُفْسِدون ولكنْ لا يَشْعُرون﴾(البقرة:١٢) (١)

(1) قال تعالى في شأن المنافقين : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) (البقرة:8-12) في هذه الآيات بيان لشأن المنافقين ، وما قاموا عليه حياتهم من الخداع والدعاء والتجاهل في المراوغة وبلوغهم طلبتهم في إفساد الحياة ، لتكون لهم الغلبة ، وهذا نهج اتفقوا فيه في كل عصر ومصر مقيت الحياة .

والقرآن الكريم يسير بيانه على كشف حالهم في أمر جلل : أمر الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر فهم يكررون دعوى إيمانهم بذلك ، وهم في الحقيقة ثابتون على الكفر ، قابعون في وكره (وما هم بمؤمنين) ويكشف لنا القرآن ما في قلوبهم من دغل ودخل وفساد ويبين لنا أنهم في نهجهم هذا يخادعون من لا يخادع : يخادعون الله سبحانه وتعالى ، ومثال خداعهم له في خداع الذين آمنوا ، وفي هذا من التقريب من خداع الذين آمنوا ما فيه ، لأن في حقيقة الأمر سعي لخداع الله سبحانه وتعالى ، وفي هذا أيضاً تكريم للذين آمنوا فليفرحوا بذلك وليتأملوا المقابلة بين حال المنافقين ومقامهم ، ومحل الذين آمنوا ومقامهم .

وهنا يقطع القرآن بالأمر ، ويطمئن الذين آمنوا ، ويدمغ المنافقين : (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) فيقصر أثر خداعهم الذي يفعلونه ويجتهدون فيه على أنفسهم ، ويبين أنهم مهما اجتهدوا في ذلك الخداع وتفننوا فيه فإن أثره لن يعدو دواخلهم ونفوسهم وهي مجال حركته فهو أضعف من أن يتعدى إلى شيء خارجها ، لأنه يعمل فيهم ولا يعمل في غيرهم فإن كفوا كفوا عن أنفسهم ، وإن استمروا على ذلك فأنفسهم يهلكون ، ولكنهم من الحمق لا يشعرون مجرد شعور بأثر هذا الخداع فيهم ، فهم عن أدنى درجات الإدراك : الشعور ،

فجردهم من كل ما يختص به الإنسان، وفي هذا من التطمين للذين آمنوا فما عليهم إلا أن يلتزموا بأن يكونوا من الذين آمنوا، فتلك هي الحصانة المنيعة .

ويبين الحق سبحانه وتعالى عن علة هذا الذي كان من المنافقين في قلوبهم مرض .

وفي هذا إعلام وهداية للذين آمنوا أن يتفقدوا قلوبهم ، وأن يرعوا سلامتها فهي مأتى المهلكة، وإنها الثغر الأعظم الذي تؤتى منه الأمة : مرض القلوب.

ويبين القرآن عن حال من أحوال المنافقين حين يدعون إلى ترك هويتهم وحرفتهم وعلتهم : الإفساد في الأرض ، لا يكون منهم استجابة بل تكون مقلعة ، وادعاء كاذب يفضحهم كلُّ حال من أحوالهم . يقولون (إنما نحن مصلحون) جواب بـ(إنما) الدالة على أن صلاحهم أمر متعالم مشهور ، وأن منتهى أمرهم أنهم غير ذلك في غفلة منه ، لا دخل لهم فيه، فهم يدعون أن صلاحهم بحال من الشهرة ما يحاجز من يدعوهم إلى ترك الإفساد في الأرض عن أن يقول لهم ذلك ، ألا نهلوا راجع لرجع عن قوله هذا. كذلك يسعى أولئك المنافقون إلى تخييل أنهم مقصورون على الصلاح ، وأنهم لا يتصفون بغيره ، وفي هذا من الإبلاغ في الدَّعوى ما فيه ، وهذا ينم عن جهالة وصلادة فمن هو غارق في الفساد حتى يحسب أنه مصلح فأمل في صلاحه ، وهذا شأن الكثير من العلمانيين والمتغربين ، والليبراليين والنخب المثقفة في زماننا وديارنا ، لا يستشعرون ما هم فيه من ضلال مبين بل يرون أن غيرهم هو الذي في ضلال مبين .

ولمَّا كان المنافقون قد أغرقوا في الدعوى كان حريًّا أن يدمغ أمرهم فقال الله سبحانه وتعالى : (أَلا إِنَّهم هم المفسدونَ ولَكِن لا يشعرونَ) صدرًا فعه بقوله (ألا) التي توقظ كل المدارك، وتنبئ عن أنَّ ما هو آت أمر جلل، يجب أن يلتفتَ إِلَيهِ بل يجب أن يكون المرء منه على طرف اليقين البتةَ.

لمَّا قصروا أنفسهم على الإصلاح، وحصروه فيه، ادعاءً بأنهم لا يعرفون غيره ، ولا يمارسون سواه رد القرآن عليهم بطريق تعريف الطرفين، وضمير الفصل ، وتعريف المسنَد يفيد قصرَ (الصفة) المسنَد على (الموصوف) المسنَد إِلَيهِ فهم حصروا أنفسهم في الإصلاح فقصر القرآن الإفساد عليهم ، وحصره فيهم، فكأنه قال لا مفسدون في الأرض إلا هم، وكأنه جعل كل فساد من غيرهم كلا فساد لما هم فيه من علو وتمكن في هذا، وهذا من نقضهم ودمغهم فيه

(انتهى بحمد الله تعالى وتوفيقه
القول في تثوير فصل "القصر" في دلائل الإعجاز لطلاب وطالبات مرحلة الماجستير شعبة الأدب والبلاغة والنقد الأدبي في كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى في مكة المكرمة :جامعة أم القرى عام ١٤٢٥هـ والحمد لله رب العالمين)
وكتبه
محمود توفيق محمد سعد

وهذا نهج من أنهاج النقض: ولو قالوا إنهم مفسدون لكان هذا أدنى في دمغهم. ولكنه لما كان قولهم (إنما نحن مصلحون) فيه قوة: إنما المفسدون هم، أو المفسدون إلا هم، كان هذا أنكى. ألا إنهم يدعون في أنفسهم الصلاح بل تجاوزوا هذا إلى الإصلاح فهم صالحون مصلحون، وذلك من الإغراق في فجور الادعاء، ولو أنهم ادعوا أنهم صالحون لكان الأمر أخف، أما أن يدعوا أنهم تجاوزوا مرحلة أن يكونوا صالحين إلى أفق أن يكونوا مصلحين فتلك التي لا تطاق أبدًا.

ثم دمغهم بقوله (ولكن لا يشعرون) في هذا كما قلت إعلام للذين آمنوا أن أولئك فقدوا أدنى درجات الإدراك فأولى لهم أن يكونوا على ما هو أعلى من الشعور، فقد يشعر المرء بما لا تتبين له معالمه، فالشعور أدنى من العلم، ومن كان فاقدًا لمجرد الشعور بأن ما يصنعه من الإفساد هو الإفساد لا يكون أهلا لأن يخشى بأسه، بل هو أهل لأن يباعد، ويتحاشى، ولا يتخذ مستشارًا في شيء من الأمر، فكيف بتعظيمه، بل كيف باتخاذه إمامًا يقتدى به ويستهدى برأيه ونهجه ؟!!!

كأنك القارئ ترى بين يديك حال أولئك.

وانظر فيمن في قومك ووطنك، تر أنهم يتحاشون المنافقين أم إليهم يتقربون ولهم يتزلفون ويتوددون، ويتخذون منهم مستشارين بل أقاموهم مقام الإمام المقتدى به، والأسوة المثلى.

بسطت لك القول فوق ما يوجبه النظر العلمي في الأسلوب البلاغي رغبةً في أن تقف على حال من أحوال كثير ممن يعيشون في ديارك من إخوان الشياطين الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

هو الهادي إلى سواء السبيل

لحــق

من البين أن هذا الذي قدمته قبلُ ليس استقراءً لمقالات عبد القاهر في ما أفاد القصر في كتابِه" دلائل الإعجاز" وإنما هو قول مقصور على ما كانفي ما عقده في فصلٍ، بينا في كتابِه مواضع قالَ فيها بالقصر كما أنت به عليم في باب"التقديم والتأخير" وغيره.

ومن البين أيضًا أنّ مسالك القصر "التخصيص الثبوتي" في اللسان العربي جد كثيرة، إلأ أن البلاغيين اختصوا بعضًا من هذه المسالك لتكون " قصرًا اصطلاحيًا" وما عدا ذلك فهو قصر معنوي يقول به الأصوليون والفقهاء والمفسرون والنحاة.

وما اختصه البلاغيون من مسالك القصر كان قائمًا فيه أمران:

(الأول : "أنه واقع في جملةٍ لا جملتان"

والآخر : أن النفي فيه ضمني ،غير مصرحٍ بِه. ولذا كان أقاسيم القصر منظورًا فيها إلى "النفي" لا إلى الإثبات. فتقسيمه إلى حقيقيّ أو إضافي، وتقسيمه إلى تحقيق أو ادعائي، وتقسيمه إلى إفراد أو قلبٍ أو تعيين منظور فيه إلى" النفي" لا إلى الإثبات.

ومن ثم تدرك أنقول الله - سُبحانَهُ وَتَعَالَى - :﴿ والله يعلمُ وأنتمْ لا تعلمون﴾ لا يعد قصرًا اصطلاحًا عند البلاغيين على الرغم من اجتماع النفي والإثبات فيه، لأنه النفي فيه صريح. ،بيانا يكون قوله﴿والله يعلم﴾ وحده قصرًا اصطلاحيا ،وكذلك قوله "أنتم لا تعلمون" أيضا قررًا اصطلاحيا طريقه في كل" التقديم" فلدنيا قصران في كل جملةٍ قصرٌ ، والنفي في كل ضمني في قوله﴿ والله يعلم﴾ أثبت العلم لله تعالى ونفاه عن غيره ،وفي قوله ﴿وأنتم لا تعلمون﴾أثبت انتفاء العلم للمخاطبين ونفاه عنه - سُبحانَهُ وَتَعَالَى –

ومن ثم كان في عدّ البلاغيين القصر بطريق " العطف بـ"لا" و"لكن" وبل"نظر؟

****

مراجعة منهجية
في جعل العطف بـ(لا) و(لكن) و(بل)
من طرق القصر الاصطلاحية

للعطف كثير من الأدوات ليس كلها بالمرادة بل ما كان مقتضيًا ثبوت شيء لشيء ونفيه عن غيره، وذلك بأحرف ثلاثة هي (لا) و(بل) و(لكن).

وجمهور البلاغيين يقدم طريق العطف بهذه على بقية طرق القصر، لأنه كما يقولون أقوى الطرق مصرح فيه بالطرفين: "المثبت له" و"المنفي" بخلاف غيره من الطرق فإنه لا يصرح بهما معًا.

وهذا الذي جعله البلاغيون مناط قوة هذا الطريق فقدموه هو مناط ضعف هذا الطريق عندنا.

وطريق العطف عند من يقول به دال على القصر بالوضع عند الجمهور شأن بقية الطرق خلا طريق التقديم.

***

القصر بـ (لا)

(لا) عند النحاة عاطفة شأنها شأن سائر حروف العطف في إدخال الثاني في حكم الأول لفظًا (إعرابًا)، أما معناها فإنها تنفي، فإذا قلتَ: "أكرمت زيدًا لا عمرًا" كنتَ قد نفيت عن عمرو ما أثبت لزيد، كما يقول عبد القاهر في "المقتصد" "فهي موضوعة لأن تنفي بها ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النفيَ عن شيء قد نفيته".

ومن ثَمَّ فإنَّ (لا) لا تكون مسبوقة بنفي وما أشبهه كالنهي. فهي عند الجمهور لا تكون عاطفة إلا بشروط ثلاثة.

أن يتقدمها إثبات. أو طلب: جاء محمد لا خالد، و أكرم محمدًا لا خصمَه

أن لا تقترن بعاطف فإن قيل: جاء محمدً لا بل خالد فـ"لا" عاطفة، ولا تكون (لا) ردا لما قبلها وليست عاطفة لذلك تراها في قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

فهذا فقد شرطين تقدم الإثبات، وعدم الاقتران بعاطف.

أن يكون معطوفها مفرداً فإن كان جملة فالقيد لعطف لا فيد القصر كما في "جاء محمد لا جاء خالد"

تلك هي شروط الدلالة (لا) على العطف في القصر عند جمهور البلاغيين، فإذا قلت جاء محمد لا خالد فقد أثبت المجيء لمحمد ونفيته عن خالد، والمقصور عليه معها هو المقابل لما بعدها، وهو (محمد) في مثالنا هذا.

فإذا اجتمعت (لا) مع (إنما) أو مع التقديم وجب أن يكون ما بعدها مقابلا للمقصور عليه بغيرها فإذا قلت: " إنما الشاعر علي، و أردت أن تأتي بـ (لا) بعد ذلك فاجعل ما بعدها هو المقابل للمقصور عليه بإنما فتقول: " إنما الشاعر علي لا خالد" ولا يقال: " إنما الشاعر محمد لا الكاتب"

وكذلك إذا قلت: "لك هذا" فقل بعده:" لا لغيرك، ولا تقل:" لا ذاك" وذلك حتى يتحقق في التعبير رواء التناسق والتناسب الذي هو روح الجمال في كل شيء فإن أجاز بعض النحاة قولهم: "لك هذا لا ذاك" فهو قبيح عند البلاغيين وما كان لِمثل هذا القبح هو عن رياض البلاغة بلداعاً وليماً مطرود مدحور فالتغير بإجازة بعض النحاة له.

وإذا اجتمعت "لا" مع "إنما" أو "التقديم" فالقصر كما يقضي به الاستقراء الناقص والوعي البلاغي لتراكيب يكون لـ "إنما" أو "التقديم"، وتكون "لا" مؤكدة لمفاد "إنما" أو التقديم.

والعطف بـ (لا) يكون للقصر الإضافي، ونصّ العصام على أنه مخصوص بغير الحقيقي والذي يجري في الحقيقي إلا أن يعقوبي ذهب إلى أن لا تكون الكثرى الكلي، ولأنه تأتي القصر الحقيقي إذا كان النفي هو جميع ما سوى المذكور كقولك: "زيد

زيد عالم البلد لا غيره" إذ افرض أن العالم في البلد سواه وكقولنا: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا غيره".

وإذا كان الجمهور قد جعلها للقصر الإضافي فإن عبد القاهر قد قصرها على إفادة القصر الإضافي القلبي فقط.

يقول: "اعلم أن قولنا في "لا" العاطفة أنها تنفي عن الثاني ما وجب للأول، ليس المراد أنها تنفي عن الثاني أن يكون قد شارك الأول في الفعل بل **<u>أنها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت إنه كان من الأول قد كان من الثاني دون الأول</u>** "

يبين عبد القاهر أن هذا التركيب بـ"لا" حين يكون مخاطبك يعتقد عكس الذي قلت لأن معك جاء واحد لا جائيان فترد أحدهما بل هو جاء واحد ليس هو الذي يعتقد المخاطب مجيئه. لهذا كان قولك: جاءني زيد لا عمرو" كالمتقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هذا ويتوهم أنه كان من ذلك.

وهذا المخاطب لا يكون خالي الذهن عن الخبر بل سبق له علم بأن ثَمّ من جاء، واعتقد أنه عمرًا، وكان اعتقاده مخالفًا للواقع، وإذ قلبت عليه الاعتقاده.

وبهذا يبين عبد القاهر أن (لا) العاطفة التي يخاطب بها المخاطب قد سبق له علم بالخبر وفوق هذا اعتقد عكس الواقع فيتأتي بـ(لا) لنصحح له الخطأ في اعتقاده بقلبه عليه.

هذا هو سياق القول عند عبد القاهر والذي يتقى عنده بـ(لا العاطفة) في غير هذا المساق.

وهو ما يقول هذا تشديدًا وعن مجافاة بل هو رأي في ما ظفر فيه من بيان العربية فغلبت ذلك المساق في استعمال (لا) فجعل قاعدة كلية.

وهذا الذي قاله الإمام هو بالضرورة لم يعممه فيه على الاستقصاء أو التأمل الكثير من المقامات التي تكون فيها "لا" العاطفة بل اعتمد على ما سبق إليه.

ولهذا خالفه العلماء من بعده في هذا، وذهبوا إلى أن (لا) تتأتى في سياق المخاطب فيه يعتقد وقوع الفعل من أكثر من فاعل فتأتي (لا) لإفراد أحدهم بالفعل. كأن يعلم

أن محمداً قد كان، وأنه قد كان من محمد وخالد معا، والواقع أنه كان من محمد وحده فنقول له: جاء محمد لا خالد،

فقول الشاعر:

أغرُّ أبلجُ يكسو نفسَه حُللاً * من المحامد تبقى على الحقبِ

أمواله في رقاب الناس من مننٍ * لا في الخزائن من عينٍ ومن نشَبِ

فليس يملكُ إلا غيرَ منتزَعٍ * وليس يلبَسُ إلا غيرَ منتلَبِ

كذا المكارمُ ملكٌ لا زوال له * باقٍ يدوم لباقٍ غيرَ مُنْشَعَبِ

الأسمى والأليق في مقام المدح أن يجعل الخطاب لمن يعتقد أن أموال الممدوح في كل الخزائن ورقاب الناس فبادر الشاعر له أن يقصد التحقيق فإن أمواله في رقاب الناس وحدها

وليس يليق أن يكون المخاطب يعتقد أن أمواله في الخزائن وحدها وليس منها شيء البتة في رقاب الناس، لأن في هذا تلميحاً بالهجاء.

ومما جاء فيه (ال) مفيدا القصر عند الجمهور قول امرئ القيس:

دَعْ عنكَ نَهباً صِيحَ في حَجَراتِهِ * ولكن حديثاً ما حديثُ الرواحلِ

كأن دثاراً حلّقت بلبونِهِ * عقابُ تنوفى لا عقابُ القواعلِ

تلَعّبَ باعثٌ بذمّةِ خالدٍ * وأودى عصامٌ في الخطوبِ الأوائل

فقد ثبت الذهاب بنياق الراعي المسمى "دثارا" لعقاب تنوفى ونفاه عن عقاب القواعل.

وهو في يقين عن أن نياق راعيه (دثار) وهي بطبيعة الحال ما ذهب بها عقبان لا تسكن قصير الجبال بل تسكن قمم الجبال الشواهق: وركز على جبال "تنوفى" فأنى لي أن تعيدها، إن ذلك يفتقر إلى عظيم جهد وجهاد وإصرار واحتيال. وفيه أن تكون العقبان التي ذهبت بإبله عقباناً تسكن صغار الجبال وما سهل ارتقاؤه من مطالعها، ورمز لذلك بجبال القواعلِ.

وتبصر تسييره إلى الإبل (لبونًا) فما هي بمجرد مال يتمول بل هي مصدر غذاء وسبب من أسباب الحياة، وهو وإن كان قد قال هذه القصيدة هذه الأبيات يوم أخذ بنو جديلة إبله ورواحله فلكأني بمستحضر ملك بلاطه الذي ذهب، وأن من ذهبوا به أشداء لا يستطيع رده منهم إلا بصبر واجتهاد وجهد وعون.

ومما هو جلي مشهور أن أبا تمام في تقديم قصيدته فتح عمورية قد تخلى عن (الخطاب) عنصرا رئيسا في بناء قصيدته.

ولعله عمد إلى ذلك عمدا، حيث أراد أن يقيم بين ناظري المتلقي كلا من الثبات والنفي لكل ما يتأملون ببصر مخيلتهم فارق بين ما يقولون وأوقع في غلغلة ما يرمي أبو تمام إلى غرسه في عقل المتلقي وقلبه من سمعي شدو:

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ * في حدهِ الحدُّ بين الجدِ واللعبِ

بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعةً بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

والعلماء من بعدِ عبد القاهر الجرجاني يعون (القصر الإضافي) وحده بل يأتي في القصر الحقيقي كما في قولك جاء محمد لا غيره فالنفي عنه المجيء هو كل من عدا محمد، والحقيقة أن الاستغراق هنا استغراق عرفي، وليس استغراقًا حقيقيًا، لأن الاستغراق الحقيقي لا يعمد إليه متكلم، فمن ذا الذي يزعم أنه يعلم أن المجيء مقصور على محمد وحده من كل العباد في هذه الدنيا. أو يكون مثل هذا من أحد. القصد هنا إلى من هو غير محمد ممن تلك فيه أي من قريته أو جماعته أو سوقه، فهو استغراق قيد بالسياق، وهو الذي يسمى الاستغراق العرفي، وهذا قرره أهل العلم.

***

العطف بـ(بل)

الجمهور على أنَّ (بل) للإضراب عما قبلها (المتبوع) وصرف الحكم عنه إلى ما بعده (التابع)

ومن معاني الإضراب أن المتبوع مسكوت عن الحكم عليه ، والحكم منصرف إلى التابع فإذا قلت : ما جاءني محمد بل خالد " فأنت تحكم بمجيء خالد أما مجيء محمد فأنت سكت عنه، وإثبات مجيئه أو نفيه يحتاج إلى قرينة

وهذا يستفاد منه أن المتبوع غير مقصود بالنسبة الخبرية كما كان التابع مقصود ، أي أن محل الإخبار هو نسبة الحكم للتابع أما المتبوع فليس محل قصد .

و هذا ما تكون عليه (بل) في دلالة القصر ، لأنها ليس معك حين إذ إثبات ولا نفي فالذي قبلها مسكوت عن حكمه.

وابن الحاجب يقضي بأن المتبوع مقطوع بعدم مجيئه ، فأنت هنا تفيد حكمين : الأول انتفاء مجيء محمد وثانيا إثبات المجيء لخالد .

والناظر في كتب أهل العلم يجد أن (بل) قد حظيت من النحاة بمزيد اختلاف حول ما وضعت له وما تكون فيه من بلاغة لغوية

يحكى عبد القاهر في " المقتصد" عن شيخه ابن أخت أبي علي الفارسي أن في (بل) في قولنا ": ما جاءني زيد بل عمر" وجهين:

أحدهما أن يكون التقدير :ما جاءني زيد بل ما جاءني عمرو فكأنك قصدت أن تثبت نفي المجيء لزيد ثم استدركت فأثبته أي نفي المجيء لعمرو .

وإذا كان كذلك كان المعنى في قولك ": ما جاءني زيد بل عمرو "إن عمرا ما جاءك ، وإن النفي خبر عن مشترك المجيء هو عمرو دون زيد.

والوجه الثاني :أن يكون المعنى في" ما جاءني زيد بل عمرو" هو نفي المجيء عن زيد، وإثبات المجيء لعمرو ،كأنك قلت: ما جاءني إلا عمرو

****

المشهور لدى النحاة أن (بل) حرف عطف يشترط فيها أن يكون ما بعدها مفردًا ، أما ما قبلها فيمكن أن يكون مثبتًا أو منفيًا ، تقول: جاء محمد بل خالد ، وما جاء محمد بل خالد

والكوفيون يجيزون أن تقع بعد الإيجاب. يشترطون أن يكون ما قبلها نفيًا أو ما يجري مجراه ، ونص على ذلك مع سعة روايته هشام على تلقيته، .

والجمهور على أنه حين يكون ما بعدها مفرداً وما قبلها إيجاباً فهي تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه في الحكم عليه بشيء ويكون الحكم مثبتاً لما بعدها. فإن تقدمها نفي أو شبهه فهي لتقرير ما قبلها على حالته من النفي وجعل ضده لما بعدها.

والمبرد على أن (بل) إذا سبقت بنفي فهي تفيد انتفاء الحكم عما بعدها (التابع) وما قبلها (المتبوع) مسكوت عنه فقولك : " ما جاءني زيد بل عمرو " معناه عنده أن مجيء عمرو مقطوع به ، أما حكم زيد فمسكوت عنه

أما جمهور البلاغيين فإنهم يجعلونها مفيدة للقصر إلا إذا كان ما بعدها مفرداً وإذا كانت مسبوقة بنفي أو شبهه،

فيكون معناها عندهم تقرير ما قبلها على حالة من النفي وإثبات الحكم لما بعدها فإذا قلت: " ما جاءني محمد بل خالد" فأنت نفيت المجيء عن محمد وأثبته لخالد ، فيكون أسلوب قصر، حيث قصرت المجيء على خالد، .

موقع المقصور عليه مع (بل) :

المقصور عليه معها هو ما بعدها . ما جاء محمد بل خالد . المقصور عليه هو خالد

ويصح أن تقول ما محمد جاء بل خالد .

وقد يأتي مع (بل) (لا) فتكون (لا) زائدة * (القصر بـ (بل) كما في قول الشاعر:

وجهك البدر لا بل الشمس لو لم * يقض للشمس كسفة أو أفول

والقصر بـ(بل) عند البلاغيين قصر إضافي بنوعيه الأفراد والقلب

من ذلك قول المتنبي:

ليس التعجب من مواهب ماله * بل من سلامتها إلى أوقاتها
عجبًا له حفظ العنان بأنملٍ * ما حفظها الأشياء من عاداتها

فهو يثبت التعجب عن سلامة ماله إلى وقت بذله وهبته وينفيه عن الهبة نفسها فليس عجيباً أن يبذل مثله بل العجيب أن تبقى أمواله إلى هذا الوقت الذى يبذل فيه على الرغم من فيض العطاء. قصر الشاعر التعجب على سلامة أمواله من الفناء إلى أوقات بذلها، ونفاه عن التعجب من مواهب أمواله. وهو قصر إضافي فالنفي فيه عن الحكم مما ترى بعين، وهو قصر قلب.

في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** ﴾ {الأنبياء:26} (بل) حرف عطف يفيد القصر، لأن الذي بعدها جملة فهي حرف إضراب، والتقدير بل هم عباد مكرمون

***

العطف بلكن

لكن: العاطفة هي الساكنة النون المخففة بأصل الوضع وليست المخففة من الثقيلة التي هي إحدى أخواتِ (إن الناسخة) وجمهور النحاة على أنه يشترط لكونها عاطفة ثلاثة شروط.

الأول: أن يتقدمها نفي أو نهي، وقد نص على هذا المرادي في معاني الحروف وعبد القاهر في المقتصد والبطليوسي في الحلل.

الثاني أن يكون ما بعدها مفردًا، وهذا الشرط يشترطه الزمخشري في (المفصل) فإن جاء بعدها جملة كما في قول الشاعر:

إنَّ ابنَ ورقاءَ لا تُخشى بوادِره * لكِن وقائعُه في الحَربِ تُنتَظَرُ

فلا تكون عند الجمهور عاطفة في هذا القصر، ولكنها تكون عاطفة عند آخرين كالزمخشري

الثالث: ألا تقترن بالواو وهو مذهب الفارسي قيل: وأكثر النحويين كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ {يونس:37} على قراءة النصب بتصديقًا، وقراءة الرفع يكون ما بعد (لكن) جملة.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ {يوسف:111}

[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] {الأحزاب:40}

ولم يشترط هذا الشرط ابن عصفور، وقال: "ينبغي أن يحمل كلام سيبويه والأخفش. لأنهما قالا: إنها عاطفة. ولما مثّلا للعطف بها مثّلا مع الواو.

ولذلك لم يشترط ابن كيسان وجعل كل من ابن عصفور وابن كيسان (الواو) معها زائدة و(لكن) هي العاطفة.

والذي يغلب في القرآن أن (لكن) تكون مسبوقة (بالواو) وأن يكون ما بعدها جملة فما جاء بعدها المفرد قليل، ولم يأت فيها (لكن) بغير واو.

وقد نازع في كونها عاطفة يونس، فذهب إلى أنها دائماً حرف ابتداء من الثقيلة سواء تلاها المفرد أو غير مفرد وسواء أكانت مقترنة بالواو أو غير مقترنة بها.

المهم أن في إفادتها العطف وما اشترط لذلك من شروط منازعات ومطارحات بالغة المرونة.

وهي على كل حال عند جمهور البلاغيين إذا تحققت فيها الشروط الثلاثة السابقة تكون لقصر الإضافة لا غير فقط، والتكون للإفراد.

يقول السعد في المختصر: " ولكن (أيضًا للرد إلى الصواب الا انه لا يقال لنفى الشركة حتى ان نحو ما جاءني زيد لكن عمرو لمن يعتقد ان زيدا جاءك دون عمرو، الا لمن يعتقد انهما جاآك جميعا. وفي كلام النحاة ما يشعر بانه انما يقال لمن يعتقد انتفاء المجئ عنهما جميعا"

وهو في المطول أكثر تفصيلاً. يقول:

" المذكور في كلام النحاة أن "لكن" في نحو " ما جَاءني زيدٌ لكن عَمرو" لدفع توهم المخاطبِ أن عمرًا – أيضًا – لم يجئ كزيد بناءً على ما بين الملابسة بينهما، والمشهور أنها للاستدراكِ، وهو دفع توهم يتولد من الكلامِ المتقدمِ دفعًا شبيهًا بالاستثناء.

وهذا صريح في أنه إنما يقال :" ما جاءني زيد لكن عَمرو" لمن اعتقدَ أن المجيءَ منتف عنهما جميعًا، لا لمن اعتقدَ أنَّ زيدًا جاءك دون عمرو، على ما وقع في المفتاحِ.

وأما أنه يقال لمن اعتقدَ أنهما جاءاك على أن يكون قصر إفراد فلم يقل به أحد" لم يقل به أحد أي لم يذهب إليه ذاهب لأنه لم يطرد في الاستعمال كما يقول الفنري

موقع المقصور عليه مع (لكن)

المقصور عليه مع (لكن العاطفة) هو ما بعدها فإذا قلت: " ما جاءني محمد لكن خالد" لكنت قد نفيت المجيء عن محمد وأثبته لخالد فأنت قصرت المجيء على خالد فهو المقصور عليه.

وإذا بحثنا عنها في كتب البلاغيين لو قد تحقق فيها شروط الجمهور عند تتبعي لها فبعد طول تنقيب في كثير من دواوين الشعراء السابقين لم أعثر إلا على قليل مثل بيت لأبي العلاء المعري يقول فيه:

ولدات تَدمر منك لَ وما غَرضِي * لكون بتدمر لكن منزل دمرا

ويرى أن البيت إلى النثرية أقرب وأن ما للشعر فيه من نصيب، ولعل ندرة هذه الشروط جعل بعض العلماء يذهب إلى أنها لا تلي المفرد إلا إذا كانت مقترنة بالواو، وذلك كثير ترافي قول الحق عز وجل، وقد سبق ذكره:

﴿]مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[}الأحزاب:40{ .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ }يونس:37{

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ }يوسف:111{

يقول أبو تمام:

وليست يات من دِماء هرقتها * حرامًا، ولكن من دماء القصائد

ويقول البحتري:

علم الروم أن غزوك ما كان غبا لهم، ولكن فناء

ويقول ابن زيدون:

لعمري ما للمال للمرء سعيه فإنما * يرى المال للمرء حظه لا الطبع لا الوعد

ولكن لحال إن ليست حملها * لكسوتك ثوب النصحِ أعلمه لحمد

***

خلاصة القول في هذا أننا من بعد طول تنقيب وتأمل في "لا" و "بل" و "لكن" وما كان فيه من تبيين لغوية ومقاله العلماء في وجه إفادتها العطف والقصر وما اشترطوه من شروط لذلك وما كان بينهم من مناقضات ومنازعات وخلافات شاسعة البون ننتهي إلى أن هذه الثلاثة الأحرف التي يأتي بها قبل التراكيب مع النفي والاستثناء والتقديم طريقا للقصر فضلا عن أن تكون أقوى كما يزعمه جمهور البلاغيين.

****

ما مضى كان طريق القصر بين أي عنصرين من عناصر الجملة فكل من النفي والاستثناء" و "إنما" و "التقديم" و "العطف بلا وبل ولكن" على القول بأنه طريق للقصر بين المسند والمسند إليه ويأتي في علاقته وتعلقات بعضها .

بيد أن ثمة طرقا للقصر بين أي عنصرين في الجملة وإنما هي بين المسند إليه والمسند فقط، ولذا لم يتناوله جمهور البلاغيين في الدراسة بأسلوب القصر ولم يلتفتوا بالإشارة إلى إفادتها القصر في أثناء دراسة أحوال المسند والمسند إليه باعتبار القصر واحدا من أحوالهما.

هذه الطرق هي تعريف المسند إليه والمسند وضمير الفصل.

****

التعريف بال

طريقاً للقصر الاصطلاحي

التعريف هو الإشارة إلى أنَّ مدلول اللفظ معلوم متعين حاضر في ذهن السامع.

فالمعرف يكون في لفظه ما يشير إلى أن مفهومه متعين معهود بوجه ما.

وهو يكون بأشياء عدة العلم والضمير واسم الإشارة، واسم الموصول والمعرف بأل، والمضاف إلى معرفة، ومنهم من يجعل منها المنادى

والذي يعنينا في التعريف بـ(ال)، أو بـ(ال) الاستغراقية والتي يعنينا منها إلا ما كانت داخلة على المسند إليه والمسند ومن قبل أن نعرض لذلك نقدم إشارة إلى أنواع (ال)

الأصل في (ال) دخولها على الأسماء، ولكل أسم مسمى حقيقة وماهية وذلك المسمى تلك الحقيقة تنطبق على أفراد تصلح اللفظة عليها تسمى بالماصدقات

فلدينا إذن في كل اسم شيئان:

- مسمى وحقيقة وماهية.
- أفراد وماصدقات.

فـ(ال) الداخلة على الاسم إما أن تشير إلى الحقيقة وحدها وإما أن تشير إليها مع ملاحظة أفرادها إن أشير بـ(ال) إلى الحقيقة والمسمى والماهية من حيث هى دون ملاحظة شيء من أفرادها تسمى ال الحقيقة والجنس واللام الطبيعة واللام الماهية، ولكل هذه معنى واحد تراها ظاهرة في قولهم: "الرجل أقوى من المرأة" المراد أن حقيقة الرجل أقوى من حقيقة المرأة وجنس الرجل أقوى من جنس المرأة دون ملاحظة فرد من جنس الرجال أو جنس النساء، ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنبياء:30]

أي جعلنا من جنس الماء كل شىء حى، ولم يقصد إلى واحد من أفراد الماء كماء السماء أو ماء البحار أو الأنهار أو العيون.

ومثل له بقول المعري:

ولخل كالماء يبدي لي ضمائره * مع الصفاء ويخفيها مع الكدرِ

وعلامتها أنه لا يصح أن تضع موضعها (كل) أو (بعض) ويصح وضع كلمة (جنس) موضعها.

وإن أشير بـ (ال) إلى الحقيقة والجنس والماهية من حيث تحقق في أفراده وصدقه عليه فإن كان المراد جميع أفراده فتسمى ال الاستغراق، وعلامتها صحة وضع (كل) موضعها ترى ذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: 2]

أي وحق كل إنسان يعيه فيها

وإن كان المراد بعض أفراده فإن كان بعضا غير معين فتسمى ال العهد الذهني، والاسم معها نكرة، تراها في قوله تعالى: (وأخاف أن يأكله الذئب) ليس المراد جنس الذئب والكل الذئاب والذئب ما معين بل أي ذئب فالمراد فرد شائع من جنس الذئاب ومثل له بقول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني * فمضيت ثمة قلت لا يعنيني

لم يقصد جنس اللئيم والكل لئيم والئيما معين بل أي لئيم.

وإن كان المراد بعضا معينا من أفراده فإما أن يكون قد سبق ذكره أو معه من القرائن والأحوال ما يعينه فإن كان قد سبق ذكره **فتسمى ال ال ال العهد الخارجي الذكري**.

وعلامتها صحة وضع ضمير موضعها يعود على المذكور أولا ترى ذلك في قولنا اشتريت كتابا ثم قرأت الكتاب فـ (ال) في الكتاب للعهد الخارجي الذكري حيث سبق ذكر كلمة الكتاب في قولنا اشتريت كتابا ويصح معه أن تقول اشتريت كتابا ثم قرأته

ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [آل عمران:36]

أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها، فـ(ال) في الأنثى للعهد الذكري حيث أريد بها فرداً معيناً وهو السيدة مريم ويصح أن تضع مكان الضمير فيقال في غير القرآن وليس الذكر مثلها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا** ﴾ [المزمل:15 - 16] وقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [النور:35]

أما إن كان بعضاً تعين بقرائن الأحوال والملابسات فتسمى ال **لام العهد الخارجي الحضوري** وذلك كأن يقول أستاذ النحو مثلاً للطالب: أخرج الكتاب، فـ(ال) أشارت إلى كتاب معين والمعين له حضور الأستاذ لا ذكر اسم الكتاب، وكذلك قولك لمن دخل عليك: أغلق الباب، فأنت تريد باباً واحداً معيناً للدخول منه.

الخلاصة: أنَّ (ال):

= إما أن تكون لام الجنس وهي التي يشار بها إلى الحقيقة والجنس دون نظر للتحقق في شيء من أفراده.

= وإما أن تكون لام الاستغراق وهي التي يشار بها إلى الجنس من حيث تحققه في جميع أفراده.

= وإما أن تكون لام العهد الذهني وهي التي يشار بها إلى الحقيقة من حيث تحققها في بعض غير معين من أفرادها.

= وأما أن تكون اللام للعهد الخارجي الذكري وهي التي يشار بها إلى الجنس والحقيقة من حيث تحققها في بعض متعين بذكره أولاً.

= وإما أن تكون اللام للعهد الخارجي الحضوري وهي التي يشار بها إلى الحقيقة من حيث تحققها في بعض متعين لا بالذكر ولكن بقرائن الأحوال والملابسات.

ذلك تفصيل أنواع (ال)

وكل هذه الأنواع تندرج تحت الجنس والعهد.

- والجنس تشمل الحقيقة والاستغراق والعهد الذهني.
- والعهد تشمل العهد الخارجي الذكري والعهد الحضوري

وكثيرا ما يطلق على الاستغراق الجنس وعلي الجنس الاستغراق .

وأقوى هذه الأنواع في التعيين العهد الخارجي الذكري والحضوري ثم الاستغراق ثم العهد الذهني ثم الجنس والحقيقة.

إفادة تعريف المسند إليه والمسند بـ(ال) القصر

الأصل في المسند إليه أن يكون معرفة لأنه محكوم عليه ومخبر عنه والحكم على مجهول وكذا الخبر عنه،

المعرف بلام الجنس ان جعل مبتدأ فهو يقتضي قصر الموصوف على الصفة أي قصر المبتدأ على الخبر مثل الشجاع محمد أي ما محمد إلا الشجاع

وان جعل المعرف بـ(ال) خبرا فهو يقتضي قصر الصفة على الموصوف . أي قصر الخبر على المبتدأ مقصور على المبتدأ :محمد الشجاع أي ما الشجاع إلا محمد

وهذا بناء على أنه إذا كان كل من المسند إليه والمسند معرفة فالمقدم دائما هو المبتدأ وهو مذهب الجمهور.

لكن ذهب بعض أهل العلم منهم الرازي إلى أن ما كان ثابتا منهما كان مبتدأ تقدم أو تأخر فهو المنسوب إليه ، والصفة تتعين للخبرية تقدمت أو تأخرت ، لأن الصفة هي المنسوب به فما في قولك "الشجاع علي، وعلي الشجاع" المبتدأ عنده هو "علي" فيهما فيكون التعريف في "الشجاع علي" عنده من قصر الصفة على الموصوف وفي" علي الشجاع "من قصر الموصوف على الصفة.

وإفادة لام الجنس والاستغراق الداخلة على المسند إليه لا يشترط فيها أن يكون الخبر معرفة فقد يكون معرفة وقد يكون نكرة فقولك الأمير زيد، والأمير هذا، والأئمة من قريش والتوكل على الله. كل ذلك يفيد فيه لام الجنس والاستغراق قصر المسند إليه على المسند.

يقول السعد في المطول:" الحاصل أن المعرف بـ(ال) لام الجنس (ان جعل مبتدأ فهو مقصور على الخبر سواء كان الخبر معرفة بلام الجنس أو غيره نحو: الكرم التقوى ، اي لا غيرها، والأمير الشجاع أي الشجعان،والأمير هذا أو زيد أو غلام زيد. أو كان غير معرف نحو: التوكل على الله، والتفويض إلى الله، والكرم في العرب ،والإمام من قريش .... وعلى هذا القياس فليتأمل . فإن فيه دقة. وبهذا يظهر أن تعريف الجنس في" الحمد لله" يفيد قصر الحمد على الله تعالى فيكون له ..

وان جعل خبراً فهو مقصور على المبتدأ، نحو: زيد الأمير، وعمرو الشجاع، والموصول الذي قصد به الجنس في هذا الباب بمنزلة المعرف بـ(ال) الجنس (...

ب- تعريف المسند بـ(ال) وإفادته القصر

وإذا دخلت (ال) على المسند فإنها تفيد قصر المسند على المسند إليه فيكون من قصر الصفة على الموصوف مثل ﴿وأولئك هم المفلحون﴾

وإذا كان كل من المبتدأ والخبر معرفا بال احتمل أن يكون من قصر المبتدأ على الخبر قصر موصوف على صفة، وأن يكون من قصر الخبر على المبتدأ قصر صفة على موصوف،

والسيد الشريف استظهر حين ذاك أن يكون القصر من قصر المبتدأ على الخبر قصر موصوف على الصفة لأن القصر بمعنى على قصد الاستغراق وشمول جميع الأفراد، وذلك بالمبتدأ أنسب، إذ القصد في المبتدأ إلى الذات وفي الخبر إلى الصفة، فإذا قلت" : العلماء الخاشعون " الأظهر أن يكون من قصر العلماء على صفة الخشوع فتعبر عن حصر الذات في العلماء وعن حصر الصفة في الخاشعون "وإن جاز لك أن تجعله من قصر الخشية على العلماء قصر صفة على موصوف.

وذهب آخرون إلى أنه إذا كان كل من المبتدأ والخبر معرفا بلام الجنس وكان أحدهما أعم من الآخر كان الأعم هو المقصور كما في قولك: "الكرم التقوى" فالكرم أعم من التقوى فهو مقصور على التقوى .

وقد يكون المعرف بلام الجنس الاستغراق عاما وقد يكون مخصصا ومقيدا بوصف أو حال أو مفعول أو ظرف مثل أن تقول : " هو الشجاع إذا حمي الوطيس" " هو العليم النحو" " هو الكريم عند القحط" ومنه:

هو الواهب المئةَ المصطفاة * إما مَخَاضًا وإما عِشَارًا

لم يرد قصر هبة المئة مطلقا بأي حال كانت والقصر لهبة مطلقا ولما أراد قصر لهبة المئة المصطفاه حال كونها مخاضا أو عشارا ، فهذا من قصر الصفة (الواهب المصطفاه ...) وليس مجرد لهبة على الموصوف) فهو (المقصور عليه هو المتقدم . .

****

ومما كانت (ال) الداخلة على المسند مفيدة للقصر قول البحتري:

بلونا ضرائب مَن قد نَرى * فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثات * عزمًا وشيكًا ورأيًا صليبا
تنقّل في خلقي سؤدد * سماحًا مرجّى وبأسًا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخًا * وكالبحر إن جئته مستثيبا

قوله (هو المرء) يحتمل أن تكون (ال) فيه دالة على كمال المروءة فيه دون تعرض لحالها في غيره، ويحتمل أن يكون التعريف لقصر هذه المروءة عليه قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، ولذا ذهب إلى أنه ليس له في هذا نظير، وهو ما يتلاءم مع قوله قبله (فما إن رأينا لفتح ضريبا) فيكون من قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، والمقصور عليه هو المقدم (هو)

***

ومن هذا أيضًا قول الشاعر أبو الوليد الأنصاري:

فإن لم أحقق ظنّهم بتيقّن * فلا سقت الأوصال مني الرّواعد
ويعلم أعدائي من النّاس أنّني * أنا الفارس الحامي الذِمارَ المناجد
وأن ليس للأعداءِ عندي غميزة * ولا طافلي منهم وحشي يصطائد
وأن لم يزل لي منذ أدركت كاشح * عدو قليه وآخر حاسد

قوله (أنا الفارس الحامي الذمار المناجد) قصر فيه هذه الصفة على نفسه بطريق تعريف المسند (الفارس...) وهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، والمقام يقتضي هذا التأويل، والمقتضي للقول بأنه يريد أن هذه الصفة كاملة فيه دون التفات إلى غيره فهذا مقام فخر.

ومثله قول الآخر:

فقد علمت فتيان ذبيان أنني * أنا الفارس الحامي الذمار المقاتل

ومثله قول خفاف بن ندبة الصحابي:

فلما رأيت القوم لا ود بينهم * شريجين شتى منهم ومشاكا

تيممت كبش القوم لما رأيته * وجانبت شبان الرجال الصعالكا
فجادت له يمنى يدي بطعنة * كست متنيه أسود اللون حالكا
أَنا الفَارس الحامي حقيقةَ وَالِدي * بهِ تدرك الأوتار قدمًا كذلكا

تجد هذا النص جليًّا جوادًا في بعض المعاني الشعرية التي تتوفر فيها معاني الاعتزاز والفخر ولم أن أهملها أعلاهم من نماذج الفحولة الإبداعية في قول المتنبي

وَمَا أَنَا إلّا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ * فَزَيّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدّدَا

وَمَا الدّهْرُ إلّا مِنْ رُواةِ قَصائِدي * إذا قُلتُ شِعراً أصْبَحَ الدّهْرُ مُنشِدَا

فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسيرُ مُشَمِّراً * وَغَنّى بِهِ مَنْ لا يُغَنّي مُغَرِّدَا

أجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعراً فَإنّمَا * بِشِعْري أتَاكَ المادِحونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلّ صَوْتٍ غَيرَ صَوْتي فإنّني * أنَا الطّائِرُ المَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصّدَى

تَرَكْتُ السُّرَى خَلفي لمَنْ قَلّ مالُه * وَأنعَلْتُ أفراسي بنُعْماكَ عَسجَدَا

وَقَيّدْتُ نَفْسِي في ذَرَاكَ مَحَبّةً * وَمَنْ وَجَدَ الإحْسانَ قَيْداً تَقَيّدَا

إذا سَألَ الإنْسَانُ أيّامَهُ الغِنى * وَكُنتَ عَلى بُعْدٍ جَعَلْتُكَ مَوْعِدَا

هذه الأبيات زاخرة بصور الفخر الذي تنوعت طرائقه تنوع المعاني التي تحملها

.

ونلحظ ثقة نفس المتنبي، واعتزازه بنعمة الله تعالى عليه، وإدراكه جليلَ هذه النعمة، ومثل هذا الشعر تتبصّره وتتذوقه في حياة النفوس، ويتوفر فيها تمثيل العزة الحقة وليس العزة المدّعاة، وما كان المتنبي قطّ مدعيًا في باب الاعتزاز بشاعريته، بل كان مصورًا واقعه الذي يدركه، وبعلم فضل الله تعالى عليه.

ونحن في زماننا هذا لتتبدي فيه أو فيه نفوس تتخاذل وتستخذي وتستمرئ المذلة لتستمرئ أجدادنا العزة والمنعة - ونحن في زماننا هذا بحاجة إلى مثل هذا الشعر ، ولذا أوردت عليك هذه الأبيات لعلك تقرأ فتستثير فيك العز الحقة ، وتأبى أن تكون ذيل الغير لا تعلى فضال عن أن تستعذب هذا الذل مادمت تأكل وتشرب .... وتتمتع كما تتمتع الأنعام ، وهو حال غير ذيل مما ترى عينك وتسمع أذنك . ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ الفتح:29{

الذي يعنيني في هذا السياق قوله)إن الصادح المحكي والآخر الصدى(

المتنبي يجعل من نفسه المصدر لقول الشعر، وكلُّ ما جاء به الشعراء في زمانه إنما هو صدى ما أبدعه أو نشده فقوله :) أنا الصادح(تأويله : ما الصادح إال أنا ، وقوله والآخر الصدى تأويله ما الآخر إال الصَّدَى

ويحسن أن نتلبس عند قوله) أنا الصادح(ملطف عليه هذه الكلمة) الصادح(والحقيقة هذه الكلمة صوتي ودال ليلك لمة أخرى تحضر في القلب عند حضورها) الصدع(فالصدح ليس مجرد رفع الصوت بل الصَّدح أيضًا شدة الصوت وحِدَّته ، فهو بشدته وحدته يصدع . وهو ما يرمي إليه المتنبي .

في قوله)الآخر الصدى(عطفه على ما قبله ،وهو مما يفهم ضمنًا من تعريف الطرفين في)أنا الصادح المحكي(ألنه إذا ما كان هو الصادح المحكي فإن غيره يكون صدى له

وكان يمكنه أن يكتفي بهذه الداللة اللازمة فيكون مدلوالعليه تلميحا وكان يمكن أن يفصل ه لكمال التصال توكيدًا إذا ما كانت رغبة في الذكر ،لكن القوة النفسية للمتنبي حملته على أن يجمع بين الأمرين :

أن يصرح بالذكر لما فهم تلميحًا ،

وإلى أن يعطفه بالواو ،وال يفصله .

المتنبي هنا أراد أن يلفت انتباهنا إلى معنى آخر مهم عنده يريد أن يقرره في نفوسنا ، وأن يوطن فيها مع المعنى المؤكد :

أراد أن يلفت إلى معنى مغايرًا كما هو شأن العطف بالواو ، التقاطع إال بين المتغايرات .

أراد أن يلتفت إلى أن هذا الآخر من شأنه وجبلته وطبعه أن يكون صدى، وأنه لن يكون صادحا أبدا ما دام التبني قائمًا في الحياة، وما دام شعر التبني قائمًا في الآذان والقلوب فحيثما كان آخر التبني فهو المحال قصدًى له

فتأمل قوله)والآخر(دون غيري فلا غيرة درجة من الاختلاف، وأما الآخر ففيه مفارقة وسيعة .

والمعنى في قوله) والآخر الصدى(يتلاحظ مع قوله قبل : بشِعري أتاكَ المادِحونَ مرَدَّدًا (فتأمل قوله) مرددا (وقوله) الصدى(

وتلفّت متبصرًا : أهذا الذي حلّب الآخر فلم يكن إلا صدًى أهو من هوان الآخر أم من فحولة الصادح؟

الحق الجلي أن هذا من فحولة الصادح الذي سلب الآخر كل ما كان معه من قدرة، وأسقط كل طاقة إبداعية، وحمله بإبداع التبني على ألا يكون إلا صدًى له، وتلك هي الفحولة : أن يحيل بفحولته من كان من قبل فحلًا إلى عاجز، لا يرضى إلا أن يكون صدًى.

****

ومما يدخل في تعريف المسند ويستفاد منه تعريف المسند قصر المسند على المسند إليه، إلا أن المسند اسم موصول . وهو في القرآن كثير، وحين يكون المسند إليه هو اسم من أسماء الله أو الضمير الراجع إليه فإن القصر فيه يكون ظاهرًا يكون قصرًا حقيقيًّا ، ويستفاد منه معنى التوحيد

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:2]

المعنى على ما رفع السموات والأرض إلا الله فهو قصر صفة على موصوف، ومآل المعنى هو توحيده ﷻ وتعالى، وهذا في سياق القرآن كثير جدًا منه :

قوله تعالى ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:2]

وقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:48]

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61]

ومثله قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6]

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]

وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: 66]

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]

كل الذي رأيت كان فيه هذا النمط التركيبي دالاً على قصر المسند على المسند إليه قصرًا حقيقيًّا وكان مآل المعنى فيه هو كمال التوحيد، وهذا من التصريف البياني للمعنى التوحيدي في القرآن، وهو المعنى الجليل الأعظم.

وتصريفه سبل عديدة مؤدية إلى عظيم تقرير في قلوب الناس، وهذا هو الغاية الجليلة.

ومن هذا قول الشاعر على لسان النسوة:

طال الرجال وظنهم * عجز النساء عن الكفاح
إن كان عندهم الصوافن * والصوارم والرماح
فلنا من الكيد العظيم * لقهرهم أمضى سلاح
ونص السحر التشاهد * أو توكب في قداح
نحن اللواتي يسعنا * بالمكر كل النجاح

نسبي العقول بما نزخرفه * ونسكر كل صاح
سكرًا يليل ذا لهم وال * سكر الغبوق والاصطباح

نبدي الحنان مع اللسان * كأنه شهد الجراح
نبدي الوداد وللقياد * في ضمائرنا الجماح
ونرى هم المشي الهوينا * في المجيء وفي المراح
كي لا يكون لما نبره * من العمل افتضاح
من ديننا الموروث إنّ * دم المغيظ لنا مباح
نغتال قواد الجيوش * والناهب الباطل فاح
نسقي الغني فترتخيه * في خاله العذب القراح

هذا من الشاعر تبيان لحال النساء في الرجال، وأنهن إن أردن فعل شيء في غفلة من صرامة الرجال فالسبيل لهم عليهن إلا بالمجاملة والرضا أما السبيل فالسبيل له في أمرهن، فالسبيل لقوة المرأة إلا الإحسان إليها، وإحاطتها بسياج المودة والرحمة والرعاية والإيثار، والأخذ بيدها إلى ما فيه نجاتها.

تأمل قوله:

نحن اللواتي يستعين * بالمكر لكن بالنجاح

تجد فيه القصر جليًّا فكأنهن يبرزن هذه القوة التي لا تكون إلا فيهن، وكأنهن يقلن ما كان للرجال - بسبب النجاح عبر المكر - إلا نحن، فقصرن هذه الصفة عليهن قصرًا حقيقيًّا أدعائيًّا، فيه تبرز القوة النفسية للمرأة عند التحدي فتسلك سبيلًا غير معهود والمدرك، والعجيب من يسعى فيه، فليحذر الرجال هذا التحدي، وليتخذوا إلى إبطاله سبيلًا أرقى سبيل الإيثار والإكرام والرعاية والحماية.

روى البخاري في كتاب النكاح ومسلم في كتاب الرقاق بسندهما عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - رضي الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»

****

ومن فوائد التعريف بالقصر قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

في معرض تبيان القرآن الكريم لحقيقة المنافقين في مفتتح سورة البقرة عرض لموقفهم إذا ما دعوا إلى الصلاح العام وموقفهم إذا ما دعوا إلى الصلاح الخاص بأنفسهم فقرر أنه إذا قيل لهم من أي قائل ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾، كان ردهم أنهم مقصورون على الصلاح وإن ذلك شيء يرفعهم ينبغي ألا ينكره منكر ومن ثم استخدموا في الرد على ناهيهم عن الفساد طريق القصر بإنما وكان الأليق بحال الناهين لهم أن يردوا عليهم بالنفي والاستثناء ليؤكدوا أنهم جعلوه مبنياً على دعواهم إن ذلك الصلاح شيء يرفعهم تلك دعوى منهم عريضة فهدم القرآن عليهم دعواهم بما هو أنكى فقال ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ مستفتحاً بالمؤكد الحكم بأن قصر الإفساد عليهم بالقصر بتعريف المسند بأل وكأنه قال لا مفسد إلا هم وهذا أنكى في الرد عليهم وهو قصر قلب بين أن قولهم ﴿إنما نحن مصلحون﴾ كان قصر إفراد وإن قلت إنه قصر إفراد بناء على أن حال الناهين لهم عن الفساد العام كان حال من يطرح متعدد الجمع بين الصلاح والفساد، لأن ذلك أنجح في الدعوة إلى الهدف على ما يقولون ذلك فهم قصروا أنفسهم على الصلاح قصر إفراد، وكان رد القرآن عليهم بالقصر على الإفساد ولكن قصر الإفساد عليهم قصر قلب ببيان أنهم أسفل سافلين لم تجمع وأنهم عقله وتشوهوا ولما كان قصر الإفساد عليهم مقيدهم أنهم ما كانوا كذلك إلا لفضل ذكاء فيهم واقتدار على الكيد نكتة تأتي قوله ﴿ولكن لا يشعرون﴾ فجردهم من أدنى درجات الإدراك التي منحها الله للدواب والأنعام.

ولما أبان عن موقفهم من دعوتهم إلى الصلاح العام ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ بأن من بعده عن موقفهم من دعوتهم إلى الصلاح الخاص لصلاح أنفسهم بالإيمان وإذا قيل لهم ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ كان ردهم على هذه الدعوة بأسلوب غير الذي اتخذوه في الرد على الدعوة إلى الصلاح العام كان ردهم هناك قصر أنفسهم على الصلاح إفرادا بإنما ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وكان ردهم هنا بذلك الاستفهام المفعم بالإنكار والتعجب والاستهزاء ﴿.... أنؤمن كما آمن السفهاء﴾

ونظر التناسق البديعي بين الدعوة إلى الصلاح العام وورود هذه في أسلوب النهي والدعوة الثانية وورود هذه في أسلوب أمر ثم التناسق المتعين بين ردهم على الدعوة الأولى بالقصر وردهم على الدعوة الثانية بالاستفهام:

لما كانت مخالفة الدعوة الأولى الدعوى إلى الصلاح العام يترتب عليها ضرر عظيم يهلكهم ويهلك غيرهم كان الأوفق والأليق به النهي إذ لا رخص في المنهيات بل يجب الالتزام وجوبا قاطعا مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم

إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا

ولما كانت المخالفة للدعوة الثانية الدعوة إلى الإيمان التي يترتب عليها ضرر ما حق وكان الضرر فيها خاصا بهم ومن ضل فإنما يضل عليها كان الأليق به الأمر، كما أن في تحقيق الإيمان تفاوتا بين الناس فالأليق به الأمر.

وكان رسمهم القصر بإنما على الدعوة الأولى المعبر عنها بالنهي لأن النهي عن الشيء يشير إلى تحقق وتلبس المنهي به فيتضح بنظر الناهي فالأليق به أن يكون الرد عليه مؤكدا بالمبالغة فيه وذلك يوافيه ضرب القصر ويزيده أن كان القصر بإنما لبيان ما الأليق بحال الرائين أن يكونوا في الاستنكاف كان فيه من المبالغة ما فيه .

وكان رسمهم الاستفهام الإنكاري التعجبي الساخر على الدعوة الثانية الأليق لأن الذي يأمر بشيء يكون على يقين بأن ما أمر به هو الأسمى والأجدى والأولى فيكون الرد عليه مع ما يبين ضلاله في ذلك الإنكار عليه والعجب منه والسخرية من دعواه وذلك يوافيه ضرب الاستفهام إذ هو الأقدر على حمل تلك المعاني وتفاعلها في بنيته.

والتعريف في كما آمن الناس للعهد أي كما آمن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم أي كما آمن أصحابكم وإخوانكم. أو للجنس أي كما آمن الكاملون في الإنسانية الجامعون لما يعد من خواص الإنسان وفضائله، فهم لذلك يستحقون أن ينصرف فيهم الجنس كأنهم الجنس كله فالصرف في الناس على هذا النظر لكمالهم.

أبعج على المؤمنين كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل وهذا في القصر في الناس بمثابة التنزيل القصر من عدا المؤمنين وقصورهم عن رتبة الإنسانية منزلة عدم اتصافهم بالإنسانية.

والتعريف في السفهاء إما للعهد الذكرى بناء على أن مقصود المنافقين بالسفهاء الناس المذكورون في كما آمن الناس، وإما للجنس أي أنؤمن كما آمن الكاملون في السفاهة.

وقد رد عليهم القرآن الكريم في هذا بمثل ما ردوا عليهم في قولهم فقال: إلا إنهم هم السفهاء مستوفيا حتى أسلوب المنزل من شأن الجملة بعدها أن تقع مصدرة بنحو ما يلقى به القسم كالتأكيد بأن وغيرها من المؤكدات كضمير الفصل والقصر...

والتعريف في السفهاء مفيد لقصر السفاهة فيهم مقصورة على موصوف تنزيلا لسفاهة غيرهم من الضالين منزلة العدم ومن الناس الباعث متفشي هذا إن كانت فاصلة الآية فاقوله ولكن لا يعلمون وكذا التي قبلها ولكن لا يشعرون.

بيان أنه لما كان السفه أظهر في عرفته والصدع عنه أن لا يتأمل كان كافيا في ردعهم أن يكونوا لهم مجرد الشعور الذي هو أدنى درجات الإدراك فلا نفاه عنهم هناك ولما كان السفه خفيا لا يحل محض المرشد واحكمه كان الكفر في إدراكه والنهى عنه إلا رزانة العلم فكان أليق بنفي العلم عنهم فختمت كل آية بما هو أليق بها وآنس.

وإذا كان نقد مضى أن التعريف للمسند باللام يفيد قصر الصفة على الموصوف فذلك مما يفيض بالكشاف ويعرف أن الزمخشري في لتنبيه الفائق في غريب الحديث وهو يوجه قول المصطفى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر... على الرواية التي تقول فإن الله هو الدهر

يقول الزمخشري " ومعنى الرواية الثانية فإن الله هو الدهر فإن الله هو الجالب للحوادث لا غير الجالب، ردا لمعتقدهم أن الله ليس من جلبها في شيء وأن جالبها الدهر...

فقوله هو الجالب للحوادث الغير الجالب إذا لم يكن فيه تحريفاً أو خطأ مطبعياً فإنه يفيد أنه من قصر الموصوف على الصفة حيث جاء بعد ال قوله غير الجالب ولو كان بعده ال هكذا ال غير الجالب لكان من قصر الصفة على الموصوف، أما قوله رداً لاعتقادهم .. فإنه يقطع أحد الوجهين حيث يحتمل كلامه ما هو جلي لمن تأمل.

***

ضمير الفصل

هو صورة ضمير يقع بين مبتدأ وخبر وما أصلهما كذلك وهو حرف يؤتى به لدفع الالتباس

ولا يلزم الإتيان به إلا بشروط

- أن يكون المبتدأ غير مسبوق بناسخ.
- أن يكون المبتدأ اسما ظاهرا.
- أن يكون الخبر صالحا لأن ينعت به المبتدأ

فإذا تحققت هذه الشروط وجب الإتيان بضمير الفصل لدفع اللبس فإن قلت " محمد الكريم" (جاز أن يتوهم السامع أن "الكريم" صفة لمحمد، وأن الخبر سيأتي فإذا قلت:" محمد هو الكريم" تعين أن "الكريم" خبر.

فإذا انخرم واحد من الشروط لم يلزم الإتيان بضمير الفصل ولكن ذلك لم يمنع عند الجمهور الإتيان به من غير أن ضمير الفصل الذي يجب أن يكون بين مبتدأ غير منسوخ وخبر معرفة بل أجاز جماعة الإتيان بضمير الفصل والخبر فعل مضارع كما عليه المازني لمشابهة المضارع الاسم ولامتناع دخول (ال) عليه فشابه الاسم المعرفة وجعل منه قوله تعالى ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ وقوله تعالى: ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ وذلك ما عليه الزمخشري في الكشاف والسعد في المطول ونازع في ذلك البهاء السبكي في عروس الأفراح.

وكذلك يجوز عند جماعة أن يكون الخبر ماضيا كما عليه السيوطي والتنوخي في الأقصى القريب وجعلوا منه قوله تعالى ﴿وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى، وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل" ...﴾ (النجم)

حيث أتى بضمير الفصل في الآيات في كل موضع أدعي في نسبة ذلك المعنى لغير الله تعالى ولم يؤت به حيث لم يدع ذلك .

غير أن السكاكي لم يرتض ذلك وناقش كلاً من السيرافي والتنوخي في الآية، أما المازني فإنه يرفض الإتيان بضمير الفصل قبل الخبر المضارع لأن المضارع يشبه الاسم حتى قيل فيه لأنه كالاسم.

والجمهور أيضا على أن ضمير الفصل يأتي والخبر أفعل تفضيل كما في قوله تعالى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين وذلك لمشابهة اسم التفضيل معه "ال" من حيث كون المخصص لأفعل التفضيل لحرف التعريف، صيغة أفعل التفضيل معنى وهو "من" فلهذا لم تسبقه متحدة معه، كما أن المخصص للمعرف بالحرف متحد معه وهو "ال" ولما كانت "من" التفضيلية كمثل "ال" التعريف (معنى) لم يجز اجتماعهما فلا يقال: محمد الأفضل من زيد " على أن الأفضل خبر.

فإذا كان ما بعد ضمير الفصل معرفاً فإن القصر يكون بطريق تعريف الطرفين، وليس بضمير الفصل كما في زيد هو التقي" وضمير الفصل في التوكيد، وليس للتأسيس القصر بخلاف "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده" التوبة:104 (فإذا ما جاء) هو (ضمير فصل وليس مسندًا إليه خبره جملة يقبل والجملة كلها خبر إن .

ومنه قول المتنبي:

إذا كان الشباب السكر والشيـ ـب همًّا فالحياة هي الحِمام

القصر هنا ليس مؤسسه ضمير الفصل، بل ذلك من تعريف الطرفين ،

ومنه قولهم الكرم هو التقوى على معنى الكرم إلا التقوى فهو من قصر المسند إليه على المسند كما حقق السعد في المطول

وحمل الفصل في مثل قوله "الكرم هو التقوى" على التأكيد ليس بمتعين لجواز حمله على إفادة قصر المسند على المسند إليه إذ المانع من قصد التخصيص فيما يستقيم فيه ذلك قاله الفنري

***

وضمير الفصل يأتي لثلاث فوائد نص عليها الزمخشري وهو بصدد تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.﴾

وهي :-

- الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة.
- التوكيد أي توكيد الحكم الدال على ربط المسند بالمسند إليه، وقيل توكيد المحكوم عليه لأنه راجع إليه فهو تأكيد له، والأول أقوى.

وإفادة التوكيد ليست مرهونة بأن يكون بين طرفيه تخصيص من غيره بل يمكن ألا يكون تخصيص

وقيل إن التأكيد بأن يفيد التخصيص ، واستبعده الفنري

- يجاب أن فائدة المسند تثبت للمسند إليه دون غيره أي أنه لقصر المسند على المسند إليه أو بعبارة أخرى لتخصيص المسند إليه بالمسند ، فهو لقصر الصفة على الموصوف فمعنى قولك : "محمد هو التقيُّ" أن التقوى مقصورة على محمد لا تتعداه إلى غيره ، ولذا يمكنك أن تقول : محمد هو التقي لا عمرو فكان حظ عمرو عدم الاتحاد بالمقصور عليه.

يذهب السعد في المطول إلى أن" من الناس من زعم أن "الفصل" كما يكون لقصر المسند على المسند إليه يكون لقصر المسند إليه على المسندِ كما يدل عليه كلام صاحب الكشاف

فهو إذن مفيد للقصر والتوكيد إلا أن إفادته للتوكيد مطردة، وأما إفادته القصر فإنها تكون حين لا يكون معه طريق للقصر غيره إما إذا كان كما في (أولئك هم المفلحون) فإن المفيد له هو تعريف المسند بال، وضمير الفصل للتوكيد فحسب في قوله تعالى: ﴿ وأولئك هم المفلحونَ ﴾ البقرة:5(حيث قال:"إن معنى التعريف في)المفلحون(الدلالة على أن المتقين هم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم ، لا يعدون تلك الحقيقةِ . انتهى كلامه.

فزعموا أن معنى الية يعدون تلك الحقيقة أنهم مقصورون على صفة الحال ، ال يتجاوزونه إلى صفة أخرى .

****

وقد صرح الملوى أحمد أنه يحتمل أن يكون ضمير الفصل للقصر فال يكون للقصر الإفرادي وذلك ما يعطيه موقف الزمخشري في الكشاف.

ولقد جرى على أن فيه قصر إفراديًا سبط ماهر

***

ومما جاء فيه ضمير الفصل للقصر قوله تعالى :

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(سبأ:6)

قوله (الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ أي ما الحق إال ما أنزل إليك من ربك فضمير (هو) ضمير فصل وقع بين مفعولي الفعل (يرى) :

األول (الذي أنزل إليك من ربك) والمفعول به الثاني هو (الحق) وأفاد الحصر أي حصر الحق في ما أنزل على رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)

وهذا القصر يحتمل أن يكون قصرًا حقيقيًا حقيقيًّا أي قصر الحقية على القرآن نفيها عن كل ما عداه من الكتب فما هي بحق لما مازجها من الباطل.والكالم فنا في الكتب المنزلة كالتوراة واألنجيل اللذين في أيدي أصحابهما أو المدعي تنزلها مثل كتب الصابئة وغيرهم .

ويمكن أن تجعله قصرًا إضافيًّا أي بالنظر إلى كتب أهل الكتاب خاصة دون االعتداد بغيرها ويكون قصر قلب ، وال أراه قصر إفراد ألنه اليكون من المسلمين أو من أهل الكتاب من يعتقد أن كتب الثالثة حق .

***

ومن الفصل بضمير الفصل قوله الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾السجدة: 23- 25(

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ على من يذهب إلى أن ضمير الفصل يأتي بعده الفعل يكون تأويل المعنى: يفصل بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون إلا ربك" فهو لقصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا .

في هذا من التثبيت والتطمين لرسول الله)صلى الله عليه وسلم(وأمته ما فيه، وفيه من التهديد لأهل الباطل ما تخلع له القلوب.

في هذا القصر معنى التوحيد كما اتضح عليك فإذا ما قصر ذلك عليه سبحانه وتعالى فهذا دال على أنه هو الله الحق وحده لا شريك له فلو كان له شريك لشاركه في الفصل بينهم يوم القيامة .

***

ومن ضمير الفصل المفيد قصرًا قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾يوسف:69(

قوله: ﴿ إني أنا أخوك ﴾ ضمير الفصل مفيد قصره على صفة الأخوة أي ما أنا إلا أخوك

وهذه الجملة بدل من قوله)آوى إليه أخاه(لأن من الإيواء قوله هذا لكن في ذلك القول من إدخال الطمأنينة عليه ما فيه.

والقصر قصر إضافي لأن المخاطب يعتقد أن الذي يخاطبه شخص غيره أخيه المعتقاده أن أخاه يوسف قد أكله الذئب فقلب يوسف عليه اعتقاده فهو قصر إضافي للقلب

****

ومن ضمير الفصل المفيد قصرًا قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ **كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ** قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر: 21-22)

***

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (النحل: 125)

قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الضمير (هو) ضمير الفصل المفيد قصر صفة على موصوف أي ما أعلم بمن ضل عن سبيله إلا ربك، وما أعلم بالمهتدين إلا ربك.

وهو يثبت هذا لنفسه سبحانه عن غيره ممن يدعون أنهم أعلم بذلك فهو قصر إضافي لا قلب. نظرًا لحال ما يتكلم في شأنهم، وليس نظرًا لحال المخاطب، فالمخاطب (صلى الله عليه وسلم) لا يعتقد أن غير الله تعالى يعلم بالضالين والمهتدين.

***

ولا يخفى عليك أن هذه المباحث التي ذكرناها وإن كان أكثرها مبسوطًا في كتب النحو فإنا قد ذكرناها باعتبار استعمالها لمناسبة الحال والمحافظة عليه في مقاماتها إما لنكتها أو لمقام يقتضيها فيه غيرها وإما لأغراض تترتب عليها فنظرنا إليها من منظور النظم ومعاني الأحوال من منظور علم النحو.

والحمد لله رب العالمين

انتهى القول في الحقول لطالبات السنة الثانية تمهيدي مرحلة التخصص (الماجستير)
في البلاغة والنقد للعام الجامعي 1446 هـ في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالقاهرة جامعة الأزهر

وكتبه محمد توفيق محمد سعد

أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد في الكلية

وعضو هيئة كبار العلماء في الأزهر الشريف

(شعبان 1446 هـ)